عمر لطفي النجار

العقل والإلحاد

دراسة لطبيعة الإلحاد عبر كل الأديان

مكتبة المبتدأ والخبر
دمشق – قطيفة – هاتف : ٧٥١٧٤٧ – ٠١٢ ، ص.ب : ٥

الطبعة الأولى

١٩٩٧

التدقيق اللغوي : الآنسة سوسن شباط

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الإلحاد ظاهرة عقلية، ما في ذلك ريب، ولكنها تستحق التأمل والتحليل، **فهل أصحابها هم المرضى والمجانين؟ أم هم العلماء وذوي العقول الراجحة؟** ومن ينظر في تاريخ الإنسان ومخلفاته الفكرية، يرى أنها ظاهرة مستمرة الوجود، لأنه لا وجود لأمة خلت من الإيمان، وهذا هو شرط وجودها، وهذا معناه أنها ليست حكراً على دين دون دين، أو مرحلة دون مرحلة، ولابد من أجل ذلك، أن ننظر إليها من خلال طبيعة الإيمان الذي تنتمي إليه، ما دام كل إيمان يصنع الملحد الخاص به دون غيره، وذلك بتحديد منهجه ومميزاته، تلك المميزات التي يختلف فيها الملاحدة عبر التاريخ أو القرو ن، فليس من إلحاد مطلق - إن اعتمدنا المعايير - وهذا بدهي، لأن قيمته حبيسة بين حدّي الفضيلة والرذيلة، ومن أجل هذه الرؤية، نهضت لقراءة ايمانيات البدائيين والمصريين والهندوس واليهود والنصارى والمسلمين.

وإذا قلنا أن الايمان هو الاعتقاد بوجود مالا يدرك، فسوف نجد أن هنالك سبلاً كثيرة أدت إلى اعتقاد هذا الوجود اللامدرك، اعتباراً من عقدة الحصول على العلم الشامل، نهاية بالخبر الوارد من السماء،مروراً بالأهواء والأغراض، ولهذا كله نرى أنه من الممكن، الفصل والتمييز ما بين الإيمان الناتج عن التجربة، والإيمان الناتج عن الخبر، وهذا مالا يجب أن ننساه، إن أردنا إحكام هذا الكتاب على شكله الصحيح.

لقد قلنا في غير هذا الكتاب: أنه لابد من الإيمان لإيجاد وعقلنة الفعل الخلقي، الذي له القدرة على ترميم القانون، الذي لا وجود للمجتمع بدونه،

وهذا يدفعنا إلى التفكير في علاقة الإلحاد المطلق بالمعايير، لنرى **كيف يكون الإلحاد فضيلة، وكيف يكون الإيمان رذيلة، أو بالعكس، أما السذّج ولو كانوا فلاسفة، فقد حاولوا عبر القرون، إيجاد ملكات خاصة أو عقل خاص، له القدرة برأيهم، على تبرير ما آمنوا به**، وهذا لا يعني شيئاً على الحقيقة، إلا الهروب والانهزامية أمام الملاحدة، الذين لم يعترفوا بالعقل إلا مرتبطاً بالحس والمحسوس، أو بالمادة على العموم، وعندها فلا لقاء بين الطرفين، وأعني بهم المؤمنين والملاحدة - ولا حوار إلا بالشتائم المتبادلة، وغالباً ما تكون الأمور بينهما مضحكة وسخيفة، ولكن هل من معقول عند العقل لا علاقة له بالحواس والمحسوس؟ وليكن لهم شرطهم الذي أرادوه، وأعني بهم الملاحدة، لأن المهم أن يتوفر الإخلاص أو الإذعان لأحكام هذا المعيار، وإلا فهي البدائية، ولو كان صاحبها قابعاً في ناطحات السحاب.

أما المعيار الثاني، فينتمي إلى قيمة الإنسان التي لا يساويها شيء على الإطلاق، لأني عاجز عن رؤية الإنسان الحر، ذاك الذي يقبل ثمناً لذهابه نحو العدم، مهما يكن ذلك الثمن، وهل من مؤمن أو ملحد لا يرى القيمة لنفسه؟ ولكن على عاتقهما حينئذ يجب أن يكون حل العلاقة الخطيرة التي ستنشأ بين القيمة والأخلاق، لأن الفرد والمجتمع سيلتقيان حتماً وفق علاقة الند للند على أرض واحدة ووجهاً لوجه، ولكن لابد من نصرة أحد الطرفين، وما أسوأ هذا النصر إذا ما تحددت المعركة في هذا الخيار وعلى هذا المسرح، **ولكن أما من علاقة بين العقل والايمان إلا من خلال الخطأ؟**

تم بعون الله تعالى

٢٠ / ١٠ / ١٩٨٤

***

الجزء الأول

البدائية وطبيعة الإيمان

- من هو البدائي؟

ليست البدائية زمناً مرَّ وانتهى أمره، فالإنسان الحالي وثيق الصلة بأسلافه القابعين خلف ملايين السنين، لابد من ذلك لأننا بالتأكيد لسنا إلا نتائج لمراحل سحيقة في القدم، **فأسلافنا هم المقدمة الضرورية لوجودنا**، أما ما يجمعنا بهم بشكل مشترك وشمولي وفوق كل المتغيرات، فهو تلك العملية التي نسميها الإدراك، لأنه لا معنى للفرق بالدرجة بما أن امتداد الإدراك إن كان بالكلب أو بالعصا هو نفسه امتدادنا بالصاروخ والمجاهر وإلى ما هنالك. ومنهج الخطأ الذي استخدمه البدائي هو نفسه وسيلتنا في الخطأ، فالبدائية لا تعني أناساً من نوع آخر، لأنها ليست في نهاية الأمر إلا منهجاً خاصاً في التفكير، قد يحتضنه كل إنسان منا نحن أصحاب الحضارة، إنها لا تعني «مرحلة زمنية قابلة للتحديد الزمني، كما أنها ليست خاصية لهذه الحضارة أو تلك، وإنما من الممكن فهمها: بوصفها حالة عقلية أو رو حية، تتمثل في صورة «ما» في كل مكان وزمان»(١). و«الأبحاث التي تمت أخيراً حول التاريخ المبكر للإنسان، كشفت عن مدى التشابه الأساسي في عمليات العقل البشري، وهو يصنع فلسفته الأولى»(٢).

- البدائية موضوع إلحاد انثربولوجي:

عند القول بإيمانيات خبرية تنتمي إلى ما فوق العالم، فإن البدائية تصبح مادة أو موضوعاً ذا اتجاهين، فالذين أرادوا نفي الدين عن ذلك المصدر، يحاولون ربط كل إيمان وشعيرة بالبدائية، وصولاً لربط كله بفكرة التطور والمصدر التجريبي الذي ينفي برأيهم المصدر الإلهي. **وكثيراً ما يرى هذا**

---

(١) ص٣٦ الحكاية الخرافية.

(٢) ص٧١ الغصن الذهبي.

الإلحاد أن المادة الأقدم في الهمجية هي الأصل والمنبع الفعلي للأديان. أما الاتجاه الآخر، فمنهجه يعتمد على إيجاد التشابه في العقائد أو الشعائر، ليؤكد أصحابه وحدة المصدر الإلهي، الذي يعلو على التطور والزمن، ولذلك مثلاً ينهمكون في البحث عن التوحيد في معتقدات بعض القبائل أو الشعوب القديمة، وسوف يستخدمون إن اضطرهم الأمر ذاكرة الأرواح من أجل ذلك الغرض. إلا أن التشابه، هذا المقروء باتجاهين مختلفين، عاجز عن إعطاء اليقين المطلق لأحدهما، خاصة أنهما يعتمدان على إرادة الانتقاء التي تستطيع أن تختار ما تريد، ما دام التاريخ ليس إلا ملحمة حوت الكثير والكثير، أو كأنه سوق عظيم يتيح لزائره ابتياع كل ما يرغب فيه أو ما يحتاج إليه. والمغالطة التي يقع بها الإلحاد حينئذ، هي تعميم بعض الأحكام الناتجة عن دراسة البدائية لتشمل كل إيمان معروف، ويتجلى هذا واضحاً عند تحديدهم للباعث الذي صنع الإيمان أو الأديان، فإذا بهم يسقطون في عقدة المفتاح الوحيد، الذي بإمكانه فتح كل الأبواب، وإنها لمهزلة فكرية وتعسف لا معقول، عند قولنا بالجنس فقط، أو المرض فقط، أو الخوف فقط، مصدراً شاملاً ينطبق على الجميع، جميع الأديان.

وعلينا أن نعلم بادىء ذي بدء، بما أن الأمر متعلق بالإنسان، أن الإنسان مذ وجد يسعى نحو اللذة، نحو الاطمئنان، نحو الراحة، ما دام له بقاء يستطيع الدفاع عنه، وكذلك فإنه يكره، يكره الألم ويهرب منه، بل ويقاتل بكل الوسائل المتاحة، حفاظاً على بقائه، مادام الموت قابعاً له في كل لحظة من لحظات الزمن. وقد أدرك البدائي ذلك جيداً، وتلك هي طبيعة الإنسان، هذا الكائن الحي الذي يملك العقل، كأقوى وسيلة تصنع القوة من أجل البقاء، إلا أن للقوة لساناً لا يفتر عن ذكر الضعف، ودوماً يقول: أنه ما من قوي إلا وهنالك الأقوى ومن هذا الإدراك تبدأ معركة الإنسان مع الإنسان، معركة الإنسان مع الطبيعة، مع الحيوان، مع نفسه، دون أن يستطيع التوقف قط.

لقد أدرك الإنسان نفسه، وعرف ما تعنيه الرغبة والإرادة، وربط ذلك كله بالعلة، كما عرف أن الأسباب تعني السيطرة على كل شيء، أو الأشياء،

وعندما نظر إلى السماء وجدها تعج بالكائنات الحية، فها هي تتحرك بإنتظام دائم، **وكل ما يتحرك من قبل ذاته فهو برأيه حي**، وإذا ما استطاع اغراء الإرادة عند هذه الكائنات، فهي عندئذ مسخرة لنفعه، وبما أنه ما من شيء إلا وله ثمن، فالعلم عندها هو ربط الثمن بالإغراء أو الإرادة، وامتدت هذه الفكرة لتشمل كل الظواهر الطبيعية التي تعرَّف عليها، وأصبح بإمكانه كما يعتقد، تصريف الرياح في الحرب والرخاء، وكيفما يشاء، وبإمكانه أن ينزل المطر متى رغب وأحب، وهكذا دون حد أو عائق، إنه العلم، والعلم دائماً ذو أهداف عظيمة. ولكن كيف كانت له تلك السبل التي ربطته بفكرة الروح أو الإرادة التي جعلها مصدر العلم؟ **إنها تجربة الروح**.

- تجربة الروح:

إن علاقة الإنسان بالمُلّذ والمؤلم لم تقف عند حدود علاقته مع الكائنات الحية وظاهرات الطبيعة فحسب، بل امتدت إلى أعماقه من خلال تلك التجربة الداخلية التي تسمى بالأحلام، وبرزت خطورة هذه العلاقة بشكل عظيم، لأنه في حال حدوثها فلا حول له ولا قوة، كما **أن الإنسان كثيراً ما يفكر فيما يخشاه ويخافه**، وكيف لا يخشى تلك الظاهرة التي تعزله عن الإرادة والقوة؟ وبما أن الحياة عزيزة، فلابد من اقتحام التجربة، وها هم الموتى الذين تفسخت أجسادهم يظهرون تارة أخرى في أحلامه! وقد يكونون مصدر لذة سارة أو ألم مفرط، وهل من كان مصدراً لذلك لا وجود له؟ **فالأموات يملكون وجوداً من نوع ما**، بل يملكون الإرادة بكل ما تعنيه الكلمة، وإذا ما كانت الإرادة ذات وجود، فوجودها حتماً تابع لهذا الجسم الذي يراه ويدركه، **إنها الروح ذات الوجود المنفصل**، وبذلك لا ضرورة لإدراكها مع الأشياء، بما أن إدراكها قد تمَّ على الحقيقة، والجميع يرون ذلك، لا فرق بين صغير وكبير، بين ذكي وغبي، بما أن التجربة شاملة ويقينها مُدرك وواقع. إلا أن محتويات تجربة الحلم هذه ليست محدودة برؤيته للإنسان الميت فقط، فقد كان ومازال يرى الأشجار والحيوانات والكواكب، وما شابه ذلك من أحلامه، وهل يعقل

أن يكون هؤلاء بلا إرادة؟ لقد لاحظ انفعال الحيوانات لبعضها من خلال ما يصدر عنها من أصوات، وبذلك علم أنه ليس من الضروري أن يفقه الأصوات حتى يُقِّر بها وسيلة اتصال بين الكائنات، فللأشجار حفيفها، وللرياح أزيزها وهديرها، وللرعد قعقعته الآمرة القوية، ولابد ان ما يسمعه هو لسان رغبة تلك الظواهر، مادامت تملك الروح التي تحب وتكره، تلك الروح التي أدركها في أحلامه.

فلكل ظاهرة من الظواهر المُدْرَكة جوهر، إنه الروح التي تحمل الإرادة، وهاهم علماء تلك البيئة، يرون خروج الثعابين التي يجهلون مصدرها من القبور، فقالوا: إن «الثعابين تجسدٌ للأسلاف الموتى»(١). ومن ملاحظة الطيور التي يجهلون آلية طيرانها، ومن مقارنتها بصور الحلم اللامادية، كان «أغلب تصور للروح شيوعاً، هو بحق تصوره وهو يطير في صورة طائر»(٢).

وجَهْل البدايات البعيدة المنال أو الإدراك مثلاً، أتاح لعرب ما قبل الإسلام، اتصال أنسابهم بالجن، كقبائل جرهم وبني شيصبان وبني يربوع وبني مالك. كما أن «بعض الأماكن – أيضاً – تشجع على خداع السمع لأنها تردد الأصداء ومن هنا نشأت تلك الخرافات التي تزعم، أن أشباحاً عطست أو تجشأت بأصوات عالية»(٣). والموت الجماعي، هذا الموت الناتج عن الأوبئة، لا علة له عند البدائي، ولا مبرر لوجوده، بما أن العلل مجهولة إلا عن غضب عظيم من روح قوية، ولقد كانت « الحياة البدائية، «كما هو معلوم»، محاطة بمئات الأخطار بالفعل، وقلما جاءت الميتة عن طريق الشيخوخة الطبيعية، فقبل أن تدب الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل، كانت كثرة الناس تقضي بعامل من عوامل الإعتداء العنيف، أو بمرض غريب يفتك بها فتكاً، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائي، أن الموت ظاهرة طبيعية، وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة»(٤).

---

(١) ص ٤٠١ علم الفلكلور.

(٢) ص٦٩ الحكاية الخرافية.

(٣) ص ١٤٤ – ١٤٥ علم الفلكلور.

(٤) ص ٩٩ ح ١ م ١ قصة الحضارة.

ولولا التفسير بالإرادة «لكان العالم مليئاً بالأحداث التي يستحيل تعليلها، مثل حركة الشمس، أو البرق الذي يصعق الأحياء»[1]، وهل يرضى البدائي بديلاً عن الحصول على كل العلم؟ لا، فلا جهل لديه ما دام هو المعيار في كل تعليل وتفسير، وما أكثر الدروب حينئذ التي تؤدي إلى كل العلم، **وهكذا لا جهل عند البدائي قط وتلك أعظم ميزة له.**

إن المشتغلين بالعلوم الروحية يقولون: أن ظواهر الباراسيكولوجيا، موجودة عند البدائيين بنسبة أكبر منها عند الإنسان الحالي، وما ظنك إذا كان «كولن ولسن» يقول: أن نسبة ٥٪ من الناس في أيامنا هذه يتمتعون بتلك القدرات الخارقة! فالبدائي كان مدركاً وقادراً على «تحريك الأجسام الصلبة بغير وسيلة مادية»[2]. مثلاً، كما أدرك «ظاهرة المجلوبات والمأخوذات الروحية التي تعني انتقال الأجسام الصلبة عبر الجدران والأبواب المغلقة». فقد كان هنالك من لهم قدرة «الشعور على البعد، أو معرفة الأخبار عن الإنسان، من ملامسة بعض متعلقاته، كمنديل أو قلم أو خاتم أو علبة أو ما شاكل هذه المتعلقات وتفسير الأحلام، والاستيحاء الباطن، والوسواس، واستطلاع المستقبل، واستطلاع الماضي، والكشف، وتحضير الأرواح، وكل هذه الملكات قديم معهود في جميع الأجيال والعصور»[3] و«من المعروف أن أمثال البرسكرز النورديين، لا يشعرون بالآلام حين يكونون في غيبوبة، ولدينا أمثلة عن فقراء الهنود معاصرين، يطعنون أنفسهم بالمدي، ولا تسيل منهم نقطة دم واحدة»[4].

ومن ذلك كله، يتضح أن **عناصر تجربة الروح، التي صنعت العقيدة بكافة أشكالها، تتحد وتتمحور، حول أوهام الحصول على العلم الشامل**، ولم يكن ذلك للبدائي، لولا انزلاق العقل في تجربة الإدراك نحو المفتاح الروحي، الذي على عاتقه، يقع فتح كل الأبواب أمام المجهول. وعليه فإنه:

---

(١) ص ١٠١ نفسه.

(٢) ص١٦٥ ج١ الإنسان روح لا جسد.

(٣) ص٤٣ الله.

(٤) ص٤٤٧ علم الفلكلور.

إذا كان الإيمان يقول: لا وجود للجهل فإن الملحد عندها هو الذي له القدرة على الاعتراف بالجهل، ومن أجل تبيان هذه العلاقة، يتوجب علينا النظر في شخصية رجل العلم، الذي هو بالطبع الساحر أو الوسيط أو الشامان أو المشعوذ، وكذلك النظر في بنية تلك البيئة الثقافية.

- الساحر والروح:

لقد كان الساحر، بما تميز به من قدرات مميزة عمن سواه، ركناً هاماً في البرهنة على الروح، بل ومن الشواهد التي تشير إلى يقين وجودها، ولا بد لذلك أن يصبح في الطليعة، فهو الرائد الذكي، ورجل العلم الأوحد، والزعيم المطاع، وكيف لا يكون كذلك إذا ما كان **العلم هو العلم بما تريده الأرواح**؟ فالساحر شخصية مثيرة حقاً، إنها تدعو إلى إثارة العجب، ويكفيه ذلك رصيداً ليتنسم ذرى العزة والمجد، فالشامان «شخص يتميز عن غيره من الأفراد العاديين، بأن يتمتع بقوى شخصية خاصة»[١]. ويتميز «بدرجة عالية من التوتر، كما أنه سريع التعرض للأوهام والتخيلات وحالات السواد أو الملانخوليا»[٢]. أنه «الرجل أو المرأة الذي يخاطب الأرواح، وقد يقوم بتحضيرها في جلسة خاصة، مثلما يفعل الوسيط تماماً، ويقام الحفل في بيت أو كوخ «يورت» بعد أن تطفأ الأنوار، ويتجمع الناس، ويبدأ الشامان يضرب على طبل خاص، ضربات خفيفة، ولكنها سريعة متلاحقة، ثم يأخذ في الغناء، وبعد فترة يتردد في البيت صوت جديد، لا يلبث أن تتبعه أصوات أخرى، لقد جاءت الأرواح، وهذه أصواتها، وهي تتحرك، وقد يتخذ لبعضها هيئة حيوانات تتكلم بلغة الإنسان، ولكن البعض قد ينطق بألسنة غير معروفة»[٣].

---

(١) ص٢٤٥ ماوراء التاريخ.

(٢) ص ٣٣٨ نفسه.

(٣) ص٢٤٤ ما وراء التاريخ.

أما أن يتم عزل الساحر أو البيئة البدائية عن تجربة الروح، أو التعامل مع الأرواح، فإني أراه من أفدح الأخطاء التي وقع بها بعض الانثربولوجيين، و«فريزر» على سبيل المثال، يقرر أن السحر نوعان: السحر التشاكلي، ويقوم على تداعي الأفكار عن طريق التشابه، والسحر الاتصالي، ويقوم على تداعي الأفكار عن طريق التجاور أو التلامس - ثم يقرر أن - السحر التشاكلي يقع في خطأ افتراض أن الأشياء المتشابهة متطابقة تماماً، والسحر الاتصالي يقع في خطأ افتراض أن الأشياء التي كانت متلامسة تظل متصلة باستمرار»(١). إلا أن تجربة الروح، حتماً أقدم من هذا التجريد، أو من هذا المنطق الذي يقول به «فريزر»، لأنها ارتبطت ورافقت وجود ذلك الإنسان في البدء، وعلى ما يبدو أن «فريزر»، وقع في اشكالية التعامل الرمزي التي تدور ما بين الساحر والأرواح التي يجهل لغتها، وها هو نفسه يقول: «يذكر لنا المؤرخ العربي المقريزي، طريقة لمنع سقوط المطر، كان يقال أنها كانت شائعة بين إحدى قبائل البدو في حضرموت، وهي قبيلة القمر، فقد كان الناس هناك، يقطعون غصن شجرة معينة في الصحراء، ويشعلون فيه النار، ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل، فيقل هطول المطر حتى يتوقف تماماً، مثلما تختفي المياه التي ترش على الخشب المتوهج»(٢). ولكن هل تُنقل الأفكار بغير الإشارة بين المختلفين في اللغات؟ ولا أظن أن علاقة العود والنار فيما رواه لنا إلا من هذا القبيل، بلسان تراه الأرواح وتفهمه لا بكلمات تقال، وحتى عندما أصبح الساحر في المراحل المتقدمة يستخدم الكلمة دون الإشارة، فإنا نجد «العزائم» والتمائم، ليست إلا الاستعانة بأرواح قوية على أرواح ضعيفة، كهذه العزيمة التي تقول «أقسمت عليك بطام٢ تروق ٢ مردوث٢.. إنزل ياشمهورش»(٣). فمنطقهم يرى أن «كل روح مهما

---

(١) ص١٠٧ الغصن الذهبي.

(٢) ص٢٥٤ نفسه.

(٣) ص٩٧ التحف الجوهرية.

كانت قوية، فلابد من وجود قوة أخرى تؤثر فيها، ومتى وفّق الإنسان - هكذا يقولون - لمعرفة هذه القوى، واستخدمها بالطريقة الصحيحة، استطاع بها أن يخضع كل قوة تحتها»[١]. **فالساحر البداءي أو الساحر الحالي ليس إلا ذلك الرجل المتعامل مع الأرواح لاكتساب رضاها أو إرغامها عنوة**، لأنه يزعم معرفة ما ينفعها وما يضرها، بل وحتى المواد التي يستخدمها في أوهامه، ليست إلا النوع الذي تطلبه الأرواح أو تخشاه، أمثال «البخور والملح والعظام والخرز»،[٢]. وإلى ما هنالك..

- العدل وتجربة الروح:

ولتجربة الروح تأثيرها في كل الميادين، ومن منطقها كان للعدل معناه الخاص، وليس تطوراً يسيراً حتى أصبح يعني المساواة الحسابية أو الهندسية بما أن تطوره ملازم لتطور العقائد ووسائل المعرفة، **والأرواح هي الأعلم وفق التفكير البدائي**، وبيدها يجب أن يكون الميزان والأحكام الفاصلة، وإذا ما نشب نزاع أو خصومة مثلاً، فإن «المتّهم والمتّهم كليهما، يطلب إليهما أن يختارا كل منهما صحفة من طعام، من بين صحيفتين، إحداها مسمومة»[٣]. و«سكان الكونغو يستخدمون «اوردالیا» السم، حيث يقدم للمتهم السم الذي سوف يصدر حكمه بالإدانة أو البراءة، بأن يؤثر فيه أو لا يؤثر بحسب الحال، أو قد يسوي الخصمان منازعاتهما المدنية، عن طريق اختبار قدرة كل منهما على مقاومة تأثير السم لمدة أطول، أو قد يقدم السم إلى دجاجة، ثم يوجه إليه أي للسم الذي يعتبر وسيطاً عاقلاً، وليس إلى الدجاجة، السؤال المطلوب الإجابة عنه، ويطلب إليه في احترام، أن يقتل الدجاجة التي سوف يستقر في جوفها، إن كان الجواب بالإيجاب،

---

(١) ص٥٨ النجاح في علوم النفس والتنويم و الأرواح.

(٢) ص٣٧٥ أديان العرب قبل الإسلام.

(٣) ص٥٢ ج١ م١ قصة الحضارة.

وعدم الإضرار بها إن كان النفي»[1]. **فالأرواح التي تقوم بتحقيق العدل، هي التي تهيمن على إرادة الجاني، وهي التي تعاقبه**، وهي التي تناصر المظلوم، فالسم ليس ضاراً بذاته، أو بما هو مادة لأن الخير والشر ملك إرادتها، و«هبل» الذي كان موجوداً في جوف الكعبة قبل الإسلام، هو كما يعتقدون روح يحمل العلم والإرادة، «وقدامه سبعة أقداح، مكتوب في أولها «صريح»، والاخر «ملصق»، فإذا شكُّوا في مولود، أهدوا إليه ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج «صريح» ألحقوه، وإن خرج «ملصق» دفعوه»[2]. ومن يقين تجربة الحلم أو الروح، أصبحت «خيانة المرأة في الأحلام عند بعض البدائيين، شاهداً على خيانتها الحقيقية، كما أن **الحلم عند بعضهم، أقوى حجة من أقوال الشهود**»[3]. ولقد أصبح من العدل ألا يؤذي الإنسان الأرواح بأي شكل من الأشكال، فعليه مثلاً استبعاد كل ما يضرها «فلا ينبغي أن نضع السكين المكسورة على المائدة، وحدَّها إلى أعلى، وذلك حتى لا تجرح الأرواح الطيبة نفسها»[4]. «أما الذي يُقتل ويُهدر دمه ولا يؤخذ بثأره، فسوف ينتقِمْ من المجتمع، بأن يُحدث نقصاً في المحاصيل»[5]. وللأرواح وسائلها في إقامة العدل والأخلاق، «فاليد التي تضرب أباً أم أماً، تمتد خارج القبر، فلا يستطيع أحد أن يواريها التراب، أما شهود الزور فينبغي أن تلازم أرواحهم بعد الموت جسم جريمتهم، وهو في العادة قطعة الأرض التي زوروا الشهادة لاغتصابها»[6].

(١) ص٢٩٤ ما وراء التاريخ.

(٢) ص١١٦ الفلكلور والأساطير العربية.

(٣) ص٨٨ الحكاية الخرافية.

(٤) ص٣٥٨ علم الفلكلور.

(٥) ص١٥٨ نفسه.

(٦) ص١٥٢ نفسه.

- الطوطم والروح:

الطوطم هو الآخر واحداً من أعمدة الثقافة البدائية، إنه ربيب تجربة الروح، إنه المصدر التناسلي للقبيلة، **فلكل قبيلة طوطمها**، إنه وليد الصراع والعداء، فقد «أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينياً على توحيد القبيلة التي ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معاً برباطه، أو **هبطوا جميعاً من سلالته**»[1].

أما «لماذا أتخذ المجتمع «أ» من الثعابين طوطماً يعبده، في حين يقتلها أفراد المجتمع «ب» ويأكلون لحمها، ويوجد المجتمع «جـ» الذي يقتلها ولا يستخدم سوى جلدها للزينة»[2]. فعائد حتماً إلى قدرة الإنسان على اكتشاف قوة هذا الحيوان أو ذاك، أو ما تميز به من قوة، بما أنه ما من حيوان إلا وله مركز قوة يخصه دون سواه، كما هو عائد إلى حاجاته وتصوراته، فالبعض يرى أن الجناح أعظم من الفك، أو أعظم من الجري السريع، وهكذا دون أن تقف تلك التجربة عند حد، لذلك أصبحت كل الحيوانات بكافة أصنافها الصغير منها والكبير، قويها وضعيفها قادرة على أن تكون مقدسة ومعبودة.

إن اتصال الإنسان والحيوان بنسب واحد، لم يكن نشازاً على معارف تلك البيئة، فالجهل بآلية التناسل، أو الجهل بدور العمل الجنسي في الإنجاب، ربط مصدر الإنسان بالعلاقة الروحية، «فالهمجي - على حد تعبير العقاد - الذي جهل أسرار التناسل، قد يتخذ له جداً معبوداً يتمثل في شبح الأسد أو الكلب أو الصقر، أو العقاب، ولا ينكر أن يكون أبوه من سلالة الحيوان جسداً وروحاً بغير مجاز، لأنه لا يفقه المانع الذي يمنع الروح أن تسكن جسم حيوان كما تسكن جسم إنسان»[3].

وهل كان تعليل الحمل إلا بالأرواح أو الأشباح التي تدخل جوف المرأة؟ ومن هذه الزاوية دخل الطوطم في تجربة الروح.

---

(١) ص١٠٦ ج١ م١ قصة الحضارة.

(٢) ص٩٦ الانثربولوجيا الثقافية.

(٣) ص٣٥ الله.

فقد أصبح الطوطم مصدراً من مصادر التشريع في الفقه البدائي، «وأن عدداً من المحرمات - تابو - له صلة بالطوطم، ومثال ذلك، لا يحل أكل لحم الحيوان الطوطم، وأكثر من هذا لحم كل حيوان يشبهه»[١]. إلا أن الغريب في الأمر، أنه «يجوز أكله في بعض الظروف، على أن يكون ذلك، من قبيل الشعائر الدينية»[٢].

ولكن يجب ألا تخدعنا كلمة «الشعائر»، لأنها لا تعني إلا الإلحاد المقدس، الذي على مثاله «ابن سبأ»، الذي احتجَّ لإلحاده على من أراد عقابه بالنار قائلاً: الآن عرفنا أنك أنت أنت، لأنه لا يعاقب بالنار إلا خالقها.

- العلم والروح:

تجربة الروح هي العلم، ولا تعليل أو تفسير إن لم يكن لها وجود، وظاهرة الخسوف مثلاً، يعللها البدائيون بقولهمْ: «إن الأجرام السماوية تطاردها بعض الوحوش الضارية، التي توشك أن تتلفها، ومن المعتقد إذن، أنه من واجب الإنسان، أن يفزع هذه الوحوش ويطردها، بأن يحدث ضجة جهنمية»[٣]. و«الغراب» لم يصبح أسود اللون، إلا بفعل لعنة حلَّت عليه «بسبب ثرثرته»،[٤]. وقصة وجود البومة تقول: «في يوم من الأيام، دخل الإله دكان خباز، حيث كانوا ينضجون الخبز، والتمس أن يعطوه شيئاً من الخبز ليأكله، فوضعت صاحبة الدكان قطعة من العجين في الفرن، غير أن ابنتها وبختها، لأن قطعة العجين كانت أكبر مما ينبغي أن يناله ذلك الشحاذ، وأنقصت الأم قطعة العجين، غير أن قطعة العجين شرعت تنتفخ، حتى صارت جسيمة الحجم، فصاحت إبنة الخباز، «هيو! هيو! هيو»، وكانت تلك هي صيحة البومة، التي جعلت الإله يحوِّل الفتاة إلى بومة، جز اء وفاقاً على شرها»[٥].

---

(١) ص٧٨ الحكاية الخرافية.
(٢) ص١٠٧ ج١ م١ قصة الحضارة.
(٣) ص٣٣٢ علم الفلكلور.
(٤) ص٨١ الحكاية الخرافية.
(٥) ص١٢٠ علم الفلكلور.

- الأمراض وتجربة الروح:

ولننظر أيضاً في منطق تجربة الروح مع الأمراض، فقبائل «البوشمن» «يعتقدون أن **الأمراض تنشأ نتيجة لدخول نوع معين من الأرواح الشريرة الصفراء الدقيقة في الجسم**»[١]. وحين «يمرض شخص «ما»، ويعزى مرضه إلى شرود الروح، فإن الشامان هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يراها، يقوم بتعقبها حتى يردها ثانية،[٢]. وحتى في المراحل المتأخرة نرى أن الرومان أيضاً قد استأجروا «راقصتين من أتروريا القديمة في القرن الرابع قبل الميلاد ليطردوا عنهم وباء الطاعون»[٣]. **فالعلاج الطبي هو «القسم على الأرواح»**[٤]. والمرض يمكن إرساله إلى الخصوم، وفقاً لمشيئة الساحر، «وإذا أردت صرع الحمى وترسلها من موضع إلى موضع على سبيل المثال، أو من شخص إلى شخص آخر، فجلّس المحموم بين يديك، واكتب الخاتم في يده، وعزّم وقل في آخر كل عزيمة: ياخدام هذه الأسماء، أسرعوا هذه الحمى التي في كذا وكذا هذا الجالس بين يدي، **فإذا** اسرعوها، فقل لهم اصرفوها عن هذا الشخص، وسيروا بها متوكلين عليها إلى كذا، ولا تفارقوها حتى تدخل في جسده وتتسلط عليه، وتأخذه بشدة عظيمة، ولا تخرج إلا إن أمرناها بالخروج[٥]. **وهل السلطان والنفوذ إلا لمن يملكون مصير الإنسان حال قوته وضعفه؟** و«السحرة والمطببين في جنوب امريكا - مثلاً-، كانوا دائماً على الطريق المؤدية إلى الرئاسة أو الملك»،[٦]. وهكذا هم أينما وجدوا، وتلك هي أحلامهم.

(١) ص١٧٠ ما وراء التاريخ.

(٢) ص٢٤٥ نفسه.

(٣) ص٤٦٠ علم الفلكلور.

(٤) ص١٠٢ الحكاية الخرافية.

(٥) ص٥٩ التحف الجوهرية، المسألة الثامنة عشرة.

(٦) ص٣٢١ الغصن الذهبي.

- الساحر والإلحاد:

لقد عرف البدائي أن الإرادة لا تتحرك دون علة ولا مرجح، إنه القانون الشامل، هذا القانون الناتج عن منطق تجربة الروح، وهل قصة القرابين بعيدة عن هذا العلم؟ إنها العلم كله!

فالقربان الذي يرضي الأرواح هو المسؤول عن الإتيان بالخير، فليس من شيء يلقى جزافاً وبلا مقابل، وعلى مقدار قيمة المطلوب تتراوح قيمة القرابين، حتى أن «هبل» «كان قربانه مائة بعير»[1]. بل «إن جميع الشعوب، وكذلك الشعوب الجرمانية، كانت ذات يوم تقدم الناس ضحية للآلهة - الأرواح -، لكي تسالمها وتنشد مساعدتها»[2]. إلا أن القربان البشري، الذي هو من نفس الجماعة ومن أجلها يثير التأمل، فأن يكون الإنسان مأكولاً، فليس في ذلك غرابة، إذا ما كان من الأعداء، وهذه ظاهرة معروفة، حتى «أن أكل اللحوم البشرية، كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً، مثل سكان ايرلنده وأبيبريا وجماعة البكت، بل أن بين أهل الدانماركة، في القرن الحادي عشر»[3]. وأني أرى أن **ظاهرة القربان البشري، لم تظهر إلى الوجود، إلا عند توفر الشك في تجربة الروح**، فهل كان الساحر قادراً على دفع الأعداء والقضاء عليهم حقيقة؟ أم على دفع الزلازل والبراكين والتصرف في الرياح والأمطار وهزيمة الجيوش والأوبئة وإلى ما هنالك؟. حتماً لا. وهو أول المدركين لذلك، وهو أول من يشك في قانونه العلمي، على الرغم من تلك المميزات التي تميزه عن أقرانه.

وبشكه ذاك، راح يأكل القرابين، «وحُرمت الآلهة حتى هذا الحيوان، لأن الكهنة - أو السحرة - آثروا أنفسهم بالطعام الشهي، وأخذوا يأكلون كل ما

---

(١) ص٣٠٥ أديان العرب قبل الإسلام.

(٢) ص١١٥ الحكاية الخرافية.

(٣) ص١٩ ج١ م١ قصة الحضارة.

يمكن أكله من الضحية المقدمة، ثم يهبون الآلهة - الأرواح - على مذبح القربان، أمعاء الضحية وعظامها»[1]. ولكنه حفاظاً على تلك المكاسب التي يتمتع بها، كالجاه والمُلك والسلطان، نراه قد اندفع إلى ملاحظة الطبيعة تجريبياً، وإذا ما توصل إلى قانون صحيح تجريبياً، بحيث يضمن له السيطرة والتكرار، كان يدرجه في تجربة الروح. إلا أن العلم التجريبي بطيء المنال، ورعايا الساحر يخسرون القرابين بلا مقابل، وبما أن الشك في تجربة الروح ليس ممكناً ولا وارداً عندهم، لذا انصب شكهم على وفاء الساحر أو إخلاصه، حتى أصبح مألوفاً أن نسمع عن قتله بيد رعاياه. وهل يقف صاحبنا مكتوف اليدين ينتظر مصيره المحزن؟ لا، فلا بد من الحيل والشعوذة، وتلك مرحلة يعرف وجودها، ويلمسها كل من نظر في تاريخ عقائد الإنسان القديم، فعند قمة الصراع، وعند تلاقي الشكّين، يحاول الساحر استدراج بيئته، نحو الإلحاد الذي هو فيه. ولو اضطر إلى القول: أن ما هو مطلوب من الأرواح لم يتحقق، لأن القرابين التي يقدمونها بخسة لا قيمة لها، والقربان الجلل يجب أن يكون كائناً بشرياً، فاذعن الشعب بعد وجوم، ورضوا بفناء الجزء عن الكل، بما أن تجربة الحلم، ستبقى فوق الشبهات، **وسيبقى الساحر صانع العقيدة هو الملحد الوحيد الذي عرف استحالة الحصول على العلم الشامل،** فاعترف بعجزه عندما استعان بالعلم والحيل، ولولا اعترافه بالجهل، لما كان له نزوع نحو الإدراك الصحيح، وتلك هي مأساة الشهيد الأول للعلم والإلحاد.

- الإلحاد المغلوط:

ولو أردنا أن نضرب مثلاً للإلحاد السيء، هذا الذي يفرض نفسه عنوة، وبلا مبررات معقولة لوجدناه في مقولة هبوط الله إلى الأرض، التي مثّلها «فويرباخ» عندما قال: «إن سر اللاهوت هو الانثروبولوجيا»[2]. وعلى هذه الانشودة عزف «نيتشه» ألحانه التي تغنت بموت الإله، كما رقص الماركسيون

---

(١) ص١١٤ ج١ م١ قصة الحضارة.

(٢) ص١٨٩ مبادرة فلسفة المستقبل.

طرباً وهم يقولون: «ومما يذكر لغويرباخ أنه عارض الدين معارضة قوية، ونقده نقداً مستفيضاً، فقد أوضح ألا شيء في ا لله ينتمي إلى ما فوق الطبيعة، بل إن الإنسان قد خلقه في تصوره.. وحين أوضح فيورباخ أن كل الصفات التي تنسب إلى ا لله إنسانية، تنتمي إلى الأفراد أو الفرع الإنساني ككل، كشف عن الجذور الأرضية للدين، وهبط با لله من السماء إلى الأرض»[1]. انتهى. **ولكن هل وصلت ايمانيات البدائيين إلى السماء؟ أو إلى ما يعنيه إله الأديان؟** لا أظنهم صادقين مع أنفسهم، أولئك الذين لم يتعرفوا إلى طبيعة تجربة الإيمان التي تقول، أن إله الانثربولوجيا ليس هو إله الأديان على الإطلاق «فالكلمة التي معناها «إله»، عند كثير من الشعوب البدائية، معناها في الحقيقة «رجل ميت»»[2]. «وكثير من القبائل البدائية، تستعمل كلمة «ا لله»، لتعني «السماء»، ولفظ ا لله عند «اللوبازدي» و«الدنكا» معناها المطر، وكذلك كانت السماء عند «المنغوليين»، هي الإله الأعظم، وكذلك الحال في الصين، وفي الهند الصينية أيضاً، معنى كلمة ا لله هو «السماء الوالدة»، وا لله عند اليونان، هو زيوس، أو السماء «مرغمة السحاب»، وهو «أهورا» عند الفرس، أي السماء الزرقاء»[3]. أما إذا كانت هذه الأقوال، هي المعنية في إلحادهم، فأقوالهم حينئذ صحيحة، ولا غبار عليها، والخطأ كل الخطأ، يأتي من افتراض التعميم، الذي لا يأبه بالتجربة أو الملاحظة.

أما عن ارتباط الإلحاد بالأهواء واللاعقل، فمثالنا قول أحدهم عن لفظة «التابو»: أنها «أقرب إلى تعبير «تفو»، المتداولة في لغتنا، تعبيراً عن الرفض والقرف»[4]. وقوله: «أن العرب استخدموها، بمعنى حرام وحرم وحريم وحرملك وحرمة وهكذا»[5]، ومن التابوات التي يعددها: «الاستنجاء»،

---

(١) ص٣٥ النظرية العلمية في الطبيعة والمجتمع والمعرفة.

(٢) ص١٠٨ م١ ج١ قصة الحضارة.

(٣) ص١٠٤ نفسه.

(٤) ص١٨٤ الفلكلور والأساطير العربية.

(٥) ص١٩٤ نفسه.

و«الطهارة بعد الجماع»[١]. كما ذهب إلى أكثر من ذلك عندما قال: «تابوات البدء المصاحب للدخول، يا ساتر ويا أهل البيت ويا أهل الله»[٢]. إلا أنه من المعروف، أن لفظة «تابو» بولينيزية الأصل، وذات مدلول خاص، فكيف تسنى له جعل العرب على حد تعبيره مصدراً لها، أو مصدراً للبدائية؟ أم أن البدائية لديه، تعني إيجاد النظافة والطهارة والآداب العامة؟! فإن كانت كذلك، فإنها المعايير اللامعقولة، أو إلحاد اللامعايير، إلا معايير الأهواء الساذجة، وهو ما نسميه بالإلحاد السيء.

- العقل بين الإلحاد والبدائية:

وإذا كان لزاماً علينا رؤية العقل في هذه البيئة، فسوف نجد أنه قد أستخدم، بكل ما تعنيه كلمة الوسيلة، استخدم من أجل البقاء، ومن أجل تجاوز الضعف المتمثل بالجهل، ومن أجل الحفاظ على استمرارية المجتمع القوي، وبذلك اطمأن البدائي على وجوده، فانتصر على الغير، واطمأن إلى معرفته، التي تستطيع تسسخير الطبيعة وظواهرها، كما اطمأن إلى بقاء مجتمعه، عندما استطاع صياغة الفعل الخلقي، ولم يكن له ذلك كله، إلا من خلال تجربة الروح، **وبواسطة الروح، كان الإنزلاق الأول للعقل البشري، لأنه بها تم انفصاله عن العلة** على أقل تقدير. ورُبَّ قائل يقول: أن العلة موجودة في تجربة الروح، وله ذلك ولكن إذا خلعنا الروح ذات الإرادة عن الصخرة، عن الشجرة وغير ذلك، فسوف يكون وجودها لا يعني إلا الوجود الصوري، وعندها يصبح وجودها أو عدمه سيان، وهو ما أعنيه بانفصال العقل عن العلة عند البدائي، ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا ليس هو كل الأمر، بل إن الحواس أيضاً قد انفصلت لديه عن المعقولات، ولم يعد ارتباط العقل بالمحسوس شرطاً صحيحاً، وتجربة الحلم بكل ما تحمله من عناصر تكوينية، هي الربان

(١) ص١٩٦ نفسه.

(٢) ص١٩٧ نفسه.

الموجِّه للشك، في لزوم ذلك الشرط، حتى أصبح العقل حراً يزعم ما يشاء من الحقائق، ويقرر ما يريد بلا ضوابط أو عوائق، **وأصبح العبقري ورجل العلم، هو الذي يملك الخيال، أو الذي يستطيع ربط إدراكه حتى التجريبي، بمنطق تجربة الروح**، وإلا فلا مكان لأية تجربة مهما تكن.

إن تجربة الروح ماتزال في بدايتها، أو دون اليقين المطلق أمام العقل، حتى يومنا الحاضر، وها هي الباراسيكولوجيا خير شاهد على ذلك العجز، ولذا فمن الصواب ألا نقف عن العلم والتجربة، لأن الخطأ وهو ما وقع به البدائي، والمذاهب الفلسفية في عصرنا الحالي، على حد سواء، كائن في اجتياف تجربة الروح، إلى تجربة الإدراك عند الروحيين، أو بالعكس عند الماديين، ولنعترف بأننا عاجزون عن الإدراك الشامل، ومهما تكن عبقرية المرحلة التي نعيشها، ولا ضير في ذلك.

وفي الختام نقول: **البدائي هو من انفصل المعقول لديه عن الحس والمحسوس، إنه ذاك الذي جعل من نفسه ميزان الاستنتاج والاستدلال والتعميم، إنه من رمَّم عجز إدراكه بالإيمان، إنه الذي يجعل الإنسان تافهاً لا قيمة له، إنه الذي سيطرت أهواؤه على أحكام إدراكه**، أما الملحد النموذج الناتج عن هذه البيئة، فإنه الذي يحمل هذه الصورة المجردة عن تجربتنا هذه، ليرفضها أينما وجدها، وفي أي إيمان وجدت، وبذلك تكون البدائية مرفوضة على الإطلاق، بما أنها لم تكن في زمن دون زمن، ولا في مكان دون مكان.

* * *

الجزء الثاني

المصريون وتجربة الإيمان

- المصريون وتجربة الروح:

والآن تعالوا لننطلق إلى إيمانيات المصريين مباشرة، ولننظر فيما يمكن أن تقوله لنا آثارهم التي تتكلم عن عقائدهم، فعلى عاتقها يقع إيضاح المسالك التي مروا بها في انتقالهم من فكر بدائي منعزل في تجربته وإيمانياته، إلى وجودهم في دولة واحدة تضم الكثير من التجارب والمعتقدات، ومن أجل إدراك هذا التطور الموجود عند السومريين والأكاديين والآشوريين والبابليين، أرى أن دراسة العقائد المصرية، بإمكانها أن تدفعنا بعيداً عن التكرار الممجوج، ما دام فيها الكفاية بالنسبة لغرضنا من هذا الكتاب.

المصريون «من أعرق الأمم التي آمنت بالروح»،[(١)] **إنها تجربة الحلم المستمرة**. وهنالك فراعنة «قالوا في سجلاتهم: أن بعض ما قاموا به من أعمال حثّتهم عليه الأحلام»[(٢)]. وعندما أدركوا تجربة بقاء الأجساد دون تفسخ، قالوا بفكرة الخلود، «فالأجساد قد ظلت سالمة تقاوم فعل الزمن دون أي تحنيط، وذلك بفضل قلة الرطوبة في الصحراء»[(٣)] «بصورة تستدعي النظر»[(٤)]. وانشغل رجال العلم الذين يصنعون العقائد بتلك الظاهرة، و**«كان معظم علماء مصر من الكهنة»**[(٥)]، **ولم يكن لديهم إلا منطق تجربة الروح** فقالوا: «بالتقسيم الثلاثي للإنسان بعد الموت، فكان أول شيء هو الجسم، وبعده الروح وتسمى «با»[(٦)]. واعتقدوا أن قوته السحرية لأن يتشكل بأي شكل يرغبه، كان عاملاً من عوامل طبيعته الإلهية»[(٧)]. وليس هذا فحسب،

---

(١) ص٦٥ ا لله.

(٢) ص٢٤ ما قبل الفلسفة.

(٣) ص١٥٤ لعنة الفراعنة.

(٤) ص ١٦٢ ج٢ قصة الحضارة.

(٥) ص١١٨ نفسه.

(٦) ص١٧٣ لعنة الفراعنة.

(٧) ص١٧٤ نفسه.

بل اعتبروه «عنصراً شبه إلهي، محصوراً في الجسم أثناء الحياة، ولا يتحرر إلا عند الموت»[(١)]. «وبعدها وأخيراً «كا»، وكانت «كا» عبارة عن الملاك الحارس، الذي يسبب السعادة والسرور والصحة وطول العمر»[(٢)]. إنها ذلك الجزء المنفصل من الشخصية الإنسانية الذي يقي الفرد، كما أنها المسؤولة عن الحياة بعد الموت، «وكان الجسم يحنط لأجل فائدة «الكا»، حتى تستطيع أن تستعمله في الوقت الذي تريد»[(٣)] وكان «لابد من أن يقدم - للكا - الطعام والكساء، وما يلزمها من الخدمات بعد موت الجسد، ومن أجل هذا كانت تُعدُّ في بعض المقابر الملكية، دورات مياه لتنتفع بها»[(٤)].

ولو حاولنا وضع الأمور في نصابها الصحيح، لرأينا أنه تم افتراض «البا» من أجل تفسير الموت، وكذلك تم افتراض «الكا» من أجل تفسير بقاء الجثث بلا تحلل أو تفسخ، وكل ما في الأمر هو ارتباط العلة بالروح أو الإرادة، وبذلك تمَّ تجاوز الجهل وحيازة العلم، وبذلك استمر العجز التجريبي مصدراً للإيمان والخلود، وباختلاف التجربة تميز المصريون عن سواهم في إيمانياتهم. وهل توقفت تجربة الخلود عند تجربة بقاء الأجساد؟ لا، فقد أنطلق تفكيرهم إلى السماء، إلى الشمس، إلى الكواكب والنجوم، ليبحث عن معاني الخلود والمكان اللائق به، وها هي «النجوم القطبية التي تتأرجح حول «نجم الشمال»، وهي النجوم التي قال عنها المصريون: «أنها لا تعرف الهلاك»، «أنها لا تعرف التعب»، هذه الكواكب التي لا تموت، اتخذوها رمزاً للموتى الذين انتصروا على الموت وظفروا بالخلود.. فغاية الميت منطقة «دات»، في الجزء الشمالي من السماء، حيث يتاح له أن ينضم إلى الكواكب القطبية، «التي لا تعرف الهلاك، فيحظى بالخلود»[(٥)]. وبتطور إدراكهم واختلاف

---

(١) ص١٧٣ نفسه.

(٢) ص١٧٣ نفسه.

(٣) ص١٧٣ نفسه.

(٤) ص٧٠ ج٢ قصة الحضارة.

(٥) ص٦٢ ما قبل الفلسفة.

مناحيه، أصبح مكان الخلود هو الغرب، وتحت الأرض عوضاً عن الشمال، لأن الشمس تموت هناك لتستمر رحلتها الروحية تحت الأرض، لتولد كل يوم من جديد، «فلم يصدقوا أبداً أن الموت هو نهاية الإنسان، ولكن لم يكن هناك اتفاق حول كنه الحياة الأخرى واستمرارها، فاعتقد بعضهم أن حياة «ما» تستمر في مقصورة القبر، أما الآخرون فاعتقدوا أنها تستمر بين الطيور على الأشجار وبين الجعران، في الرمل، أو في زهرة اللوتس التي كانت تنمو على ضفاف النيل، وقد أعتقد آخرون أن الأموات يحلقون في السماء بين النجوم، أو تحت الأرض، حيث يوافيهم إله الشمس في الليل»[1]. وقيل عن أحد الفراعنة: أنه «ذهب ملك مصر العليا والسفلى سحتب ايب رع عالياً إلى السماء، وأصبح متحداً بقرص الشمس، امتزجت أعضاء الإله بمن صنعه»[2]. كما أن هنالك قصة «تتحدث عن موت امنمس الأول تقول: صعد عالياً إلى السماء، وأصبح متحداً بالقرص، واندمجت أعضاء الإله بمن صنعه»[3]. فتجربة الخلود هذه وأينما اتجهت، يجب أن تأتي بالخلود الذي معناه عندهم عدم الهلاك أو عدم التعب، أو الحياة مع الآلهة الخالدين، وهذا ما وجدوه في النجوم القطبية والشمس وغير ذلك.

وبعد البرهنة على الخلود وتحديد مكانه، أصبح ضرورياً فصل الخير عن الشر، ومحاسبة كل إنسان على سلوكه، وكان البدائي يفزع من أرواح موتاه، وكانت فكرة الثواب والعقاب من قبل مرتبطة بعلاقة الأحياء والأموات، أما في البيئة الجديدة، فقد انطلق معناها إلى العلاقة بين الأحياء والأحياء، على الرغم من عدم اضمحلال المعنى الأول واندثاره بشكل تام.

لقد أصبح الكهنة طبقة ذات نفوذ قوي، وكانت علاقتهم وطيدة مع الفرعون، وبما أن الفرعون ليس له كل القوة، **وبما أن للكهنة شعوراً بالضعف، ومن هذا التداخل فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين الشعب أو الأعداء من**

---

(١) ص١٧٢- ١٧٣ لعنة الفراعنة.

(٢) ص١٥١ مصر الفراعنة.

(٣) ٢٤٣ نفسه.

جهة ثانية، كان وجود فكرة الثواب والعقاب بعد الموت، مطلباً ضرورياً لكبح كل إرادة تفعل في الخفاء لتشلها عن أي حركة أو فعل، وقصة الإله «أوزير» تروي بعضاً من هذه الملحمة، وقصته «هي قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث في الأسر المالكة في تلك العصور السحيقة، وهي قصة ملك أحبه شعبه»،[١]. إلا أن أخوه «ست» حقد عليه، «وتآمر مع آخرين، فصنع صندوقاً بحجم أوزير، زعم في حفل أقامه له، أنه يهديه لمن يتسع له، ولم يتسع لغير أوزير، الذي كان طويل القامة جداً، وأغلق ست الصندوق بمعونة أنصاره، وألقاه في النيل بعدما أحكم إغلاقه، وجدّت إيزيس زوجته في البحث عن جثته، حتى عثرت عليها.. واستطاع ست أن يعثر بعد جهد على جسد أوزير، وانتهز فرصة غياب ايزيس، وقطع الجثة إلى أربعة عشر قسماً، وبعثر أجزاءها في جميع مقاطعات مصر»[٢]، أما الكهنة في هذه الملحمة، فيؤيدون «ايزيس»، وهل هم عاجزون عن نصرها بما يملكونه من سلطة المنهج؟ تقول الأسطورة: أن ايزيس جمعت الأشلاء الممزقة، وتعهدتها بالصلوات والسحر، حتى دبت الروح فيها تارة أخرى، فانجبت منه -من أوزير - حوريس، الذي يجب أن يكون ملكاً، إلا أن عمه قدح في نسبه.

لقد هُزم أوزير، ولكنه انتصر هناك، فقد «أصبح إلهاً للموتى، حيث يتولى محكمة الحساب بعد البعث»[٣]. وإني أرى أن وضعه في هذا المنصب، له علاقة بطعن انتساب حوريس إليه، وبما أن الكهنة مع ابن الزنا، ابن الميت الحي، ومن أجل صحة انتسابه لأبيه، جعلوه مساعداً له في حساب الأموات. وهل من المعقول على ملك الحساب ألا يعلم بنسب ابنه الحقيقي؟ ولو لم يكن راضياً بنسبه لما وضعه مساعداً له، وهذا هو البرهان المقصود.

النصر على الفرعون شيء مستحيل، فأين المفر؟ إن المتمردين سيصبحون في قبضته فيما بعد، «وكل من فارق الحياة، عليه أن يواجه محاكمة أوزير، وكان هذا

---

(١) ص٦٦ االله.

(٢) ص١٦ قصة الديانات.

(٣) ص١٧ نفسه.

يجلس في قاعة بين آلهتي العدالة، يحيط بهما اثنان و أربعون شيطاناً، يحملون المدي والسكاكين، وكان هؤلاء الشياطين من أكلة الظل، واللهب، وأكلة الدم، وكان كل واحد منهم، يمثل واحداً وأربعين من الخطايا والذنوب المحتملة الوقوع بين البشر، وكان على الشخص الميت، أن يبرهن أنه لم يقترف في حياته هذه الذنوب، وإذا نجح في ذلك، فإن الشياطين سوف لا يهاجمونه، وبعد أن يثبت الميت براءته، يأخذ «حوريس» هذا القادم الجديد بيده، ويدفعه إلى والده أوزير، كعضو جديد في العالم السفلي»[1].أو ليدخل في «زمرة الراكبين مركب الشمس»[2].

«وأما من رجحت مساوئه على حسناته فسوف يسلَّم إلى الآلهة معات، كلبة سيد الأمنت المفترسة، المستلقية تحت قدميه، مستعدة دائماً لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب، وهي تثير الرعب بفمها الفاغر كآتون، ومخالبها الحادة كسكين، ورأسها المدبب كتمساح، وجسمها البشع كتنين»[3]. أو «يحكم عليهم، بأن يبقوا أبد الدهر في قبورهم، يجوعون ويظمئون ويطعمون من التماسيح البشعة، ولا يخرجون منها أبداً ليروا الشمس»[4]. وبذلك **امتدت تجربة الروح على أكتاف الجثث، لما وراء الموت، نحو الخلود الذي اكتملت عناصره المؤلفة من الروح الباقية بعد الجسد، ومن الفصل بين الخير والشر، ومن إرادة الحساب التي هي أوزير.**

لقد وقف الكهنة مع الفراعنة أو السلاطين والزعماء، بكل أساليبهم وقوتهم، ومن أهم الأشياء في نظرهم، إيجاد معيارية إيمانية شاملة، تكون حداً في قتال المعارضين والخصوم، ومن أجل ذلك كانت لفظة «**فرعون**» **تعني** «**بيت العدل**»، وعلى هذا أصبح العرش والعدل سيان، فما يريده العرش هو العدل، وكل الخصوم يسعو ن نحو اللاعدالة، لذا يجب إبادتهم لأنهم ظلمة ناكرون للجميل، وهل الفرعون إلا خادمٌ للشعب؟ وهل من أحد ينتصر على الألهة؟.

---

(١) ص١٨٨ لعنة الفراعنة.

(٢) ص١٢٨ ما قبل الفلسفة.

(٣) ص٢٠ قصة الديانات.

(٤) ١٦٣ ج٢ قصة الحضارة.

فللملك وظائف جليلة، «وإحدى وظـائف الملك الأساسية، هي وظيفة الطبيب الساحر، الذي يضمن بسحره أطيب الغلال لقومه، حتى أنه في أحد المراسيم الملكية، كان الفرعون يدور حول حقل أربع مرات، وهو طقس ديني يراد به إسباغ الخصب على البلاد، وهـو ضابط المياه التي تخصب، النيل في خدمته.. وإذا كان الفرعون ضابط مياه مصر، فقد كان أيضاً صانع الأمطار للأقطار الأجنبية»[١]. وليس هذا فحسب، بل أنه «يسيطر على القمر والنجوم»[٢]، كما «يخلق الذي يجب أن يوجد»[٣]. وإذا قالوا أن الملك هو «حورس»، لم يقصدوا بذلك أن الملك يلعب دور حورس، بل قصدوا أن الملك هو حورس بالفعل، وأن الإله موجود فعلاً في جسد الملك، في أثناء النشاط المعين الذي يكون مدار البحث، وأنىّ للملك أن يكون الإله الملك إذا لم يكن الإله الملك حالاً فيه فيصبح الاثنان واحداً»[٤].

الإله أو سليل الآلهة لن يخطىء، وها هو الملك، «إنه خنوم «الإله الصانع» للأجساد كلها، الوالد الذي يوجد الناس في الحياة، إنه باستت «الآلهة الكريمة» حامية المصريين، من يعبده ينج من ذراعه، إنه سخمت «آلهة القصاص» لكل من يعصي أوامره.. ومن أحبه الملك غدا «روحاً» مبجلة، أما الذي يتمرد على جلالته، فلن يجد قبراً لنفسه، ويقذف بجثته في المياه»[٥].

الملك إله، وأغلب الآلهة التي عبدها المصريون كانوا ملوكاً أو رجالاً ونساءً ذوي مميزات ومكانة خاصة، وبعض المؤرخين يرون أن «رع نفسه – إله الشمس – كان ملكاً على مصر في زمن من الأزمان، ويستدلون على ذلك، بخلاصة قصته المتداولة في الأساطير، وهي أن رع مَلَكَ الدنيا قبل سكانها من البشر، فتمرد عليه رعاياه، فسلط عليهم ربة النقمة حاتحور»[٦].

---

(١) ص٩٨ ما قبل الفلسفة.

(٢) ص ٩٩ نفسه.

(٣) ص١٠٤ نفسه.

(٤) ص٨٢ ما قبل الفلسفة.

(٥) ص ١٠٥ ما قبل الفلسفة.

(٦) ص٦٧ الله.

الملك إله انتدبه مجلس الآلهة، للقيام بأعباء الحكم على الأرض، وهيهات أن يصل الخصوم إلى ذلك المجلس الموقَّر، الذي يقبع في السموات، أو هو ابن لأحد الآلهة المعترف بها رسمياً، فالفرعون «كان على الدوام ابن آمون - رع، لا يحكم مصر بحقه الإلهي فحسب، بل يحكمها بحق مولده الإلهي، فهو إله، رضي أن تكون الأرض موطناً له إلى حين»[1] أما من تسوِّل له نفسه الطمع في الحكم أو الملك فجهده لا يسعى به إلا إلى الهلاك الأكيد، بما أن الملك «عليم بما يحدث، وبما يقع، ليس في الدنيا شيء لا يعلم به»[2]. ومن أجل ألا يفكر أحد بقتله غيلة قال الكهنة: أن «كل ما هو جزء من الملك كظله مثلاً مترع بالقداسة، فلا يقوى البشر على الدنو منه.. والأفعى المنتصبة على جبينه، ساحرة تنفث اللهب، وتقي شخص الملك من اقتراب الأناس الذين لم يخوَّلوا بذلك»[3]. واعتقد الناس - أو الشعب - وآمنوا بكل ما قيل لهم، ولا فرق في ذلك بين الرهبة والقناعة، «وبفضل هذه الدعاوي، دعاوي قدسية المولد، وقدسية السلطان، استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل، غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة»[4]. حتى أنه لم يكن لديهم جيش دائم، أو أجهزة للشرطة والأمن إلا الشيء القليل.

ولرؤية العلاقة بين صنع الإيمان والسياسة بشكل واضح، نرى لزاماً علينا قراءة شيء عن قصة «حتشسبوت»، فمن المعلوم أن «التقاليد المقدسة، كانت تتطلب من كل ملك مصري، أن يكون ابن الإله العظيم آمون»[5]. وعلى الحاكم أن يكون رجلاً، ولكن ما الذي سيفعله الكهنة، لتنصيب حتشسبوت وهي المرأة على الملك؟ وكانت الفتوى العجيبة التي تقول: «أن الإله الأكبر آمون - رع هو أبوها الفعلي، فقد وقع اختيار الآلهة على الملكة أمها، وأوصوا

(١) ص١٦١ ج٢ قصة الحضارة.

(٢) ص٩٥ ما قبل الفلسفة.

(٣) ص٩٤ نفسه.

(٤) ص١٦١ ج٢ قصة الحضارة.

(٥) ص٧٧ نفسه.

آمون بزيارتها، وفرعون في أوج شبابه وعزيمته، واتخذ آمون شكل جلالة زوجها، هذا الملك تحتمس الأول، ثم ذهب إليها فوراً، ثم ضاجعها، وفعل جلالة الإله هذا ما شاء له الفعل معها، ثم أوصى بعد ذلك أن اسم ابنتي التي وضعتها من جسدك، هو خنيمت - آمون - حتشسبوت، ولتقم بمهام الملك الفاضلة، في هذا البلد جميعه»(١). ولنفس الأغراض كانت الزيجات الخاصة، التي اعلنوها بين الآلهة، لتكون منهجاً لضمان الملك وعدم خروجه عن أصحابه، فأوزير زوجوه بأخته ايزيس، وست تزوج بأخته نفتيتس، وهكذا دواليك وحسبما تفرضه الضرورة والحاجة السياسية.

لقد وقف الكهنة إلى جانب الملك، ونصروه على أعدائه، وليكن الحكم له، ولتكن الثروات وهناءة العيش لهم، وكانت سبلهم كثيرة، توازي سبل الإيمان التي قالوا بها، ومن أجل أن يكون الإيمان بالثواب والعقاب مصدراً للرزق قالوا: «أن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق، نظير ثمن يؤدونه لهم.. وكان خيراً من هذه وتلك، أن يشترى كتاب الموتى، وهو قراطيس ملفوفة، أودع فيها الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ، من شأنها أن تهدىء من غضب أوزير، بل أن تخدعه»(٢). «وأهم ما يؤكده هذا الكتاب، هو تلاوة الأدعية لا الحياة الطيبة الصالحة»(٣). «فلم تكن الحياة الصالحة هي السبيل إلى السعادة الأبدية، بل كان السبيل إليها هو السحر والطقوس وإكرام الكهنة»(٤). حتى أصبح «الدين في مصر، من فوق كل شيء، ومن أسفل منه.. عدا الأخلاق»(٥). إلا أن من يختلق الأكاذيب، هو الأقدر على دحضها، ونسجها من جديد لما يوافق منفعته، ولما كان الكهنة هم أول الملحدين، فقد استخدموا كل شيء كوسيلة

---

(١) ص٩٠ ما قبل الفلسفة.

(٢) ١٦٣ - ١٦٤ ج٢ قصة الحضارة.

(٣) ص١٦٥ نفسه.

(٤) ص١٦٦ نفسه.

(٥) ص١٥٥ نفسه.

لمنافعهم ولذّاتهم، حتى نساء المعابد التي تقدم للآلهة في الظاهر، كنَّ في الحقيقة لمتعهم الشخصية، بل وخيروهن بين مضاجعة التيس والعجل، وبين مضاجعة الكاهن، فقد «كانت النساء يقدمن أحياناً لهذه الآلهة زوجات لهن، وكان العجل وهو الذي يتقمصه أوزير، صاحب هذا الشرف العظيم بنوع خاص، ويقول افلوطرخس: **إن أجمل النساء في منديس، كنَّ يقدمن لمضاجعة التيس المقلس**، وقد بقيت هذه الشعائر الدينية، من بداية الأمر إلى نهايته، عنصراً أساسياً قومياً في الديانة المصرية»(١).

أما عن الطعام والشراب الذي يلزم الكهنة، فقد كان مهيأً لدرجة تجعلهم في غنى عن التفكير فيه، وما عليهم إلا الحث على تقديم القرابين للآلهة، حتى أصبح القربان مساوياً للتقوى والخلاص، وعندما كانت تضيق بهم السبل، فلا ورع يحجبهم عن السرقة والغش وغير ذلك، وها هي بردية في متحف تورين، تحدثنا عن «الاتهامات الموجهة ضد عدد من الأشخاص، من أبرزهم كاهن في المعبد الذي يعزى إليه الكثير من السرقات، والرشوة، وإنتهاك حرمة المعابد، بالاضافة إلى أنه عزي إليه بصورة غير واضحة، أمر مجامعة نساء متزوجات، ومن الإتهامات الشائنة ضد الدين، كانت اختلاس وبيع عجول فيفس المقدسة»(٢).

وأخيراً أصبح الكهنة أمراء على ثروات طائلة، قلما يستطيع الملوك حيازتها، ولننظر إلى بعض مصادرهم التي صرَّح بها الباذلون، فعندما كان رمسيس الثاني في موقف صعب وخطير، حيث كاد الحثيون أن ينتصروا في المعركة، وقف يناجي معبوده، يذكره بالهبات السخية التي منحه إياها، علّه ينصره في حربه الضروس قائلاً: «ماذا يؤلمك يا أبي، أمن دور الأب أن يتجاهل إبنه، أقمت بعمل شيء بدونك، ألست أسير وأتوقف بأمرك، إنني لم أخالف أمراً أصدرته لي.. كم تكون كبيرة أن يسمح المولى العظيم في مصر للأجانب أن يقتربوا من طريقه، ماذا يضني فؤادك، أي آمون ألأن هؤلاء

---

(١) ص١٥٨ ج٢ قصة الحضارة.

(٢) ص٣٢٦ مصر الفراعنة.

الآسيويين أدنياء يجهلون الإله؟ ألم أقم لك آثاراً كثيرة، وملأت معبدي بجزاي، وشيدت لك قصر لملايين السنين، وقدمت لك ثروتي كممتلكات دائمة؟ وأهديتك الأراضي جميعاً لتزيد من ثراء تقدماتك، وأمرت بأن يضحى لك بعشرات الألوف من الماشية، وبأن يقدم كل أنواع الأعشاب ذات الرائحة الزكية، إنني لم أترك عملاً طيباً لم أقم بأدائه في معبدك، فبنيت لك الصروح العظيمة، ورفعت فيها ساريات الأعلام بنفسي، وجئتك بالمسلات من القينتين، بل كنت أحمل الحجر بنفسي، وقدمت لك السفن على الأخضر العظيم لتحمل لك منتجات البلاد الأجنبية، ماذا سيقول الناس إن حدث شيء ولو ضئيل لمن يستمع لمشورتك؟»[1].

و«بلغت هذه الثروة غايتها في عهد رمسيس الثالث، فكان للمعابد من العبيد ١٠٧٠٠٠ وهم جزء من ثلاثين جزءاً من سكان مصر، وكان لها من أرض مصر ٧٥٠٠٠٠ فدان، أي سُبع أرض مصر الصالحة للزراعة، وكانت تمتلك ٥٠٠٠٠٠ رأس من الماشية، وتستحوذ على إيراد ١٦٩ مدينة من مدن مصر والشام، وكانت هذه الثروة الضخمة كلها معفاة من الضرائب، وكان من شأن هذه السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة، عاجلاً كان ذلك أو آجلاً»[2]. وتأمل فيما كان يقدم لمعبد واحد!، فقد «قدم الفرعون رعمسيس الثالث «١١٩٧ - ١١٦٥» ق.م لكهنة معبده ٨٦٤٦ عبداً و٣٢ طناً من الذهب»[3].

الفراعنة في أغلب مراحلهم أقل علماً من الكهنة، ولا بد للعلم أن ينتصر، والكهنة هم العلماء الذين استطاعوا حجب قوتهم عن الآخرين، والإيمان بدوره سلاح عظيم، حرصوا عليه بكل وسيلة حتى الحيل كانت لأجله، فقد كانوا «يرسمون صورة على يد المريض، الذي كان يقاسي من الألم أو السم، وبعد ذلك يطلبون منه أن يلحس الصورة، ولم تكن هذه الصورة

---

(١) ص٢٩١ مصر الفراعنة.

(٢) ص١٨٢ ج٢ قصة الحضارة.

(٣) ص١٣٧ لعنة الفراعنة.

تدهن بالدهان، بل بعقار سائل، فإذا نجحت تلك العملية كانت تعتبر من عمل الآلهة»[1]. **وكان الفرعون مرغماً على وُدِّهم**، ولأنهم يملكون قوى خارقة علمية، فقد ألفوا فرقة دينية أو طبقة خاصة، لا تقبل أن تفضي بما لديها من علم لأي شخص آخر»[2]، وهل يكون ضعيفاً من تسلح بالعلم والإيمان والأموال؟. وإذا ما أردنا إدراك التماس بين صنع العقيدة والإلحاد بها، فيجب أن ننظر في تطور تجربة الروح نحو الألوهية، وهذا التطور الذي يجعل من السياسة مصدراً من مصادر صياغة الإيمان.

لقد عبد المصريون القدماء كل الحيوانات، وكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة، كما عبدوا الأسلاف والملوك، شأنهم في ذلك شأن كل البدائيين. والروح في تلك التجربة لم تكن إلا متفردة، إنها روح بقرة أو شجرة، أو ميت، والآلهة المصرية في البدء مثلاً كـ«رع» و«آمون» و«سبك» و«حتحور»، كانت تتخذ لها رموزاً حيوانية، «صرصور، أوزة، كبش، تمساح، بقرة، إلا أن تجربة الإدراك مستمرة، وكذلك هي الحاجات التي لم تقف عند حد، **وأدرك الإنسان إتصال الطبيعة أو ظاهراتها، كما أدرك حاجته لتوحيد العقائد أو الآلهة على الأرض الواحدة، وعلى متن هذين السبيلين كان تطور العقائد المصرية.**

وإذا قلنا أن الألوهية هي وجود لا تستمد صورته من الظواهر، فهل لنا رؤية تطور العقائد المصرية نحو فصل الروح بمعناها المجرد عن الظاهرات؟ فهل يعقل وجود العدم عندهم إن كان لا إدراك لهم إلا من المحسوس؟ لقد **تطورت العقائد ما في ذلك ريب، تبعاً لاتساع الإدراك**، والإله «حورس» لم يعد ناتجاً عن ظاهرة متفردة، فقد أصبح كائناً آخر له صورة تضم العديد من ظواهر الطبيعة، «فتخيلوه كصقر عملاقي يرفرف بجناحين ممتدين فوق الأرض، سحب المغيب والمشرق الملونة صدره المرقط، والشمس والقمر عيناه»[3]. وهنا نجد أن

---

(١) ص١٤٥ نفسه.

(٢) ص١٣٦ نفسه.

(٣) ص٣٣ ما قبل الفلسفة.

معنى الإله أصبح يعني الكائن العظيم، إنه الصقر ذو العيون والأجنحـة القوية، ولكنه صقر لا كالصقور، فقد اجتمع فيه الشمس والقمر والسحب.

لقد لاحظ علماء تلك البيئة اتصال الأرض بـالهواء وبالسـماء، ولابـد مـن تفسـير العلاقـة بـين هـذه الأشـياء، وأيضـاً بالتسـاؤل عـن مصدرهـا، كـانت الأسطورة التي تقول: أن رع تعرض ذات يوم للهوان، مع زوال قوته وسـريان دبيب الشيخوخة فيه، وأطل البشر مـن حولهـم فـإذا إلههـم هـرم عـاجز شـقي ساخط لا يسـتطيع أن يفعـل شيئاً بعـد، وبـدأت حركـة العصيـان البشـري.. أنظروا لقد شاخ «رع» الذي عظامه من فضة.. ولحمـه مـن ذهـب.. وشـعره من لازورد»[1]. «وأخيراً قرر التنحي عن حكم العالم.. فنادى ولديـه «شـو» إله الجو ونوت إلهة السماء، يـا ولـدي «شـو» أنـا تـارك لـك مقـاليد الحكـم فأكمل مشيئتي، وتول أنت الأمر، وأنت يا ابنتي نوت إحملي أباك على ظهـرك وارفعيه بعيداً جـداً فـوق الأرض.. فتحولـت إلى بقـرة وحملـت أباهـا «رع» فوق ظهرها الكبير.. وتقوس حتى أصبحـت كالقبـة، غـير أن نـوت آزرهـا.. وأطاع «شو» وسلمت «نوت» من السقوط، وامتد بطنها قبة زرقاء، صارت هـي نفسـها فيمـا بعـد السـماء الـتي تغطـي الكـون، وراح «رع» ينـثر علـى صفحتها النجوم لتنير الليل»[2].

ومن الملاحظ أن تجربة إدراكهم قررت أن الأرض أعظـم مـن السـماء، فالسماء وكافة النجوم تستند عليهـا، ورع الـذي صنـع النجـوم ونثرهـا لم يصنع الأرض، إلا أنها اسطورة شملت كل الكون، ولكن ليـس مـن خـلال كائن واحد، بل من خلال عائلة إلهية ضمَّت فرديات مختلفة، وبقي «شـو» هو الهـواء، وبقيـت «نـوت» هـي السـماء، وبقـي «رع» صـانع النجـوم، وبذلك نلمس ارتباط الألوهية بالخلق، بعد أن لم تكن الأرواح إلا بالظواهر في تجربة الروح.

---

(١) ص٤ قصة الديانات.

(٢) ص٧-٨ نفسه.

الإله «رع» إنسان، ولكن جسمه ذو مادة أعظم، وهذا يعني أن التطور اتجه نحو العقل، أو إلى ربط العقل بالوجود، ولقد اعتقد المصريون أن القلب والأمعاء مركز العقل وليس الرأس، وكثيراً ما أصبحنا لذلك نجد تماثيل لآلهة جمعت بين قوة الإنسان وقوة الحيوان، وصولاً إلى الكائن العظيم في تمثال واحد، «وهكذا وضعوا رؤوس حيوانات في أجسام إنسانية»[1].

وأخيراً وصل المصريون إلى ربط الخلق بالفكر، وهو أسمى ما وصلوا إليه، فمن إدراكهم لفعل كلمات الساحر أو الوسيط ذو التنويم المغناطيسي مثلاً، وإلى أهمية أوامر الملك وكلماته، التي بإمكانها أن تميت وأن تحيي، ومن فكرتي العقل والرغبة، أصبح الفكر والمنطق «كلاهما يتمثل إلهاً.. «حو» النطق الآمر، ذلك الكلام الذي يتمكن بقوته من الخلق، و«سيا» الإدراك أي العلم بحالة أو شيء أو فكرة»[2]. إلا أن الخلق مازال يعتمد على الموجود، **ومازال العدم بعيداً عن التصور،** لذا رأينا أن الاستمناء والعطاس، رافقا «آتوم» الخالق بالأمر. وأجمل نص ارتبط فيه الخلق بالكلمة هو النص الممفيسي العائد إلى تاريخ ٧٠٠ق.م، ولكنه يساوي هو الآخر ما بين آتوم الخالق بـ«نون» أي المياه الأولى أو بالفراغ المشحون.

السياسة وتطور الآلهة:

الحياة السياسية أثّرت كذلك أقوى الأثر في تطوير مفهوم الألوهية، وعلى الأخص نحو التوحيد، تبعاً لتطور الدولة، وكان لديهم منهجان: يقوم الأول منهما على دمج عدد الآلهة في مجموعة أو في إله واحد. والثاني على تطور إله ما باتساع المهام الموكلة إليه، وعادة ما يكون ذلك على حساب إله آخر، إلى حد إلغائه من الوجود.

---

(١) ص١٧٧ لعنة الفراعنة.

(٢) ص٧٣ ما قبل الفلسفة.

والحروب كثيرة، ولا بد من طغيان احدى القبائل في نهاية الأمر إن كان على مستوى السيف أو الدهاء، وبما أنه لكل قبيلة عقائدها، فالحكمة السياسية تقول بوجوب امتصاص الآلهة المغلوبة، هذا إذا كان الزعيم المنتصر ذا أفق يتجه نحو المستقبل.

ومصر قبل الأسرات كانت «تنقسم إلى مقاطعات، لكل مقاطعة أعلامها، ولكي تتميز كل مقاطعة عن الأخرى، كان كل علم يحمل رمز الحيوان، أو النبات الذي يميزه عن غيره، وهي في مجموعها تمثل أقدم الآلهة، ومن هنا لم تعد المقاطعات مقسمة تقسيماً إدارياً فقط، بل تحولت إلى مناطق نفوذ ديني، وظل سكان كل مدينة مستقلة يعتبرون معبودهم أعظم الآلهة وإليه ينسبون خلق الكون، فالإله «رع» كان إلهاً رئيسياً في هليوبوليس، و«بتاح» كان رئيسياً في ممفيس، والقسم الشمالي تابعاً لحورس والجنوبي إلى ست»[١].. «وهكذا كانت مصر العليا تقول للملك «أن ست قد أعطاك مقره»، وأما السفلى فكانت تقول: «أن حورس قد أعطاك عرشه»[٢]. وانها لمشكلة خطيرة تحتاج إلى الحل، ولذلك **كان الفرعون يلقب بكل الآلهة أو هو هي كلها**، وبما أنه لم يكن «بالمستطاع الاستفناء عن أي من الآلهة.. أصبح يعين لكل واحد منها وظيفة معينة، فأحد الآلهة كانت وظيفته خلق الأطفال، وآخر كان للعناية بالموتى، وواحد مسؤول عن الزراعة، وآخر عن الحرب»[٣]. ولنفس الغرض أصبح «الإله كشخص واحد مؤتلف: آمون - رع - آتوم - هرختي. أي أنه يتألف من الإله الشمس والإله الأعلى والإله الوطني كلهم ملتئمين في واحد»[٤]. وكذلك تم «دمج «بتاح» مع إله الموت «سوكاريس» الذي له رأس صقر، وعندما جعل أوزير سيد العالم السفلي، نشأ إله ذو ثلاث رؤوس بتاح - سوكاريس - أوزير»[٥]. وكذلك «أصبح «رع»

---

(١) ص١٠ قصة الديانات.

(٢) ص١٨٥ لعنة الفراعنة.

(٣) ص١٧٢ نفسه.

(٤) ص ٨٤ ما قبل الفلسفة.

(٥) ص١٨٣ لعنة الفراعنة.

و«آنوم» إلهاً واحداً، وكذلك «شو» و«انوريس أو «بتاح وسوكاريس»، وأخيراً أضيف أوزير إلى الإلهين الآخرين»[1]، وكذلك. وجدت سباعيات وتساعيات إلهية، حسب الاتحاد السياسي واتساع شموله.

أما تطور أحد الآلهة، فقد كان تابعاً لقوة رعاياه أو نفوذهم، فقد «ارتفع «فتاح» من صانع حاذق بالبناء والتماثيل وسائر الصناعات، إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس، الذي أصبح في اعتقادهم مثالاً للعالم بأرضه وسمائه، وما هي إلا خطوة واحدة بين بناء الهيكل الذي يمثل العالم كله، وبناء العالم كله»[2]. «ومن أبرز أمثلة الآلهة المحلية التي تحولت إلى آلهة عالمية، ارتفاع المعبود «حور» الحيوان الأصل، من صورة الصقر، إلى مرتبة ملك السماء صاحب العينين العظيمتين الشمس والقمر، وكانت مرحلة الانتقال معاصرة لانتصاره الحربي»[3].

ولدينا مثال آخر، وهو «رع» إله الشمس، «تقول الأساطير أنه أول ملك عرفته مصر في العصور الأولى، ولذا كان يمثل في شكل إله ملحًّى تاجه قرص»[4]. ثم أصبح ذا ولادة خاصة وعظيمة، «فالإله «رع» الذي يعني الشمس، قد نشأ من الاتحاد الجنسي أي تزاوج الأرض والسماء، «كب ونت»، الأب الأرض والأم السماء»[5]. وأخيراً اعتبر أهم الآلهة الرئيسية، وأصبح اسمه يكفي لإعلاء شأن أي إله آخر، فإذا أراد الكهنة تكريم إله ما، فما عليهم إلا ربطه بـ«رع»، مثال ذلك «رع - هرختي» و«فتو- رع» و«خنوم- رع» و«سوبك - رع»، حتى أن الملوك المصريين بعد الأسرة الرابعة، يكنون به ويطلق على أحدهم «ابن رع».

---

(١) ص١٣٧ نفسه.

(٢) ص٦٨ الله.

(٣) ص١٠ قصة الديانات.

(٤) ص٦٤ ما قبل الفلسفة.

(٥) ص١٧٦ لعنة الفراعنة.

وهكذا كان الكهنة **«هم الذين يقضون بتنحية إله من الآلهة وتجريده من ألوهيته أو دمج إلهين بأسم إله واحد»[١]. أو إعلاء إله من الآلهة الوضيعة،** ولكن ما هو الإلحاد إن لم يكن هو الخروج على العقائد المقررة؟ وهل إلحاد الكهنة إلا صراع بين إيمان جديد مقترح يفي بالمطلوب، وإيمان قديم لم يعد يحقق المنافع المرجوة، فإذا أرادوا الشرعية لمرسوم ملكي سياسي أو اجتماعي تمت صياغته إيمانياً، فعندما أرادوا مثلاً إلغاء أكل اللحوم البشرية، اعتمدوا على قصة ست الذي قتل أخيه أوزير الذي عاد بعدئذ كما يقولون إلى الحياة، «وحكم مصر حكماً صالحاً، وحرم أكل لحم الأدميين، ونشر لواء الحضارة، ثم صعد إلى السماء ليحكم فيها ويكون إلهاً»[٢].

وختاماً نقول: **أن الإيمان الذي يعتمد في وجوده على العجز التجريبي فالتجربة أو التقدم العلمي هو الذي يدحضه،** والكهنة هم رجال العلم، ولذا فهم صناع العقائد وملحديها، وكل إيمان اعتمد إيجاده على أغراض الأنا ومهما تكن دنيا أو عليا، فإن أغراض الأنا المتغيرة، ستغير من الإيمان، والكهنة رجال سياسة وطبقة ذات مصالح خاصة، وما الإيمان أو الإلحاد عندهم سوى مطية لا غير.

ولكن هل الكهنة هم الإلحاد كله أو النموذج الوحيد له؟ حتماً لا. فهنالك الإلحاد الذي يعتمد على العقل الذي معناه البحث عن شرعية الإدراك في إيجاد تلك الإيمانيات، وها هي قصيدة يعود تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق.م تقول: «لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف وهي ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها، أنظر مكانيهما إن جدرانهما قد جردت ومواضعهما قد اندثرت كأن لم تغني بالأمس، إن أحداً لا يأتي من هناك ليحدثنا عما حل بهما.. سر وراء رغباتك، ومافيه الخير لك، وهيء أمورك على ظهر الأرض حسب ما يأمر به قلبك أنت حتى يأتي يوم النحيب.. أنظر ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه، أجل

---

(١) ص١٣٧ لعنة الفراعنة.

(٢) ص١٥٩ ج٢ قصة الحضارة.

ولا يعود من ذهبوا إلى هناك»[1]. إن ما يريده هذا النموذج هو اللـذة أو الأنـا المتحررة من القيود أو الأخلاق، وشرعية الإدراك من أجل إبعاد العقـل المنزلق أو الخيال عن صنع الإيمان، الذي اعتمد عليه الكهنة.

إن إلحاد المعايير حقٌّ له تقليب كفيه على بعض أسفاً على قيمة الإنسان البعيدة عن الشمول، أسفاً لتلك الفجوة بين القيمة والحضارة، ويكفينا معرفـة: أنـه «أثناء إنشاء هـرم خوفـوا الكبير - مثـلاً - مـات حـوالي ١٨٥٠٠٠ عامل»[2]. تحت الإرهاق والجوع، أم ترانا سنجرِّد الدين عن مفهوم الحضارة؟ وهل يُشيَّد الهرم لغير «الكا» والجثة؟

ومـا دمنا في معرض الحديث عن الإلحاد، فلابد أن نعرج على إلحاد «أخناتون» امنحوتب الرابع، إنه شاعر «شـاءت الأقـدار أن تجعـل منـه ملكـاً»[3]. لقـد نعتـه الكهنـة بـ«المجرم الأكبر»[4]. و«العـدو مـن أخـت آمون»[5]. لأنه أحب الشمس بطريقة تختلف عن طريقتهم، ولأنه حـاربهم في موارد أرزاقهم. فالشمس ظاهرة عظيمة تستحق التأمل، إن كـان في مصدرهـا أو حركتها أو إختفائهـا، ثـم ظهورهـا مـن جديـد، إنهـا اللغز أمـام مستوى إدراكهم وتجربتهـم، وإن استعان رجـال العلـم بخيـالهم فلأنـه وسيلة التفسير الوحيدة لديهم، وبذلك تعـددت الخيـالات بعـدد أصحابهـا، وكلمـا استطاع صاحب الخيال أن يربطه بتجربة الروح، كان أقرب إلى الصـواب، فمـن أجـل تعليل حركة الشمس، جعلوها عيناً في صقر عملاق، كمـا كـانوا «يتخيلونهـا حرفتي «حورس الأفق» برأس الباشق»[6]. «وكذلك أوحـى لهـم رمـز الصقـر وهـو يحلـق في الأجـواء دون أي حركـة ظـاهرة، بـأن لقـرص الشـمس أيضـاً

---

(١) ص١٥٣ - ١٥٤ ج٢ قصة الحضارة.

(٢) ص٢٢١ لعنة الفراعنة.

(٣) ص١٦٨ ج٢ قصة الحضارة.

(٤) ص١٨٠ نفسه.

(٥) ص٢٦٢ مصر الفراعنة.

(٦) ص٢٤٢ مصر الفراعنة.

جناحي الصقر إذ تحلق في الجو دون عناء»[1]. كما تخيلوا وجود زوارق تقوم بنقلها، «زورقاً للنهار وآخر لليل، وللزورقين بحارة من آلهة ذوي شأن»[2]، والبعض رآها «ككرة تتدحرج، والمصريون يعرفون الكرة المتدحرجة من خلال الكرية التي يدفعها أبو جعل على الرمل، وهكذا غدا أبو جعل رمزاً لشمس الصباح»[3].

أما «اخناتون» فقد رآها مصدراً للحياة والبقاء، أو هي الوحيدة التي تقوم بهذه المهمة، لقد وجد فيها الشمولية الواسعة، وبزوالها في أبسط الأحوال الموت الأكيد لكل المخلوقات، فانطلق قائلاً: «أي آتون الحي «مهما علوت فإن آثار قدميك هي النهار»،[4]. وأن العالم في يدك بالصورة التي خلقته عليها، فإذا ما اشرقت دبت فيه الحياة»[5].

«والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش وأرض مصر، وانك تضع كل إنسان في موضعه، وتمدهم بحاجاتهم»[6]

وعندما تخيل انعدام وجود الشمس أو غروبها قال: «وإذا ما غربت في أفق السماء الغريب، خيم على الأرض ظلام كالموت.. نام الناس في حجراتهم.. ولم يرَ واحد منهم الآخر، وسُرق كل متاعهم الذي تحت رؤوسهم، ولم يعرفوا هم هذا، وخرج كل أسد من عرينه، ولدغت الأفاعي»[7]، وسكن العالم بأجمعه، لأن الذي صنعها يستريح في أفق سمائه»[8]. ومن ثم يقول: «أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه»[9]. ولكن هل كلمة

---

(١) ص٦٣- ٦٤ ما قبل الفلسفة.

(٢) ص٦٣ نفسه.

(٣) ص٦٣ نفسه.

(٤) ص١٧٠ ج٢ قصة الحضارة.

(٥) ص١٧٤ نفسه.

(٦) ص١٧٢ - ١٧٣ نفسه.

(٧) ص١٧٠ نفسه.

(٨) ص١٧٠ نفسه.

(٩) ص١٧٢ نفسه.

الأوحد هذه تناسب الكهنة والبيئة السياسية التي تم إيجادها؟ أم أن المشكلة الحقيقية هي في كون قرص الشمس مقر الإله أو هو الإله نفسه!؟ وأرى أن كليهما واحد، بما أن الإله في الحالين بقي مرتبطاً بالشمس، **فتوحيد «اخناتون» بعيد كل البعد عن الإله الأحد خالق كل الكون**، لأنه لم يقفز فوق الظاهرات قط، وليس من فرق كبير بين قوله أن الشمس هي الإله الوحيد، وبين قول الكهنة بأنها أعظم الألهة من ناحية ما يعنيه التعدد مع مصالحهم، لأنهم مع كل إله موجود كان لهم فيه منفعة، وإلغاء هذه الآلهة هو إلغاء لأغلب مواردهم، ولا أظن أن إلهاً واحداً يكفي لتأمين أرزاقهم.

لقد ألغى اخناتون أوزير إله الحساب مثلاً فهل ذلك بالشيء اليسير؟ لا، فقد حاربه الكهنة والشعب على حد سواء، وليس هذا بغريب، لأن الشعب يهتف نحو الأخلاق، كما يحب تشنيف أذانه بذكر أمجاد الأجداد وآلهتهم التي تشارك إله الشمس عظمته.

ولم يبق في نهاية المطاف أمام اخناتون إلا الرحيل، فترك عاصمته طيبة إلى تل العمارنة، بعيداً عن المتاعب والخصوم، وانتهت أفكاره بعد موته مباشرة، على يدي أقرب الناس إليه، على يدي صهره المدلل، وانتصر الكهنة الذين بيدهم زمام القوة على الفرعون الملحد.

***

الجزء الثالث

الهندوسية بين الإيمان والإلحاد

- الهند وتجربة الإيمان:

بلغت تجربة الحلم الأوج في العقائد الهندية، وكذلك بلغ العقل الأوج في استخدامه للإيمان، وانطلق العقل والخيال يسيطران على كل خلجة في الوجود الهندي، فالعقليون يعرفون ما هم يحتاجون إليه، والأتقياء يبحثون عن الخلاص، ومن خلال تلك المسيرة سنلتقي وجهاً لوجه مع ارتباط الأخلاق والانزلاق وارتباط العقل بالغرض، وإنها لمسرحية دامية الفصول تلك التي ترسمها تجربة الحلم.

لقد مرَّت الهند في سيرها العقائدي بما مرَّ به غيرها، و«الواقع **أن أقدم ديانة في الهند كانت عبادة طوطمية لأرواح كثيرة**، تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجاري الماء والجبال والنجوم»[1]. وقد رأينا كيف اعتمد المصريون على تجربة التشكل الكثير لصورة الحلم الواحدة، كالإنسان الذي يطير بجناحين، أو الحصان الذي يتكلم، وغير ذلك الشيء الكثير، في صنع إيمانياتهم، خاصة فيما يتعلق بوجود «**البا**»، وكذلك فعل الهنود، وقصة وجود المخلوقات التي وردت في «**أوبانيشاد برهادارا نياكا**» خير دليل على ذلك، تقول الأسطورة: «لم يكن مبتهجاً ولا يبتهج من يكون لوحده، ورغب في شخص آخر»[2]. و«كان في الحق كبير الحجم، حتى ليدل جسمه رجلاً وامرأة تعانقا، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين، فنشأ من ثم زوج وزوجة، وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة.. وهذا الفراغ تملؤه الزوجة، وضاجع زوجته، وبهذا انسل البشر، وسألت الزوجة نفسها قائلة: كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه، فلأختفي، واختفت في صورة البقرة، وانقلب هو ثوراً فزاوجها، وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية، فاتخذت لنفسها هيئة الفرس، واتخذ لنفسه هيئة الجواد، ثم أصبحت هي حمارة، فأصبح هو حماراً وزاوجها حقاً، وولدت لهما ذوات الحافر،

---

(١) ص٦٥ قصة الديانات.

(٢) ص١٢٧ الفكر الفلسفي الهندي.

وانقلبت عنزة فانقلب تيساً، وانقلبت نعجة فانقلب كبشاً، وزاوجها حقاً، وولدت لهما الماعز والخراف، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء، مهما تنوعت الذكورة والاناث، حتى تبلغ في التدرج أسفله، إلى حيث النمال»[1].

وهذه القصة مع الحلم، يمكن أن تعد البوادر الأولى لوحدة الوجود وتناسخ الأرواح، اللذين يمكن أن يعدا الركنان الأساسيان في الإيمانيات الهندية والخلقية كلها، وعلى حيثيات هذه القصة، جعلت «**المهابهارتا**» من قتل الأرملة بعد موت زوجها، أعظم قيمة للوفاء، «فالأرملة الطاهرة لا تحب أن تحيا بعد زوجها، بل تراها تدخل النار فخورة بصنيعها، وكانوا في هذه المناسبات يحرقون جسد الزوجة في حفرة من الأرض، أو يدفنونها حية»[2].

وانطلقت التجربة عبر الزمن، **وها هو الحلم يستخدم كبرهان قاطع لا نقاش حوله**، وقصة حلم «**مايا**» والدة «**بوذا**» غنية عن التعريف، فقد رأت الفيل يدخل في رحمها، فقال الكهنة: إما أن يصبح ما في بطنها ملكاً على الدنيا، أو مستنيراً يجوب الأرض، واستحوذ ذلك التأويل على إرادة والدة الملك، ومن أجل أن يمنع الملك ولده عن الطريق الثاني «أخذ يسعى كي يبعد عنه كل المشاهد التي تجلب له الغم والحزن، فبنى له ثلاثة قصور فخمة، أحدها للشتاء والثاني للصيف والثالث للربيع، ومنعه من الخروج من هذه القصور»[3]. وأصدر أوامره بإبعاد «الفقراء والمرضى والمقعدين وكل أولئك الذين يتألمون»[4]. من طريقه، كلما أراد بوذا الخروج من قصوره.

وكذلك ذهب أغلب الهنود، إلا الصفوة من بعض الملحدين، إلى ربط تجربة الحلم باليقين، فكان لهم «**الحلس**» ذو المعاني المبهمة، حتى «أن الكلمة التي تعني الفلسفة في الهند، هي دارسا التي تشتق من كلمة درس التي تعني «**الرؤيا**»»[5].

---

(١) ص٣٣- ٣٤ ج٣ قصة الحضارة.

(٢) ص١٨٢ ج٣ قصة الحضارة.

(٣) ص٣٦ حياة بوذ.

(٤) ص٣٨ نفسه.

(٥) ص١٥ الفكر الفلسفي الهندي.

والألوهية أيضاً صيغت بما يتلاءم وتجربة الروح، فكما للإنسان روح تحفظ جسده متماسكاً في كيان واحد حي، كذلك للكون روح تسند وجوده عن الإنهيار، وبوجودها اطمأنوا إلى عدم سقوط الشمس على الأرض، أو إلى عدم ارتطام القمر بالنجوم، **وكان الإله هو روح العالم التي توجد فيه.**

- الإيمان لإذلال الإنسان واحتلال الأرض:

«التاريخ يروي أن قبيلة آرية -من آسيا الوسطى- غزت الهند، حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد»(١). «وجعلوها موطناً لهم»(٢). ولابد أن يستحوذ المنتصر على كل شيء، والآريون «قصدوا بالحرب إلى رغبة في مزيد من الأبقار»(٣). وعندما استقر بهم المقام «استعملوا كلمة «آري» ليعنوا بها الآشراف»(٤).

فالسيف ليس هو السلاح الوحيد لدى الإنسان، واستخدم الآريون حتى خيالهم وسيلة في إخضاع الهنود إلى الأبد، **فصنعوا لهم ما يجب أن يؤمنوا به،** وإذا كان الدين ممثلاً لأغراضهم والإيمان وسيلة للحفاظ على عروشهم الملكية، فلابد أن يستخدموا السيف في خطوتهم الأولى، ليحققوا بعدها النصر الحقيقي، الذي يضمن لهم السلطة والقوة عبر كل الزمن. ونجح الآريون بذلك، وأسفار الفيدا «تعتبر.. بمثابة سجل فكري وتاريخي وحضاري للآريين في الهند»(٥). وسجل لكل ما هو موجود عند الغز اة للهند، في عاداتهم ودينهم وطقوسهم، والأخلاق والقوانين والآلهة والسياسية والمشاغل الحياتية»(٦). حتى ان البرهمية استمدت «أصولها من ديانة هؤلاء الفاتحين»(٧).

---

(١) ص٢١ مقارنة الأديان.

(٢) ص٧ الفكر الفلسفي الهندي.

(٣) ص٢١ ج٣ قصة الحضارة.

(٤) ص٢٠ نفسه.

(٥) ص١٠٢ الفلسفات الهندية.

(٦) ص١٤٧ نفسه.

(٧) ص٢٢ مقارنة الأديان.

الآريون قلة، أما أهدافهم فكثيرة وعظيمة، يريدون السيطرة على أراضي الهند وسكانها، و«عندما رأوا أنفسهم قلة عددية بالنسبة إلى من اخضعوهم ومن يعدونهم أحط منهم منزلة، أيقنوا أنهم بغير تقييد الزواج بينهم وبين هؤلاء فسرعان ما تضيع ذاتيتهم العنصرية، بحيث لا يمضي قرن واحد أو قرنان من الزمان، حت تهضمهم الأغلبية في ثناياها، وتمتصهم في جسمها امتصاصاً، وإذن فقد كان أول تقسيم للطبقات قائماً على أساس اللون»(١). وفي بنود نظام الطبقات «جعل الآريون أنفسهم في المرتبة الأولى»(٢).

ولكن كيف سيصبح نظام الطبقات ديناً يحكم الجميع؟ قال الكهنة: «أربعة أنواع جاءوا من الإله مانو، فمن رأسه جاء أفضل الناس وأعظمهم قدسية.. وهم الكهنة البراهمين، ومن ذراعيه جاء من يليهم في الأفضلية وهم الملوك والمحاربون.. ومن فخديه جاء أرباب المهن في العالم بين زراع وتجار.. ومن قدميه جاء بقية الناس الذين ينتمون إلى الطبقة السفلى - وهؤلاء هم - المنبوذين.. فليس عليهم سوى أن يضعوا أنفسهم تحت أقدام كل فرد من الطبقات الثلاث الأخريات»(٣).

- الملك والطبقات:

الطبقات إلهية المصدر، والقوانين التي تحكمها إلهية، إنها قوانين «مانو»، وعن مهام «الملك أو الأمير المحارب» «كساتريا» تقول: «كساتريا الذي تقبل السر المقدس عنه في الفيدا حسب القانون. عليه أن يحمي هذا العالم كله، خلق الرب ملكاً لحماية هذه الخليقة.. يجب أن لا يُحتقر الملك، وذلك لأنه إله في شكل بشري.. يجب أن لا يحتجَّ المرء على القانون الذي يقره الملك لمن يحميهم، وأن لا يتذمر من أوامره التي توقع الألم بالذين لا يحبهم.. لأجل الملك خلق الرب ابنه»(٤). ولأجله كان وجود البشر والمخلوقات.

---

(١) ص٢٢ ج٣ قصة الحضارة.

(٢) ص١١٣ الفلسفات الهندية.

(٣) ص٥٢- ٥٣ قصة الديانات.

(٤) ص٢٦٦ الفكر الفلسفي الهندي.

«خلق الملك ليحمي الطبقات والأنظمة كل واحدة حسب رتبتها.. واجب كساتريا الأسمى هو أن يحمي أتباعه»[1]. فـ«الملك الذي يعرف القانون المقدس، يجب أن يبحث عن قوانين الطبقات والمقاطعات والنقابات والعائلات، ويضع لكل واحد قانوناً»[2].

أما القيم عند كساتريا فهي: «البطولة، النشاط، الثبات، الإعتماد على الحيلة والدهاء، عدم الهروب في المعركة، الكرم، الزعامة هي من واجبات كساتريا المولودة من طبيعته»[3]. وأخلاقهم تلتزم النصيحة القائلة: «يفضل أن تقول ما هو نافع من أن تقول ما هو حق»[4].

فهذه القوانين التي نُسبت للإله، كفلت للملك وأتباعه دوام السلطان والقوة، فهو حامي التواجد الطبقي، لأنه حفاظ على جسد الإله «مانو» من العبث، ومن واجباته المقدسة السعي نحو الزعامة التي خلق لها، إنه إله على هيئة بشرية، فالسر المقدس ملك يمينه، والمخلوقات لم توجد بالأصل إلا مناسبة لزعامته.

- الكهنة:

على الرغم من أن «الطبقة الكهنوتية - مكونة - من الغزاة الآريين»،[5]. فقد كان الخلاف والصراع كثيراً ما يقع بينهم وبين الملك، وتأرجحت السلطة بينهما، وفي فترة الملاحم لم يكن للكهنة شأن كبير، أما في السلم فلن يتركوا شيئاً مما لهم من المميزات، وقوانين مانو هي الدستور الذي يربط الجميع، ومانو يقول: «**كل ما هو كائن في الوجود ملك البراهمة**»[6].

وأوصى الطبقات بهم كل خير، لأنهم أفضل بني البشر على الإطلاق، وقد جاء في «اوبانيشاد تابيتري»: يجب أن تقدم مقعدك للبراهمين الذين هم أعلى

(١) ص٢٦٧ نفسه.

(٢) ص٢٥٤ نفسه.

(٣) ص٢٣٣ نفسه.

(٤) ص٢٤١ نفسه.

(٥) ص٥٢- ٥٣ قصة الديانات.

(٦) ص١٦٦- ١٦٧ ج٣ قصة الحضارة.

منك وذلك لكي تسعدهم، **يجب أن تعطي بإيمان، يجب أن تعطي بكثرة، يجب أن تعطي بتواضع، يجب أن تعطي بخوف، يجب أن تعطي بحنان**»[١]. بل أن الإله نفسه جعل من كتبه التي أوحى بها مصدر رزق لهم وها هو يقول: على كل من «**البراهمين أن يتمعن يومياً بالكتب المقدسة التي تزيده حكمة وترشده إلى طريق الحصول على الثروة**»[٢]. «وعليه أيضاً أن يجمع الثروة بإتباع الوظائف اللائقة المنصوص عليه لطبقته **دون أن ينهك جسده**»[٣].

كما أن هنالك موارد ابتدعوا سبلها لا تقل أهمية عن ذلك، فقد «**كان من موارد الكهنة الخصبة، الإتيان بالمعجزات**، وغير ذلك من ألوف الخرافات، فلقاء رسم معين، يستطيع البرهمي أن يجعل من العاقر ولوداً، ونظير أجر معلوم، ينبىء البرهمي بما خُطّ في لوح القدر.. وكان الرجل من البراهمة يُقصد في كل حالات المرض أو المحاكمات، أو حالات التشاؤم ببعض النذر السيئة، أو الاحلام المزعجة، أو البدء في مشروع جديد»[٤]. **حتى ديّات القتلى من نصيبهم**، و«إذا قتل - المنبوذ - زميلاً له، كان عليه أن يكفّر عن جريمته، بعشر بقرات يهبها البراهمة، أما إذا قتل أحداً من الفيشية، **فكفارته للبراهمة مائة بقرة**، وإذا قتل أحد من الكشاترية، ارتفعت الكفارة إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة، اما إذا قتل برهمياً فلابد من قتله، **لأن العقاب بالقتل لا يكون إلا لقتل برهمي**»[٥].

وأملاك الكهنة معفية من الضرائب، مهما كانت عظيمة، و«مانو يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمي، حتى إذا نضبت كل موارد المال الأخرى، لأن البرهمي إذا ما ثار غضبه، يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً، بتلاوة لعنات ونصوص سحرية»[٦].

---

(١) ص١٠٣ الفكر الفلسفي الهندي.

(٢) ص٢٦٠ نفسه.

(٣) ص٢٥٩ نفسه.

(٤) ص١٦٥- ١٦٦ ج٣ قصة الحضارة.

(٥) ص٥٤ قصة الديانات.

(٦) ص١٦٥ ج٣ قصة الحضارة.

وأخلاقهم معفية من المراقبة والحساب، بل «يجب تعظيم البرهمي في جميع الأحوال، حتى لو مارس سائر الأعمال الدنيئة والسافلة، ذلك أن البرهمي إله»[1].

- طبقة التجار وأصحاب المهن:

إن هذه الطبقة مسؤولة عن توفير «مسائل العيش للملوك والمحاربين»[2]. فالتاجر «تايسيا» «عليه أن يجتهد لكي يزيد ملكيته بالطرق الحقة، وعليه أن يقدم الطعام لكل الكائنات المخلوقة»[3].

- المنبوذون أو العمال «سودرا»:

المنبوذون هم المعارضون للاحتلال الآري، إنهم معظم السكان الأصليين»[4]. «قوامهم قبائل وطنية لم ترتد عن ديانتها، مثل قبيلة شاند، وأسرى الحرب، ورجال تحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب»[5].

إنهم «الطبقة السفلى، وليس هم من مهمة، سوى خدمة الطبقات الثلاث السابقة في أخس حاجاتها.. فليس عليهم سوى أن يضعوا أنفسهم تحت أقدام كل فرد من الطبقات الثلاث الأخريات»[6]. ولقد حددت القوانين الإلهية الواجبات الملقاة على عاتقهم، وسوف نسرد الآن بعضاً منها: «واجب سودرا - أن يخدم البراهمين»[7]. «**خلق ليخدم البراهمين**»[8]. و«الامتثال المطلق لأوامر البراهمة، هو أقصى ما عليه من الواجبات، إن خدمة السودرا للبراهمة هي أفضل عمل يحمد عليه، **ولا يجوز له أن يجمع ثروة أياً كانت**.. وهو إذا علا فوق من هو أعلى منه بيده أو عصاه قطعت يده، وهو إذا نادى

---

(١) ص١١٤- ١١٥ الفلسفات الهندية.

(٢) ص٥٣ قصة الديانات.

(٣) ص٢٦٨ الفكر الفلسفي الهندي.

(٤) ص٢٤ ج٣ قصة الحضارة.

(٥) ص٢٤ ج٣ نفسه.

(٦) ص٥٣ قصة الديانات.

(٧) ص٢٦٨ الفكر الفلسفي الهندي.

(٨) ص٢٦٩ نفسه.

من هو أعلى منه بإسـ   سم طائفته متكلماً، فعقابه أن يدخل في فمه خنجر محمى مثلث النصل طوله عشرة قراريط، ويأمر الملك بصب زيت حار في فمه وفي أذنيه، إذا بلغ في الوقاحة ما يبدي به رأياً للبراهمة في أمور وظائفهم»[١].

«على المنبوذ ألا يقترب من عضو طبقة الكساتريا، بحيث تقل المسافة بينهما عن أربعة وعشرين قدماً، أو أن يقترب من برهمي، بحيث تقل المسافة بينهما على أربعة وسبعين قدماً، وإذا وقع ظل منبوذ.. على رجل ينتمي إلى الطبقات الأخرى، كان على هذا الأخير أن يزيل عن نفسه النجاسة بغسل طهور، فكل ما يمسه المنبوذ يصيبه الدنس بمسه إياه، وفي كثير من أجزاء الهند، لا يجوز للمنبوذ أن يستقي ماء من الآبار العامة، أو أن يدخل معابد البراهمة، أو أن يرسل ابناءه إلى المدارس الهندوسية»[٢].

«سودرا لا يستحق أن يكرس، ولا يحق له أن يتم القانون المقدس.. ويكسب المدح إذا قلد الإنسان الفاضل، دون ان يتلو الكتب المقدسة»[٣].

و«لو أنصت رجل من طبقة السودرا إلى تلاوة الكتب المقدسة، امتلأت أذناه بالرصاص المصهور، هكذا تقول كتب القانون البرهمية، وإن تلاها هو انشق لسانه، ولو حفظ شيئاً منها قطع جسده نصفين»[٤].

وبالمختصر لا يسمح للمعارضين أن يكونوا أقوياء قط، ويجب ألا تمتد أيديهم إلى أعدائهم، وإذا كانت الثروة قوة، وإذا كان العمل طريقاً إلى جمعها، فإن «مانو» الإله الرحيم، سوف يفصل العمل عن الثمرة، ليجعل من أعدائه كنطيين بكل ما تعنيه الكلمة.

على التجار والمنبوذين أن يعملوا، **والمهابهارتا** تقول: «لا تعمل ما لا ينتفع به الناس»[٥]. و«البهاجفادجيتا» تحدد الفضيلة بقولها: «**لك الحق في العمل،**

---

(١) ص٥٣ قصة الحضارة.

(٢) ص٤٢٠- ٤٢١ ج٣ قصة الحضارة

(٣) ص٢٦٩ الفكر الفلسفي الهندي.

(٤) ص١٦٦ ج٣ قصة الحضارة.

(٥) ص٢٣٩ الفكر الفلسفي الهندي.

وليس لك الحق في ثمرته»[1]. فـ«من لا يرغب بالثمرة هو من طبيعة الصلاح»[2]. و«من لا تتحد روحه بالمقدس، يخضع للرغبة ويتعلق بثمار العمل»[3]. و«خدمة البراهمين وظيفة صالحة لسودرا، لأن أي شيء يعمله لا يعطيه ثماراً»[4]. فليس لعمله جزاءً أو شكوراً، وتلك هي الفضيلة.

وليست عقيدة انفصال العمل عن ثمرته هي الأسلوب الوحيد لامتصاص قوة الخصوم، بل إن ارتباط الأعداء بالضعف ضرورة لابد منها على الدوام، ومن أجل ذلك كانت العقيدة التي تقول باستحالة تطور الطبقات، أو انتماء أحد أفراد طبقة معينة إلى طبقة مغايرة، إلا بعد الموت وبشكل فردي، وفي ذلك يقول الإله: إن «**الذين يولدون من الطائفة السفلى، فلا يمكن أن يصبحوا كهنة ولا حكاماً، أو أن تكون لهم مراكز هامة من أي نوع**.. وإذا ولد إنسان من طائفة، فليس له أبداً أن يستمتع بامتيازات الطائفة التي تعلوه»[5].

كما أنه ليس من الإيمان أن يتزوج المرء «من خارج طبقته.. وجاء في كتاب مانو: أن الرجل الطيب العنصر بمولده إنما يفسد عنصره بصحبة الأدنين، أما من كان دنياً بمولده، فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين»[6]. إن «**اتباع قانون الآخرين خطر مهلك**»[7].

التساؤل عن ظاهر العدل برأي الكهنة هو الغباء نفسه، والحقيقة أن النظام الطبقي كما تقول العقيدة، هو الوسيلة الوحيدة للعدل المطلق، فهل من الظلم ترف المترفين وتعاسة المنبوذين؟ بالطبع لا، فـ«**كل ما يتمتع به الإنسان أو يكابده في الوقت الحاضر، هو نتيجة ما فعله في الحيوات الماضية**»[8].

---

(١) ص١٦٧ نفسه.
(٢) ص٢٣١ نفسه.
(٣) ص١٨١ نفسه.
(٤) ص٢٦٩ نفسه.
(٥) ص٥٤ قصة الديانات.
(٦) ص١٦٨ ج٣ قصة الحضارة.
(٧) ص١٧٤ الفكر الفلسفي الهندي.
(٨) ص٢٤٢ نفسه.

فالحاضر نتيجة ما مضى، **فهدىء من روعك أيها المنبوذ**، فقد كنت شريراً فيما مضى، وليس شرطاً أن تذكر ماحدث، وها أنت تقطع المراحل نحو الأحسن، فقد كنت خنفساءً وربما صرصوراً، أو حماراً، أما الآن فأنت من البشر، وإذا أردت أن تكون من أصحاب السعادة والطموح، **فعليك بإسعاد الكهنة والملك**، وليس هذا بالأمر المحال، فلا مكان لليأس، فاحرص على عدم العودة إلى الشر، من أجلك، وكل الشر كامن في التمرد على نظام الطبقات، فـ«**العدالة والكمال الأخلاقي لا تتحقق في حياة واحدة**»(١). والمنبوذ مثلاً: «يصل إلى طبقة أعلى في حياته المقبلة»(٢).

ولما كانت كتب الإيمان كما يعرفها الكهنة منهجاً للهيمنة والسيطرة، جعلوها محظورة على المنبوذين، لأنهم يخشون من افتضاح خططهم السرية، أو من انفصال الإيمان الذي قرروه عن أغراضهم، لذلك قالوا: «سودرا لا يستحق أن يكرس، ولا يحق له أن يتم القانون المقدس.. وله المدح إذا قلد الإنسان الفاضل، دون أن يتلو الكتب المقدسة»(٣). و«**لو أنصت رجل من طبقة السودرا إلى تلاوة الكتب المقدسة، امتلأت أذناه بالرصاص المصهور.. وإن تلاها هو انشق لسانه، ولو حفظ شيئاً منها قطع جسده نصفين**»(٤).

- البقر بين الحاجة والإيمان:

يروي لنا المؤرخون: **أن الحصول على البقر كان من ضمن الأهداف الرئيسية للغزاة الآريين**، والمقدس قديماً كأنما النعت للإعتراف بالجميل، وها هي أنشودة في «رج فيدا» تقول: «لتصعد أنشودتي الملهمة إلى فيشنو، الثور، ساكن الجبال، صاحب الخطى الكبيرة.. نتوق للذاهب إلى

---

(١) ص١٩ الفكر الفلسفي الهندي.

(٢) ص٢٦٩ نفسه.

(٣) ص٢٦٩ نفسه.

(٤) ص١٦٦ ج٣ قصة الحضارة.

حيث تسكن، حيث توجد الأبقار النشيطة ذات القرون العديدة، ومن هناك يشع فيشنو علينا، فيشنو الثور بخطوته العالية»[١].

الآريون قلة، والحاجة إلى البقر ماسة، ولكن الهنود كثر، وإذا ما أصبحت الثيران والأبقار طعاماً لهم فسوف تنقرض، ولذا هب الكهنة والملوك لصياغة برامجهم الاقتصادية، وأصبحت «الطبقات كلها مشتركة في تقديس البقر»[٢].

بل ووضعوا سيف العدالة في قبضة البقر القوية، فإذا ما كان هنالك نزاع ما مثلاً، فإنه «يغلى الزيت ممزوجاً بروث البقرة، وعلى المتهم أن يدس فيه ذراعه حتى المرفق.. فإذا لم يصب جلده بحروق.. عد ذلك برهان براءته القاطع»[٣].

ومن يخرق حرمة القانون الطبقي فعليه أن يتطهر مما علق به من نجاسة، ولن يكون له ذلك، إلا إذا «شرب مزيج فيه خمسة عناصر من البقرة المقدسة، اللبن، والخثارة، والسمن، والبول، والروث»[٤].

والبول كما يقول الأب «دبوا»: «أفعل وسائل التطهير من أي ضرب من ضروب النجاسة، فكثيراً ما شاهدت هنوداً ممن يؤمنون بالخرافة، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه، ينتظرون اللحظة التي يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين، في أوعية من نحاس أصفر، ويسرعون به إلى دورهم وهو مايزال دافئاً، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه في حفنات أيديهم، فيشربون بعضه ثم يمسحون وجوههم ورؤوسهم ببقيته»[٥].

وأخيراً أصبح للبقرة «مطلق الحرية في ارتياد الطرقات، كيف شاءت، وروثها يستخدم وقوداً أو مادة مقدسة يتبركون بها، وبولها خمر مقدس، يطهر كل ما في الجسم من نجاسة في الظاهر والباطن»[٦]. كما أصبحت «تماثيلها في كل معبد ومنزل وميدان.. ولا يجوز للهندوسي تحت أي ظرف

(١) ص٣٣ الفكر الفلسفي الهندي.

(٢) ص١١٣ الفلسفات الهندية.

(٣) ص١٦٤ ج٣ قصة الحضارة - الحاشية.

(٤) ص٢٢٦ نفسه.

(٥) ص٢٢٦ ج٣ نفسه - الحاشية.

(٦) ص٢٠٨ ج٣ نفسه.

من الظروف، أن يأكل لحمها، أو يستغل جلدها في أي صناعة من الصناعات، وهي إذا ماتت وجب دفنها بجلال مع أعظم طقوس الدين»[١].

وحتى البرهمي راح «يطهر المكان الذي أعده لنومه بروث البقر»[٢]. وعندما لاحظ الزعيم الهندي «نهرو» الفجوة التي حدثت ما بين ارتباط القداسة والمنفعة قال: لقد «نسي الناس السبب في تعظيم قدمائهم للأنهار والبقر، وأخذت صفة القداسة تسري إليها فاعتبروها بمثابة الآلهة وعبدوها»[٣].

- العقل والإيمان:

العقل وسيلة الإنسان في البقاء، إنه القوة الأعظم التي يملكها، لقد أدرك المحتلون ذلك جيداً، فكان لابد لهم من منهج يستطيع انتزاع هذه القوة عن الأعداء، وفكرة تجاوز العقل لا تفي بالغرض فحسب، بل بوسعها أيضاً تبرير إدراك الإيمانيات المعلنة.

تسخير ظاهرات الطبيعة من ضمن مهام العقل، لذا يجب ألا تكون الطبيعة موضوعاً من موضوعاته، ومن أجل ذلك قال الكهنة: أن الفيدا هي موضوع المعرفة، «وظيفة العقل هي علم الكتب المقدسة»[٤]. والإله «كرشنا» في «البهاجفادجيتا» يقول: «أنا موضوع المعرفة»[٥].

ولو قرأنا عناوين الأسفار الأربعة الباقية من «الفيدا» التي تعني «الحكمة»،[٦]. لعرفنا طبيعة ذلك السجن الذي جعلوه مسكناً للعقل، أولاً: «سفر رج أو معرفة ترانيم الثناء. ٢- سفر ساما أو معرفة الأنغام. ٣- سفر ياجور أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين. ٤- سفر أتارفا أو معرفة الرقى السحرية»[٧].

---

(١) ص٧٢ قصة الديانات.

(٢) ص١٦٨ ج٣ قصة الحضارة.

(٣) ص١٦١ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام.

(٤) ص٣٣٢ الفكر الفلسفي الهندي.

(٥) ص١٩٨ نفسه.

(٦) ص٢٥ نفسه.

(٧) ص٣٨ ج٣ قصة الحضارة.

فالترانيم، والأنغام، وصيغ قبول القرابين، والرقى السحرية، هي المادة أو الموضوع الذي يجب أن يعمل فيه العقل، وحتى هذه المواضيع محجوبة عن الأعداء أو المنبوذ، وهو المطلوب لعزلهم عن أي أثر لفعل العقل.

المعقول الذي لا معيارية له لا صواب فيه، **ومن يسأل الكهنة عن سبل إدراكهم لما قبل الولادة أو ما بعد الموت سيجدهم قائلين: ليس من الضروري ارتباط العقل بالحس والمحسوس، فهنالك «الحدس»، وأصبح «الحدس كل شيء عندهم»**[١]. وليس هذا فحسب، بل ان الإدراك الصحيح برأيهم، لن يكون إلا «عندما تتوقف الحواس الخمس، وعندما تتوقف معرفة العقل ولا يتحرك الذكاء، ذلك **هو الطريق الأسمى**»[٢]. نحو الحقيقة، ومن يجد السرور السامي، ويراه أو يدركه بالذكاء وبالتعالي على الحواس، لا يسقط من مملكة الحقيقة»[٣]. و«اوبانيشاد مايتري» تقول: «عندما نجعل العقل بلا حركة ونحرره من الأسى والكسل، وعندما نصل إلى حالة لا عقلية هذه هي الحالة السامية. العقل في الواقع هو للبشرية وسيلة العبودية والتحرر معاً. هو للعبودية إن كان يخضع للأشياء، وللحرية إن كان ينعتق من الأشياء»[٤].

وإذا كان العقل مرتبطاً بالبقاء، أو بكل الإنسان، فسوف يسعى الكهنة لفصل الإدراك عن هذه العلاقة، وتتجلى محاولتهم هذه، في الفصل بين العقل واللذة والألم فقالوا: «لا يقترف خطأ الإنسان الذي لا رغبات له، ومن يكون قلبه وذاته تحت السيطرة، ويترك كل ممتلكاته، ويقوم بعمله بالجسد فقط»[٥]. و«من يمنع أعضاءه عن العمل، ويستمر عقله أن يحيا في مواضيع الحس، ومن تضل طبيعته يكون مرائياً، لكن من يضبط حواسه بالعقل، وبدون أن ينغمس، يستخدم أعضاء العمل لأجل العمل فقط، يكون سامياً»[٦]. **والسمو هو**

---

(١) ص٥٦٥ الفكر الفلسفي الهندي.

(٢) ص٩٠ نفسه.

(٣) ص ١٨٦ نفسه.

(٤) ص١٤٩ نفسه.

(٥) ص١٧٧ الفكر الفلسفي الهندي.

(٦) ص١٧١ نفسه.

«عدم الإكتراث بمواضيع الحس.. عدم التعلق بالأبناء والزوجة والمنزل.. والإلتجاء إلى الأماكن المعزولة، والإبتعاد عن جمهور الناس.. هذه هي المعرفة الحقة، وكل ما يختلف عنها ليس بمعرفة»(١).

وهل يعجز الكهنة عن تأييد آرائهم هذه؟ ومن أين لهم العجز بما أنهم قادرين على ربط «الباراسيكولوجيا» بالإدراك؟ وها هو الوسيط، وها هي السبل الكثيرة، بدءاً من الخلوة، نهاية بالرياضة التي بإمكانها إيجاد تلك الظواهر، التي تشير إلى الإدراك غير المرتبط بالحس والمحسوس بزعمهم، وأصحاب «اليوغا» مثلاً، قاموا بمحاولات تجاوز الحواس فقالوا: أن للسمع المعزول عن الحواس سمع فوق حسي، وهكذا إلى كل الحواس، وفي يوغا «سوترا» مثلاً إن «قدرة إدراك الشم ما فوق المادي، يحصل عليه الإنسان بتركيزه على القسم الأمامي من الأنف.. وبالتركيز على القسم الأمامي للسان، نحصل على أعلى حيوية حسية ذوقية»(٢). وهكذا يجب على الإنسان أن ينطوي طول عمره على التأمل، والنظر إلى رأس أنفه، أو لسانه أو تطويله، وإلى ما هنالك من تلك الدروب، حتى يحصل على ذلك الكشف، وتلك الفتوح، وعندها، وعندها فقط تأتيه المعرفة هرولة، فيدرك ما لا يدرك، وإذا ما أراد «معرفة البعيد والحاذق والمستتر،- فعليه- أن يوجه نور الحيوية «الحس العليا»- على الشمس - مثلاً -، فتتحقق معرفة المناطق.. على القمر، فتتحقق معرفة نظم النجوم.. على القطب الشمالي، فتتحقق معرفة حركات النجوم.. وتحصل المعرفة كلها بالبصيرة.. بالبصيرة تحصل على معرفة البعيد وغير المدرك، الحاضر والماضي والمستقبل، بالسمع العالي ينتج سمع الأصوات المقدسة، وباللمس تنتج معرفة اللمسة المقدسة»(٣). وكل ذلك متاح للإنسان، ما دام بعيداً عن مضايقة الحكام والكهنة، وهكذا تم تبرير ما تقوله العقيدة، كما تم إبعاد الخصوم والأعداء. ومن شك في الإيمان، فليجرب بنفسه قبل أن يلتهمه الموت، ومن ظن أن القوة كائنة في تسخير الطبيعة، فعليه أن يعلم أن التحرر من المحسوس هو القمة في القوة والمعرفة.

---

(١) ص٢١٣ نفسه.

(٢) ص٥٥١ الفكر الفلسفي الهندي.

(٣) ص٥٦٢ نفسه.

- الكهنة والإلحاد:

إذا نظرنا إلى كهنة الهندوسية، أولصنّاع العقيدة من خلال ما قالوه من إيمانيات، ومن خلال فكرة التطور، لوجدنا أن الإيمان المتأخر أو الإيمان البديل، ليس إلا الإلحاد بالإيمان السابق، **وإلحاد الكهنة، هو إلحاد ناتج عن تطور أغراضهم وإدراكهم على الدوام**، وإذا ما أردنا امتحان صواب هذه الفكرة، فعلينا أن ننظر فيما تعنيه الألوهية لديهم، وفي بعضٍ من سلوكهم.

ففي «الفيدا» القائمة على الوحي الإلهي، نجد فكرة التطور واضحة كل الوضوح، بل إن ما يميز «الفيدا» هو احتفاظها لسلسلة التطور التي خضعت لها عقائدهم، حتى أصبح من المتعذر إيجاد صيغة تامة لمعنى الألوهية تشمل مضمونها من خلال وجودها المجمل.

إن «رج فيدا» تذكر ظواهر الطبيعة كآلهة تُعبد، ففيها «اندرا» إله العواصف، و«اجني» إله النار، و«براثيفي» إله الأرض، و«ديوس» السماء و«سوريا» الإله الشمس، و«أوشاس» الفجر، و«فانتا» إله الريح، «وحتى الآلهة التي لم تعد واضحة أو ذات معنى مثل «أندرا» و«فارونا» و«مترا» و«أديتي» و«فيشنو» و«بوسان» و«رودرا» و«يارجافيا»، كانت لها صلة بالمظاهر الطبيعية»[1].

كما نرى في ثنايا - الفيدا - التوحيد بمعنى التفرد، وكثيراً من الآلهة تتفرد بالقوة والسلطان دون سواها، ولذلك حتماً معناه، فـ«فارونا - مثلاً - هو الذي أشاد أنحاء الفضاء.. هو الذي يقيم عوالم الحياة.. إن جميع الآلهة تتبع قانون فارونا»[2]. وكذلك «فيشفا كارمان» أنه «الصانع المدبر.. يعرف كل الشعوب، وكل الأشياء الكائنة.. إنه أقدم من الأرض والسماء»[3]. أما «براجاباتي» فهو «رب كل ذوات الأربع والاثنين.. من بواسطته ثبتت

---

(١) ص٢٦ الفكر الفلسفي الهندي.

(٢) ص٤٦ نفسه.

(٣) ص٤٧ نفسه.

الأرض والسماء، وتأسست الشمس والفضاء»[1]. و«اندرا.. هو الواحد المجد»،[2]. و«هارتا الخالق العظيم، شكّل الشمس والقمر في نظام كامل، ونظمَّ السماء والأرض ومناطق الهواء والنور»[3].

وبقيت قضية الخالق تميز عظمة هذا الإله عن ذاك، «وقال البعض أنه اجني إله النار، وقال آخرون بل أنورا إله العواصف، وقالت طائفة إنه سوما إله النبات، بينما قال الباقون إنه براجاباتي إله الشمس،- إنه - خالق كل شيء، ورب كل الأحياء، وظل هذا الرب يرتفع ويعلو، حتى صار ذات يوم يُعبد على أنه الإله الواحد، ثم صار هو براهما الذي يفني في نفسه كل شيء»[4].

وكما وجدنا أن التوحيد في البيئة المصرية، يعني حضور تطور الإدراك واتساعه نحو الشمول، كذلك هو في البيئة الهندية من خلال إتحادات الآلهة في إله واحد، أو من خلال تكوين ثنائيات وثلاثيات وتاسوعات إلهية، فهذا الواحد «يدعونه اندرا، مترا، فارونا، آجني، هو جارد ثمان السماوي النبيل صاحب الأجنحة»[5]. وصاحب الأجنحة هو الشمس. فأقصى ما يمكن أن يتصوره التوحيد العقلي، هو تخيل العالم على هيئة بشرية، وتساءلت «رج فيدا» من هذا المنطلق عن دم الأرض وروحها، وكان الإله هو الروح التي تحفظ النظام والوجود، وبذلك تصبح «النار رأسه، القمر والشمس عيناه، وأذناه مناطق الفراغ، وصوته «الفيدا» الموحى بها، والريح لهاثه، وفؤاده العالم بأجمعه، ومن قدميه خرجت الأرض، حقاً إنه الروح لكل الأشياء، «أتمان» منه تنطلق النار ومحروقاتها، هو الشمس.. وعنه تنتج أيضاً الآلهة العديدة»[6].

الكهنة، سياسيين قبل كل شيء، وتراثهم عزيز على قلوبهم، لذلك قاموا بالتوفيق بين التعدد والتوحيد، حتى قالوا في نهاية الأمر: أنه «يوجد إله واحد

---

(١) ص٥٤- ٥٥ نفسه.

(٢) ص٥٨ نفسه.

(٣) ص٥٦ نفسه.

(٤) ص٦٦ قصة الديانات.

(٥) ص٥٢ الفكر الفلسفي الهندي.

(٦) ص٩٥ الفكر الفلسفي الهندي «أو بانيشاد مونداكا.

- وجميع - آلهة الفيدا مظهراً لـه»[1]. وها هي «أوبانيشاد برهادارانياكا»، تجسد أسلوب امتصاص التعدد، فقد «سئل باجنيا فالكيا: كم إله يوجد؟ أجاب توجد آلهة بقدر ما هو مذكور في نيفيذ، «أنشودة إلى كل الآلهة»، أي ثلاثماية وثلاث، ثلاثة آلاف وثلاثة».

ثم قال هو «كم إله يوجد تماماً»؟

ثلاثة وثلاثون.

نعم قال هو «كم إله يوجد تماماً»؟

«ستة».

نعم قال هو: لكن كم إله يوجد تماماً؟

«واحد ونصف».

نعم قال هو: «لكن كم إله يوجد تماماً»؟

«واحد»[2].

فالتوحيد أو التعدد عندهم ليس بالرأي المقدس، والتسامح فيه كثير، والتناقض أكثر، سواء أكان في الأوبانيشاد الواحدة، أو بينها وبين الأخريات، حتى أنهم لم يكترثوا كثيراً لهذا الأمر، لأن ما تعنيه الإستقامة وعدم التناقض والمقدس هي أغراضهم لا غير. وبقي قانون الطبقات، والتناسخ وتقديس البقر كل ديانتهم، التي يتم من خلالها إيجاد موازين الإلحاد والإيمان.

فالملحد على رأي الكهنة هو من خرج عن أغراضهم، إنه من يطلب العدل بين البشر، إنه الذي يطلب التحرر من قبضة البقر، إنه الذي يرفض أكذوبة العقاب والمكافآة بالولادات المتعددة، إنه الذي يربط العقل بالإدراك والتجربة، إنه بشكل عام ذاك الذي يعارض الظلم والقهر.

أما إلحاد المعايير فله شأن آخر، فقد نظر أصحابه إلى الكهان وسلوكهم، فلم يجدوا فيهم إلا رجالاً يسعون إلى اللذة، فها هي المعابد كالمواخير، فقد «كان الز نا في الأعم الأغلب مقصوراً عليها، ففي الأصقاع الجنوبية، كانت

(١) ص٧٣ الفكر الفلسفي الهندي.

(٢) ص١٣٥ نفسه.

رغبات الرجل الشهواني، تشبعها له من كن يطلق عليهن خادمات الله، طائعات في ذلك أوامر السماء. وما خادمات الله، أو فاداس كما يسمونهن إلا العاهرات، وفي كل معبد في تامل، مجموعة من النساء المقدسات، اللاتي يستخدمهن المعبد أول الأمر في الرقص والغناء أمام الأوثان، ثم من الجائز أن يستخدمن بعد ذلك، في امتاع الكهنة البراهمة، وبعض هؤلاء النسوة قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكهانها، وبعضهن الآخر قد وسع من نطاق خدماته، بحيث يشمل كل من يدفع أجراً، على شريطة أن يدفعن لرجال الدين جزءاً من كسبهن عن هذا الطريق»[1].

ونظر الملاحدة كرة أخرى باتجاه الكهان، فوجدوهم رجال مهنة وحرفة لكسب العيش فقالوا: «إن المنظّم يريد فجوة، ويريد الطبيب أن يقع حادث، والكاهن البراهميني يريد أن يجد متعبداً»[2]. وما العقائد إلا من صنع الكهنة، فـ«**البراهمين أوجدوا كل هذا ليكون وسيلة لمعيشتهم هنا**»،[3]. والقرابين خير شاهد على ذلك، وما أكثر النصوص المقدسة، التي تحث على تقديم الهدايا والطعام للآلهة، حتى أصبح الهندي يعتقد «أنه إذا لم - يقدم الطعام للآلهة - تموت جوعاً»[4]. فالآلهة تحتاج إلى القرابين كما يزعم الكهنة، أما هم «فيتقاضون أجوراً عالية، على مساعدة المتعبد في أداء طقوس القربان، التي أخذت تزداد مع مرّ الزمن تعقداً، فإذا لم يكن في وسع المتعبد أن يدفع للكاهن أجره، رفض أن يتلو له الصيغ اللازمة، فأجره لابد أن يسبق ما يدفع لله من أجر»[5].

لقد تأمل السفسطائي الملحد «جابالي» في ذلك كثيراً، في أحوال المؤمنين والكهنة فقال: «إني لأبكي من أجل هؤلاء الفانين من الناس حين يخطئون، فيكبون على واجب باطل، ويضحون بهذه المتع الحبيبة إلى النفس، حتى

---

(١) ص١٧٥ ج٣ قصة الحضارة.

(٢) ص٦٩ الفكر الفلسفي الهندي.

(٣) ص٣٠٧ نفسه.

(٤) ص٢٢٥ قصة الحضارة. جـ٢

(٥) ص٣٥ نفسه.

تقضي حياتهم القاحلة، وما ينفكون يقدمون العطايا للآلهة وللأسلاف، ياله من ضياع للطعام، لأنه لا إله، ولا السلف يأخذ منا هذا الذي نقدمه إليه في ولاء وتقوى، وهل إذا أكل الطعام آكل تغذى به ناس آخرون؟ فهذا الطعام تقدمونه لبرهمي، هل يمكن له إذن أن يشبع الآباد السالفين، إن الكهنة بخبثهم قد صاغوا هذه الحِكَم، وهم يقولون إذ هم ينظرون إلى أغراض أنانية: قدِّم قربانك وتب إلى الله، واترك مالك الدنيوي، واخلص للصلاة، كلا يا «راما» ليس هناك حياة آخرة، وكلها أباطيل هذه الآمال وهذه العقائد عند الإنسان، فابحث عن لذائذ الحاضر وأطرد عن نفسك هذه الأوهام العابثة الواهية»[(١)].

أما «بريهاسباتي» فقال: «ليس للجنة وجود، وليس هناك خلاص أخير، فلا روح ولا آخرة، ولا طقوس للطبقات.. **إن هذه الطقوس الغالية التي تقام لمن يموتون، ليس إلا وسائل عيش دبرها دهاء الكهنة** لا أكثر من ذلك، فما دمت حياً انفق حياتك مطمئن البال مرح النفس، ليقترض الإنسان مالاً من أصدقائه جميعاً ويطعم نفسه بالزبد»[(٢)].

إنها اللذة، واللذة هي كل البديل عند هؤلاء الملاحدة الذين استقرَّ لسانهم على القول: «طالما أن الحياة لك.. عشها بسعادة، لا ينجو أحد من عين الموت الباحثة، عندما تحرقون شكلنا هذا، كيف نعود مرة أخرى؟!»[(٣)]. «لماذا يؤكدون أن هذه المرأة تخص شخصاً واحداً، وأن هذا الشيء يخص شيئاً آخر، هذه فروقات لا أعرفها»[(٤)]. و«هل يقارن الصوم والاستعطاء والندامة والتعرض لحرارة الشمس المحرقة بعناق إمرأة جميلة»[(٥)]. إنها الاباحية! هذا صحيح ولكنها في رأيهم، أفضل ألف مرة من شراب التطهير، ففيها المساواة بالحيوان الذي يقهرهم على أقل تقدير، وفيها التسوية بين الطبقات، بما أن

---

(١) ص٥٤ الفكر الفلسفي الهندي.
(٢) ص٥٥- ٥٦ ج٣ قصة الحضارة.
(٣) ص٣٠١ الفكر الفلسفي الهندي.
(٤) ص٣٢٢ نفسه.
(٥) ص٣٢٣ نفسه.

الملذ لا حدود له، وفيمانا يقول: «**كيف تكون أحسن حالاً إذا لطخت جسمك بالرماد**؟.. إن كتب الفيدا أشبه ما تكون بالفاجرات، اللائي يخدعن الرجال، وليس لهن أغوار تسبر.. أيمكن لتطليخ الجسم بالرماد الأبيض أن يذهب برائحة وعاء الخمر؟ أيمكن لحبل تلفه حول عنقك أن يجعل منك إنساناً آخر؟ لماذا نرى واجباً علينا أن نسيء إلى طبقة الباريا إساءة لا تنقطع؟ أليس المنبوذ مثلنا في لحمه ودمه؟»[1].

ويمتد الإلحاد في نهاية الأمر لنقاش طبيعة الإدراك، فمن المعلوم أن الكهنة اعتمدوا على فصل العقل عن الحواس في إيجاد إيمانياتهم وتبريرها، أما الملحد فيرفض هذه الشعوذة، حتى أن فريق «الشارفاكا» يؤكد «**أن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود، وإذن فالروح وهم من الأوهام، والإله «أثمان» أبطولة الأباطيل**، إنا لا نصادف في تجاربنا ولا في تجارب السالفين، إذ نستبطن أنفسنا، أية علاقة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة، كل الظواهر طبيعية، ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج»[2].

«لا يوجد شيء سوى المُدْرَكْ، واللامُدْرَكْ غير موجود، لأنه لم يدرك أبداً، حتى المؤمنين بما لا يرى، لا يقولون أنه يُدرك أو يُرى.. **كيف يمكن للامدرك أن يوجد؟!**»[3]. و«حمقى هم الذين يتخيلون أن الروح هي شيء ما يخلق عن الجسد»[4]. وإذا ما ذكّرت الملحدين بحكمة «الفيدا» فإن الفيدا، برأيهم «تشوبها أخطاء ثلاث: البطلان، التناقض الذاتي، وتكرار الألفاظ»[5]. وإذا ما ذكرتهم بالآلهة، فسوف يقولون بهزء: «من يشتري أندرا مني الذي هو ملكي، بعشر بقرات حلوب»[6].

---

(١) ص٢٣١ ج٣ قصة الحضارة.

(٢) ص٥٦ ج٣ قصة الحضارة.

(٣) ص٣٠٨ الفكر الفلسفي الهندي.

(٤) ص٣٢١ نفسه.

(٥) ص٣٠٢ نفسه.

(٦) ص٦٨ نفسه.

أما الوجه الآخر من وجوه الإلحاد فهو الذي يقول ببدائل إيمانية، و«ماهافيرا» زعيم الجانتيون، رفض وجود الإله في ديانته، والغريب في الأمر اعتماده على وجود الأرواح، والأغرب أن الانتحار مسموح به للجانتي، أما إيذاء الحيوانات أو قتلها، فغير مسموح له بأي شكل من الأشكال، ومن جملة التعاليم التي يجب أن يلتزم بها المؤمن الورع تقول: «لا تزرع.. لأنك عندما تزرع تمزق التربة، وتسحق الديدان، لا تأكل العسل لأنه حياة النحل، عليك بتصفية الماء قبل شربه، حتى لا تقتل مما عسى أن يكون كامناً فيه من كائنات، محرَّم عليك أن تغلي الماء، مخافة قتل الحشرات التي لا تقع عليها العين، لا تقطع الأشجار أو تقم بأي عمل يتطلب استخدام المواقد، حتى لا تحرق الذباب والبعوض، عليك أن تغطي فمك بشبه كمامة، حتى لا تستنشق مع الهواء أحياء عالقة فتقتلها بتنفسك، عليك أن تكنس الأرض أمامك وأنت تمشي، خوفاً من أن تدوس بقدمك الحافية كائناً حياً فترديه، لا يجوز لك أن تأكل لحم الحيوان أو تذبحه أو تضحي به. إذا كنت جانتياً مخلصاً فعليك أن تقيم المستشفيات والمصحات للحيوانات التي هرمت أو أصابها أذى»(١).

«ولا تذهب إلى الحرب، ولا تقاتل من يهاجمك»(٢).

- بوذا والإلحاد:

والنوع الثالث للإلحاد في هذه البيئة يمثله «بوذا»، فقد دخل الشك إلى ذهن ابن الملك، ولم يكن إلحاده عابثاً هيناً يعتمد التعميم النظري السهل، لقد نظر في حكمة الهند، فوجد أنها لم تكن عند الإنسان كما يقول الكهنة إلا باتباع سبل القهر والحرمان، فقذف بأهوائه بعيداً، ودخل التجربة حتى الأعماق، بإرادة لا تعرف الكلل والتخاذل، وياله من نموذج يثير الإعجاب والإحترام، ولكم نتمنى ارتباط اللسان بالإرادة والتجربة على الدوام كما

---

(١) ص١٤٦- ١٤٧ قصة الديانات.

(٢) ص١٤٤ نفسه.

حدث لديه، فقد أعطى بـوذا الكلمـة حقهـا، عندمـا احـترم عقـائد الآخريـن، وعندما كانت أحكامه بعد التجربة أو الامتحان لا قبلـه، وهـا هـو يـروي لنـا تجربته تلك قائلاً: «قلت لنفسي: ماذا لو زممت الآن أسناني، وضغطت لساني إلى لهاتي، وألجمت عقلي، وسحقته وأحرقته - وهكذا فعلت - ونضح العرق من إبطي، ثم قلت لنفسي: ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شـعورية يقـف فيهـا التنفس، وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفي وفمي، ولما فعلت ذلـك سمعت صوتاً عميقاً للهواء يخرج من أذني.. وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم للإنسان رأسه بسن سيفه، فكذلك رجَّت الريـاح العنيفـة رأسـي.. ثـم قلت لنفسي ماذا لو قللت من طعامي، فـلا آكـل أكثر مما تتسـع راحـتي مـن عصير الفول أو العدس أو البسليِّ أو الحمص.. فضمر جسدي ضموراً شديداً، وكان من أثر تقليل الطعام، أن أصبحت العلامة الـتي أتركهـا علـى الأرض إذا ما جلست، في هيئة أثر الخف يتركه البعير على الرمال، وكـان مـن أثـر تقليـل الطعام، أن برزت عظام فقراتي إذا ما حنيتها، أو فردتها، حتـى أشـبهت صفـاً من رؤوس المنازل، وكـان مـن أثـر تقليـل الطعـام، أن أصبحـت عيـني تبرقـان عميقتين وطيئتين في محجريهما كمـا يـبرق المـاء عميقـاً وطيئاً في بئـر عميقـة، وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسي كما تتشقق وتذوى القرعة المرة المفصولة عن فرعها، وهي فجة بفعل الشمس والمطر، ولمـا كنـت أمـد يـدي لألمس جلدة بطني، كنـت أجدنـي في حقيقـة الأمـر أمسـك بفقـرات ظهـري، وكان من أثر تقليل الطعام، أني إذا ما أردت برازاً وجدتني أنبطح على الأرض سطيحاً، وكان من أثر تقليـل الطعـام إنـي إذا أردت راحـة لجسـمي وأخـذت أدلكه بكفي كانت الشعرات الذاوية تتساقط منـه، إنـي بمثـل هـذه القسـوة لا أراني أبلغ العلم والبصيرة»(١). ولن تكون الحكمة قابعـة وراء القهـر والجـوع، **فهزأ من الكهنة الذين نسبوا «الفيدا» و«الاوبانيشاد» إلى الآلهة قائلاً:** «أنـا المعلم الوحيد في هذا العالم، وليس لي شبيه، لا بين الرجال ولا بين الآلهـة»(٢).

---

(١) ص٦٩- ٧٠ ج٣ قصة الحضارة.

(٢) ص٩٧ حياة بوذا.

وهزأ أصحابه من الإله براهما عندما جعلوه يركع أمـام حكمـة المستنير، أمـام بوذا وهو يقول: «إيه أيها الحكيم إفتح لنا باب الأبدية، إيه أيها المنقذ، اطلعنـا على ما اكتشفته.. وأنت ترى بأني مكبٌّ على قدميك، أتوسـل إليـك، وكـل الآلهة تتوسل إليك معي»[1].

فلا مكان للآلهة عنـد بـوذا، ولا لـلأرواح و«أن الـروح – كمـا يقـول – أسطورة من الأساطير فرضناها بغير مبرر يؤيدها»[2].

وأخيراً رفض عبادة الآلهة، كمـا رفـض العزائـم والرقـي، وكـره الأصنـام، ومنع القرابين، وأنكر قانون الطبقات، ونسف الإنتماء الوراثي للبراهمة وقـال: **«لا يصبـح براهمـين بالطبقـة أو بشـكل الشـعر، مـن توجـد فيـه الحقيقـة والتقـوى يكـون براهمـين.. لا أسميـه براهمـين مـن ينحـدر مـن أم نبيلـة المولد»**[3]. فـ**«ليس المنبوذ منبوذاً بالولادة، وليس البرهمي برهمياً بـالولادة بل بالأعمال»**[4]. وأوصى أصحابه بأن «قولـوا للنـاس إن الفقـراء والمسـاكين والأغنياء والأعيان كلهـم سـواء»[5]. وبذلـك تخطـى الهندوسـية الـتي ارتبطـت بالأغراض، إلى ديانة تسعى لإيجاد الفعل الخلقي الشامل، وهو يقـول: «مبـارك كل من كانت فيه الحقيقة والاسـتقامة»[6]. وحقـاً فقـد «كـانت فكرتـه عـن الدين خلقية خالصة، فكان كل ما يعنيه سلوك الإنسـان، وأمـا المقـدس، وأمـا شعائر العبادة، وما وراء الطبيعة واللاهوت فكلها لا تستحق النظر»[7].

ولكن هل نجح بوذا في فصل الإيمان عـن الأخـلاق؟ ولنقـل أن «النيرفانـا» عنده هي سكون النفس التي لا تحتاج للآلهة والأرواح، ولنقل أن ربطه للولادة بالشر الذي يجب التخلص منه هو عدم الانجاب، إلا أن الأكيد أن البوذية بعده

---

(١) ص٩٤– ٩٥ نفسه.

(٢) ص٨٣ ج٣ قصة الحضارة.

(٣) ص٤١٢ الفكر الفلسفي الهندي.

(٤) ص٢٤٢ الفلسفات الهندية.

(٥) ص٨١ ج٣ قصة الحضارة.

(٦) ص١١٨ قصة الديانات.

(٧) ص٧٨ ج٣ قصة الحضارة.

لم تستطع تحقيق وصاياه التي منها: «لا يقتلن أحد كائناً حياً، لا يأخذن أحد ما لم يعطه، لا يقولن أحد كذباً، لا يشربن أحد مسكراً، لا يقيمن أحد على دنس»[١]، حتى أن الجماعة البوذية «ماهايانا، ومعناها البلاغ الأكبر.. أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين»[٢]. ومن ملامسة عقائد بوذا للتناسخ ذو العلاقة بالثواب والعقاب على السلوك، نرى أن الكثر «من البوذيين عادوا للثالوث البرهمي الشهير، برهمة وشيفا وفشنو، وضموا له أقنوماً رابعاً هو بوذا»[٣]. وهكذا فبعد «أن كان بوذا يعظ ضد الأصنام، أقام له أتباعه التماثيل في كل معبد، وجعلوا منه هو نفسه إلهاً معبوداً»[٤]. وبذلك كله عقلنوا الفعل الخلقي، وآثروا الإيمان مع الأخلاق، عن مجتمع لا أخلاق له وبصنيعهم هذا لم يفعلوا شيئاً، إلا إيجاد آراء «سبنسر» و«جيمس» و«كنط»، التي تقول بضرورى الإيمان لإيجاد الفعل الخلقي.

لقد هُزم «بوذا» أمام أعدائه الهندوس، عندما فصل الأخلاق عن العقل، وهل من عاقل يضحي بلا ثمن أو علة؟ أما إذا قلنا أن بوذا أخذ بالتناسخ والنيرفانا لإيجاد العلة، فإن فشله عندها هو في عدم استقامته مع آرائه، أو في أخلاقه التي نادى بها ولا شيء آخر.

- خاتمة:

وإذا ما أردنا أن نجمل ما سبق كله على أرض واحدة، بدءاً من البدائية نهاية بالهندوس، فسوف نرى أن مصدر الإيمان ارتبط بانزلاق تجربة العقل، التي خيمت عليها فكرة أوهام الحصول على العلم الشامل، وارتبطت ثانياً بالأغراض والأهواء، أو قل بكل ما تعنيه كلمة «الأنا»، ولا ينجو من ذلك، تبرير القيام بالفعل الخلقي، أو تحقيق القيم المرجوة، مادام ذلك من مهام الإيمان وأغراضه الرئيسية.

---

(١) ص٧٦- ٧٧ نفسه.

(٢) ص١٩٦- ١٩٧ نفسه.

(٣) ص٢٤٦- ٢٤٧ الفلسفات الهندية.

(٤) ص١٢٠ قصة الديانات.

أما الإلحاد الناتج عن طبيعة وجود الإيمان هذه، فلا بد كائن عن تطور العلم، أو لإيجاد الإدراك الصحيح، أو للدفاع عن قيمة الإنسان وكرامته، وفق معايير معلومة، ومنها «الأنا» التي ترتبط باللذة أو السيطرة والعداء، أو ربما لإيجاد المجتمع القوي والحفاظ على استمراره، ولكل من هؤلاء بالطبع، نظراته الخاصة حول ما يجب أن يعنيه العدل.

وإذا ما قلنا أن الاستقراء يؤدي إلى القانون، فإن ما قرأناه حتى الآن، يجب أن يؤدي بنا إلى ما هو أشبه بالقوانين، التي بإمكانها أن تقول: **بما أن صانع العقيدة هو الملحد الأول، نظراً لتطور إدراكه وأغراضه، لذا فإن ارتباط المنفعة أو المستفيد بالإيمان لابد يؤدي إلى الإلحاد، وبما أن الإيمان، وجد عن عجز تجريبي، فلابد أيضاً أن يكون الملحد، هو رجل العلم حتماً.**

وبما أن الإيمان ناتج عن «الأنا» أو الظلم، فإن الملحد لابد أن يكون عندها، هو نفسه رجل العدل والأخلاق. وعليه فإن القانون العام يجب أن يقول: إن الإلحاد قائم من أجل العلم أو العقل، وقائم من أجل بقاء المجتمع أو الأخلاق، وقائم من أجل قيمة الإنسان أو الفرد.

ولكن هل يحق للملحد ذلك التعميم بإطلاق؟.

***

الجزء الرابع

اليهود بين الإيمان والتحريف

- اليهود والعهد القديم:

من المعلوم أن هنالك إيمانيات، لا تنتمي برأي أصحابها على الأقل، إلى مصدر تجريبي، لا إلى علاقة الإنسان بالعالم، ولا إلى علاقته بالأهواء والأغراض، وإنما هي خبرية، عن إله لا ينتمي وجوده إلى ظواهر الطبيعة. ولنسلّم بصحة ذلك، ولننطلق للبحث عن الملحد الذي يود نسف ارتباط تلك الإيمانيات بالمصدر الإلهي، ليربطها بعد ذلك بموازين العلم والأخلاق، أو التجربة التي تتيح له الإلحاد. والكتاب المقدس، هذا الكتاب الذي اجتمع بين دفتيه اليهود والنصارى، هو موضوع بحثنا، فلليهود منه العهد القديم فقط، وللنصارى العهدين القديم والجديد، «ويراد بكلمة العهد في هاتين التسميتين، ما يرادف معنى الميثاق، أي أن كلتا الطائفتين من الأسفار، تمثل ميثاقاً أخذه الله على الناس، فأولاهما تمثل ميثاقاً قديماً يرجع إلى عصر موسى، والأخرى تمثل ميثاقاً جديداً بدأ بظهور عيسى»(١).

يقسم العهد القديم عادة، إلى أربعة أقسام: القسم الأول مكون من الأسفار الخمسة التي هي: التكوين، الخروج، اللاويون، التثنية، العدد، ويطلق عليه غالباً اسم التوراة، وهي التي كتبها موسى بيده كما يقولون.

القسم الثاني يسمى الأسفار التاريخية وهي: يشوع، القضاة، راعوث، صموئيل الأول والثاني، الملوك الأول والثاني، أخبار الأيام الأول والثاني، عزرا، نحميا، استير.

القسم الثالث يتميز بكون أسفاره أناشيد وهم: سفر أيوب، مزامير داوود، أمثال سليمان، الجامعة، نشيد الإنشاد.

القسم الرابع: أسفار الأنبياء: اشعيا، ارمياء، مراثي، ارمياء، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا، ملاخي.

وبذلك يكون عدد هذه الأسفار التي اعتمدوها، قد بلغ في نهاية الأمر تسعة وثلاثون سفراً.

---

(١) ص٣ الأسفار المقدسة.

- العهد القديم ودروب الإلحاد:

يعتقد المؤمنون أن كل حرف من الكتاب المقدس، ينتمي إلى وحي إلهي، لا إلى مصدر بشري على الإطلاق، وهو الرأي الذي يجب الإقرار به في البدء، لأنه رأي الذين آمنوا به أو بقداسته، أو رأي من يلزمهم ذلك الإيمان. وبذلك أصبح لدينا مسلمتان يتأبط بهما الملحد، أولاهما: القول بوجود إله خالق لكل العالم. والثانية القول بأن الكتاب المقدس، ينتمي إلى العصمة والعلم الصحيح. وإذا ماثبت لديه أن هنالك خطأ في هذا الكتاب، علمياً كان أو خلقياً، فإنه بذلك، يستطيع الربط بين الإيمان بوجود الله والتجربة التي لم تتجاوز الإنسان ليقول، أنه لا إله فوق العالم.

الأنبياء هم ذوي العلاقة مع الله، وهم الذين كتبوا ما أوحاه الله لهم، ومن هذا اليقين المفترض، يجب امتحان صلة تلك الأسفار بأصحابها، وهل موسى - مثلاً - هو كاتب التوراة التي بين أيدينا على الحقيقة؟ للإجابة على ذلك، نظر المحللون في هذا الأمر، وأعتمد الغلاة على منطق التشابه السهل فقالوا: «إن أسفار التوراة المقدسة، منقولة برمتها نسخاً ومسخاً، عن الآداب والشرائع المصرية والكنعانية والبابلية»[1]. وبذلك استنتجوا استحالة وجود موسى في التاريخ، ومن ثم عمموا قائلين: أن «أكثر الأسماء التي أطلقها كتاب الأسفار على أبطال قصصهم، هي في الأصل أسماء بعول أو «آلهة أسطورية كنعانية، عرف كل منهم، بإقامته في إحدى الأمكنة التي أقام اليهود فيها معابدهم فيما بعد.. فبعل حبرون كان يدعى بأبرام، كما أن بعل بئر السبع كان يدعى اسحاقاً، وبعل شكيم يعقوب»،[2]. أو أنها أسماء قبائل مندثرة فـ«روبيكا أو رفقة» - مثلاً - كانت قبيلة آرامية التحقت بقبيلة اسحاق العبرانية»[3]. وهكذا. ولكن التعميم الذي تصل إليه هذه الطريقة، أوسع كثيراً من استقراء الشبيه الذي تعتمد عليه.

---

(١) ص٢٠ وثيقة.

(٢) ص٢٥ المفسدون في الأرض.

(٣) ص٢٤ نفسه.

وهنالك منهج آخر، يعتمد على تحليل بنية العهد القديم، وذلك بالتعرف على أساليب الكتّاب، التي بالضرورة تختلف باختلاف الزمن والثقافة، وعلى هذا الأساس، يتم إدراجه ضمن التاريخ ومراحله، ضمن التجربة، وتوصل علماء هذه الطريقة، إلى «أن هذه الأسفار كتبت من قِبَلْ أربع فئات معينة، لكل منها مدرستها وعصرها، ولقد أطلق النقاد على كل منها تسمية خاصة تميزها عن سواها، فالفئة الأولى منها سميت باليهوائية، لاصطلاحها على تسمية الخالق بيهوى، وزعمها أنه كان يدعى كذلك منذ القدم، ويوافق ظهورها للقرن التاسع قبل الميلاد، وينسب إليها كتابة سير الآباء، ويرمز إليها بحرف «ل». والثانية هي المسماة بالألوهيمية، لزعمها أن الخالق كان يدعى قبل عهد موسى بألوهيم، وظهرت للوجود بعد زمن قصير من ظهور اليهويست، واختصت أيضاً بسير الآباء، ويرمز إليها بحرف «E». والفئة الثالثة هي الثنوية، نسبة لسفر التثنية الذي اختصت، بكتابته، ولها آثار ظاهرة في عمليات التصليح والتنقيح في الأسفار الأخرى، وساهم أفرادها في الاصلاحات، التي أدخلت على الديانة اليهودية في عهد يوشيا، وظهرت للوجود نحو عام ٦٢٢ قبل الميلاد، ويرمز إليها بحرف «D». والفئة الرابعة هي التي ظهرت في عهد المنفى، واختصت في كتابة الشرائع والقوانين، وسميت بمدرسة الكهنوت، ويرمز إليها بحرف «P»، وهي التي أوجدت ما يسمى بقوانين الكهنوت تحت إشراف النبي حزقيال»(١). وبعد توزيع الكتاب المقدس على تلك المدارس تم تحديد المدة الزمنية التي استغرقها تأليفه، فقالوا: إنها «ألفاً وثلاثمائة سنة، من حوالي عام ١٤٥٠ قبل الميلاد إلى ١٣٠ قبل الميلاد، أي من تاريخ الخروج التقديري، إلى تاريخ وضع سفر دانيال - كما قالوا: - أن هذا التأليف لم يستمر سوى ثلاثماية سنة، أي منذ تاريخ العودة من بابل عام ٤٤٠ قبل الميلاد إلى عهد دانيال، بينما جرى وضع أسفار الشريعة الخمس الأولى دفعة واحدة، بالإستناد إلى أصول الشريعة التي وضعت المحاولة الأولى لها في القرن الثامن قبل الميلاد»(٢). علماً أن «عصر موسى، يقع على الأرجح حوالي القرن الرابع

---

(١) ص١٦- ١٧ المفسدون في الأرض.

(٢) ص١٢- ١٣ التوراة تاريخها وغاياتها.

عشر، أو الثالث عشر قبل الميلاد»[١]. وبعد فصل الكتبة عن زمانهم قالوا: «إننا نجهل تماماً مؤلفي كثير من هذه الأسفار، أو نجهل الأشخاص الذين كتبوها»[٢]. بل «أن هؤلاء الذين نسبت لهم الأسفار أو أكثرهم، لم يكتبوها، أو لم يكتبوا حرفاً منها»[٣].

فموسى «لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة»[٤]. بل «إنها ليست من تأليف شخص واحد، وإنما هي وليدة عصور مختلفة»[٥]. واليهودية «فنك فاغنلر» تقول: إن «سفر الخروج ألفه الكتبة البابليون خلال النفي إلى بابل، ثم جمعت هذه النصوص كلها في النص الذي وصل إلى أيدينا حوالي سنة ٤٠٠ ق.م في مدرسة صفد»[٦]. وكذلك قيل أن «معظم سفري التكوين والخروج، قد ألفا حوالي القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية، قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفري العدد واللاويين، قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أي بعد النفي البابلي»[٧].

- الأنبياء يتهمون الكتبة بالتحريف:

الدروب التي سلكها الإلحاد في نقاش العهد القديم كثيرة، ولكن ما الذي يقوله العهد القديم نفسه؟ وما رأي الأنبياء في الأمر؟

لقد ورد في «اشعيا»، أن التمرد والكذب والأغراض كانت وراء تحريف التوراة. يقول: **«شعبي متمرد أولاد كذبة، أولاد لم يشاءوا أن يسمعوا شريعة الرب. الذين يقولون للرائين لا تروا، وللناظرين لا تنظروا لنا مستقيمات»**[٨].

---

(١) ص١٦ الأسفار المقدسة.
(٢) ص٢٥٥ رسالة في السياسة واللاهوت.
(٣) ص٢٥٩ اليهود.
(٤) ص٢٧١ رسالة في السياسة واللاهوت.
(٥) ص٣٧- ٣٨ الاسرائيليات.
(٦) ص٨٥ التوراة تاريخها وغاياتها.
(٧) ص١٦ الأسفار المقدسة.
(٨) اشعيا ٣٠ :٩ - ١٠.

وارميا أيضاً يوجه الإتهام مباشرة عندما قال: **«أما وحي الرب فلا تذكروه بعد، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه، إذ قد حرفتم كلام الإله الحي، رب الجنود إلهنا»**(١).

-ظنون وشكوك:

إن قصة الكاهن «حلقيا» تشير إلى أن توراة موسى كانت مفقودة أو ضائعة، لقد زعم حلقيا، وبالاستعانة بالنبية «بملة»، أنه عثر عليها زمن الملك «يوشيا» في المعبد «فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب»(٢) وكان «يوشيا ابن ثمان سنين حين ملك»(٣). إلا أن المعبد كما هو معروف، تعرض أكثر من مرة للسلب والنهب والتدمير، فهل يعني هذا أن الكاهن حلقيا قال ما قال بعد نهايته من كتابتها أو بعضها؟ لقد كان هذا رأي البعض. ولكن القصة لم تقف عند هذا الحد، بل امتدت إلى حفيده المشهور الكاتب «عزرا»، الذي نُعت بكاتب شريعة السماء صراحة «عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله اسرائيل»(٤) «عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلّم اسرائيل فريضة وقضاء. وهذه صورة الرسالة التي أعطاها الملك ارتحشتا لعزرا الكاهن الكاتب كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على اسرائيل. من ارتحشتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل»(٥). ومن ثم يقول الملك في رسالته: «حسب شريعة إلهك التي بيدك.. عزرا كاتب شريعة السماء»(٦).

ولذلك كله قال البعض الآخر، أن عزرا هو الكاتب الحقيقي للتوراة.

---

(١) ارمياء ٢٣ : ٣٦.

(٢) ملوك الثاني ٢٢ : ٨.

(٣) ملوك الثاني ٢٢ : ١.

(٤) عزرا ٧ : ٦.

(٥) عزرا ٧ : ١٠-١٢.

(٦) عزرا ٧ : ١٤، ٢١.

وهنالك رأي ينسب **الكتابة إلى «حزقيال»، لأنه** هو كاتب الدستور الذي ربط الشعب بالملك «شاول»، أو لأنهم وجدوان بعض الآيات، تشير إلى أنه أول من كتب.

ولكن هل التوراة التي كتبها موسى هي هذه التي بين أيدينا؟ تقول التوراة: أن موسى كاتبها **«وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي** حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم»(١) «وقال الرب لموسى إصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم»(٢). ولكن عهد الرب كان صغيراً ويكفي بعض النهار لقراءته، فقد ورد في سفر الخروج: «فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام فأجابه جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التي تكلم بها الرب تفعل. فكتب موسى جميع أقوال الرب وبكّر في الصباح وبنى مذبحاً في أسفل الجبل واثني عشر عموداً لأسباط اسرائيل الاثني عشر، وأرسل فتيان بني اسرائيل فاصعدوا مُحرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران، فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في الطسوس ونصف الدم رشّه على المذبح، **وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب** فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له»(٣).

وليس هذا كل ما كتب موسى «فهزم يشوع عماليقه وقومه بحد السيف، فقال الرب لموسى أكتب هذا تذكاراً في الكتاب»(٤). «لذلك يقال في **كتاب حروب الرب»**(٥). أما سفر شريعة الربْ فقد بقي حتى بعد موت موسى. ويشوع أضاف إليه «وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة الله»(٦). ولقد

(١) تثنية ٣١ : ٢٥ - ٢٦.. خروج ١٧، ١٤، عدد ٣٣ :٢.
(٢) خروج ٢٤ : ١٢، ٣١ : ١٨، ٣٢ : ١٥، ٣٤ : ٢٨ تثنية ١٠ :٤-٥، ٤ : ١٣.
(٣) خروج ٢٤ : ٣- ٧.
(٤) خروج ١٧ : ١٣- ١٤.
(٥) عدد ٢١ : ١٤.
(٦) يشوع ٢٤ : ٢٦.

كان قليلاً بمجموع ما كتبه موسى بالمقارنة مع التوراة التي بين أيدينا، فقد كتبها يشوع بعد موت موسى على اثني عشر حجراً فقط.[١]. ولو كان ما كتبه، هو ما نقرأه اليوم، لاحتاج الأمر إلى جدران مدينة بأكملها، ولهرب الأطفال وملَّها النساء والغريب «**وكتب هناك - يشوع - على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني اسرائيل.. وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة. لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يقرأها يشوع قدَّام كل جماعة اسرائيل والنساء والأطفال والغريب السائر في وسطهم**»[٢].

وبما أنه «لم يكن لدينا أي سفر يحتوي في الوقت نفسه على عهد موسى وعهد يشوع، فيجب أن نعترف ضرورة بأن هذا السفر قد فُقد»[٣]. فالحروب والحوادث كثيرة، فقد هُزم اليهود و«**أُخذ تابوت الله**»[٤]، عندما كانت الحرب مشتعلة بينهم وبين الفلسطينيين «**وكان تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر**»[٥]. «وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء»[٦].

وأما عن التوراة المفقودة، بالمقارنة مع توراة العودة من السبي البابلي، فذات فرق شاسع، فقد أصبحت هذه الأخيرة، تحتاج إلى أسبوع كامل من أجل قراءتها «**وكان يقرأ في سفر شريعة الله يوماً فيوماً من اليوم الأول إلى اليوم الأخير وعملوا عيداً سبعة أيام**»[٧].

---

(١) تثنية ٢٧ : ٢- ٨.

(٢) يشوع ٨ : ٣٤- ٣٥.

(٣) ص٢٧٢ رسالة في السياسة واللاهوت.

(٤) صموئيل الأول ٤ :١١.

(٥) صموئيل الأول ٦ :١.

(٦) الملوك الأول ١٤ : ٢٥- ٢٦.

(٧) نحميا ٨ : ١٨.

أما القرآن فيؤيد «ارمياء» الذي نعت الكتبة بالمحرفين، كما يؤيد الرأي القائل: أن التحريف أو الإضافة تم بعد السبي، لقوله عز وجل: ﴿**وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون، فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون**﴾(١).

ومعلوم أن السبي الجماعي الذي أصبحوا فيه أمماً خارج أراضيهم، حدث لدولة «اسرائيل»، ومن ثم لدولة «يهوذا»، وهو المعني بقوله: ﴿**وقطعناهم في الأرض أمماً**﴾ كما أن قوله ﴿**فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب.. ودرسوا ما فيه**﴾ يعني أن التحريف بدأ بعد السبي، والتوراة التي بين أيدينا تقول بعودة التابوت من الفلسطينيين إلى الكهنة تارة أخرى، وبصحبة حوادث لا تنسى(٢). ومن الممكن أن يكون متوارياً خلف حوادث الحروب التي جرت، وعندها يكون صادقاً حلقيا فيما زعمه، أو ربما أن عبارة «كاتب شريعة الرب» التي نعت بها حفيده عزرا، تعني «المفسر» أو «المعلم» أو «المبلغ» لشريعة الرب وإلى ما هنالك.

وبما أن الصراع كان عنيفاً بين الكهنة وسليمان، فربما من أجل ذلك لم يجد سليمان في التابوت عندما فتحه إلا اللوحين فقط.

وبعد ذلك كله بقي الدليل المادي الأكيد على ارتباط التحريف بالسبي، إنه الفرق الذي أصبح موجوداً ما بين التوراة التي قرأها يشوع، والتوراة التي أصبحت قراءتها تحتاج إلى أسبوع كامل، وهو ما يعترف به العهد القديم نفسه.

---

(١) الأعراف ١٦٨- ١٦٩.

(٢) صموئيل الثاني ٦ : ٦ -٧، صموئيل الأول ٦ : ١٩.

- قصة الخلق برهان على فكرة التحريف:

لقد مرّ معنا فيما قرأناه عن العقائد البدائية، أن قمة التطور في معنى الإلـه، هو اتساعه باتساع تجربة الإدراك، حتى أن التوحيد أو فكرة الإله الأعظم، عجزت عن تجاوز الإدراك الشيئي، فالخالق بقي من ضمن ظواهر الوجود، كما بقيت الظواهر الطبيعية تمثل المواد التي سيصنع منها العالم.

أما بالنسبة للكتاب المقدس فإنا نجد أن قوله «**في البدء خلق الله السموات والأرض**»(١). يختلف اختلافاً جذرياً، لأنه ليس من تجربة عقلية أدت أو تؤدي إلى إيجاد الخالق الذي يتجاوز وجوده وجود السموات والأرض، أو كل ما هو موجود، فليس هنالك وجود إلى «حوت» أو «نوت» و«بقرة» أو «بيضة كونية». فالخلق كلمة تقال، وقدرة على الإيجاد من العدم، والإله قادر على إيقاف الشمس ليشوع، وهذا ينفي مضمون التشابه بين قصيدة «اخناتون» والقصيدة الواردة في المزمور «١٠٤»، لأن التوحيد مختلف في معناه بينهما. بل إننا للمرة الأولى، نرى الدعوة حارة، إلى عدم التصاق الإله بالشكل، كالمنحوتات والمسبوكات وظواهر الطبيعة، وإن لم نستطع إعتماد معنى التحريف، فإننا عندئذ عاجزون عن إدراك الفجوة التي تفصل هذه الآية- آية الخلق- عن كثير من الآيات التي تربط الإله بتجربة الإدراك والأغراض اليهودية.

إن للعالم، كل العالم بداية، وهل ذلك خبر عن الخالق؟ طالما العقل لم يدرك البداية بعد، يقولون أن للخلق أياماً، أي مراحل، ففي اليوم الأول: «**كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه.** وقال الله ليكن نور. ورأى الله أن النور حسن وفصل الله بين النور والظلمة. **ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً** وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً»(٢).

---

(١) تكوين ١ : ١.

(٢) تكوين ١ : ٢- ٥.

إن القول بخلو الأرض من الحياة، ووجود الظلمة شيء صحيح، إلا «أن القول بوجود الماء في تلك المرحلة غلط»[١]. والعلم يقول: أن «الليل والنهار باعتبارهما عنصرين ليوم واحد غير معقولين إلا بوجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها»[٢]، وهذا لم يكن ممكناً، إذا راعينا ارتباط العلم وأيام الخلق، إلا في اليوم الرابع، فمن الخطأ القول بوجود الظلمة والنور على الأرض في اليوم الأول، لأنه لا وجود للشمس بعد. وأظن أن الكهنة قالوا بوجود الشمس في هذه المرحلة، ليفسروا بها معنى الأيام، والتغير حتماً لم يكن لديهم إلا بما هو مألوف في تجربتهم.

- أما في اليوم الثاني «**وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه.** فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً»[٣].

ولكن ألا يعني جعلهم السماء حاجزاً للماء، هو تفسيرهم لحدوث المطر الذي ربما يجهلون- أي الكهنة أو الكتبة- مصدر مائه، حتى ظنوا أنه ينزل من ماء موجود فوق السماء؟.

- أما في اليوم الثالث. «وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه بحاراً ورأى الله ذلك أنه حسن. **وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزرة فيه على الأرض وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه** ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً»[٤]. ولكنه من المقبول «علمياً أن القارات قد ظهرت في مرحلة من

---

(١) ص٤١ دراسة الكتب المقدسة.

(٢) ص٤١ نفسه.

(٣) تكوين ١ : ٦-٨.

(٤) تكوين ١ : ٩-١٢.

تاريخ الأرض، كانت هذه مغطاة بالماء، ولكن أن يكون هناك في تلك الفترة، عالم نباتي ينتظم جيداً بالتناسل، بالبذرة قبل ظهور الشمس، التي تظهر كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع، وأن ينتظم تعاقب النهار والليل، فذلك لا يمكن مطلقاً القول به»[١].

- اليوم الرابع: «وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك.. **فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض. ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة** ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً»[٢].

إلا أن «الأرض والقمر كما نعرف، قد نبعا من نجمهما الأصلي، أي الشمس، ووضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض، يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل عناصر النظام الشمسي»[٣].

- اليوم الخامس: «**وقال الله لتفضي المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء**. فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً أثمري واكثري وأملأي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً»[٤].

وفي اليوم السادس: «**وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها. وقال**

---

(١) ص٤٢ دراسة الكتب المقدسة.

(٢) تكوين ١ : ١٤-١٩.

(٣) ص٤٢- ٤٣ دراسة الكتب المقدسة.

(٤) تكوين ١ : ٢٠ -٢٣.

ا لله نعمل الإنسان عل[illegible] ـرتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات الـتي تـدب على الأرض. ورأى ا لله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً»[١]

وفي هذين اليومين إذن، وجدت الحيوانات المائيـة، ثـم الطيـور بعدهـا، ثـم الحيوانات البرية، و«هذا غـير مقبـول»[٢]. و«الخطـأ يكمـن، في وضـع ظهـور الحيوانات الأرضية، بعد ظهور الطيور»[٣].

ومن كل ما تقدم نلاحظ، أن مجمل الخطأ الذي يمكن استنتاجه من خـلال حوار «**موريس بوكاي**» للخلق، ينحصر في اختلاط تسلسل مضامين المراحـل أو الأيام، فلو قمنا مثلاً بتأخير وجـود الأرض، أو تقديـم وجـود الشـمس، أو وضعنا الطيور بعد الدبابات البرية، أو أجلنا وجود النـور والبـذور إلى مـا بعـد وجود الشمس، فإننا سنحصل حينئذ على الإستقامة التي تجمع بـين العلم والخبر، وإذا كانت هذه الفكرة صحيحة، فإنها ستكون مرجحاً آخر، لتعميم معنى وجود التحريف بالتوراة، وإذا كان التحريف يعني ارتباط تجربة الإنسان بالخبر، فإنـا نجد ذلك واضحاً في اليوم السابع، فبعـد أن قـالوا أن ا لله يفعـل بـ«كـن»، المؤديـة إلى نتيجة أكيدة «فكان»، قالت تجربة اليهود التي لم تستطع استيعاب معنى هذا الخبر: «**وفرغ ا لله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع مـن جميع عمله الذي عمل**»[٤]. وبذلك هبطوا بالإله إلى المشـابهة بالإنسـان بـالضبط كما كان الإله في العقائد القديمة كشبيه للإنسان.

لقد كتب موسى التوراة كمـا يزعمـون، وهـل يعنـون بهـا هـذه الـتي بـين أيدينا؟! وإذا كان كذلك، فإننا واجدون أن الحدث في صيغة المتكلـم لم يكـن يروق لموسى، **فكل حديثه جاء على صيغة الغائب**، واقرأ إن شئت أية صفحة

---

(١) تكوين ١ : ٢٤- ٢٦، ٣١.

(٢) ص٤٣ دراسة الكتب المقدسة.

(٣) ص٤٤ نفسه.

(٤) تكوين ٢ : ٢.

من الأسفار الخمسة، لا على التعيين، وها أنذا أفعل ذلك، فكان الخروج(١٩)، والآية الثالثة منه تقول: «**وأما موسى فصعد إلى السماء**» والآية السابعة تقول: «**فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب**» والآية العاشرة تقول: «**فقال الرب لموسى**». والآية الرابعة عشرة تقول: «**فانحدر موسى من الجبل**». وأما إذا أردت الانتقاء، فسوف تتعرّف عندها على العجيب الغريب، فموسى لا يتكلم بصيغة الغائب فحسب، بل سيصف أحداثاً برؤية العين، على الرغم من أنها لم تكن إلا بعد موته! فعن موته يقول: «**فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم**»[1]. وتعبير «إلى هذا اليوم»، ينفي نفياً قاطعاً ارتباط الحدث بالنبوءة، بل يؤكد أن الكاتب عاش بعد موسى بزمن طويل، وكذلك ورد في سفر التثنية أنه «**لم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه**»[2]. وهل تعني لفظة «بعد»، إلا المقارنة بين موسى ذي الخصائص الفريدة، مع غيره من الأنبياء الذين جاءوا بعده؟ والكاتب حتماً لم يقل ذلك إلا بعد موت موسى بالتأكيد، إن لم يكن بعد موت هؤلاء الأنبياء أيضاً.

في حال اعتماد فكرة التحريف، فإن المنطق الناتج عنها يقول: إذا ما وجد تناقض، فأحد طرفيه هو الصادق فقط، وإلا فإن الإتهام سيتجه إلى طبيعة الكاتب الذهنية، والتناقض في التوراة من الأمور الملموسة، والتجسس على الكنعانيين، ينسب تارة إلى أمر من الله كقولهم: «**ثم كلم الرب موسى قائلاً: ارسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان** التي أنا معطيها لبني اسرائيل»[3]. وتارة أخرى ينسب إلى إلحاح اليهود وإصرارهم كقوله: «**فتقدمتم إلي جميعكم وقلتم دعنا نرسل رجالاً قدامنا ليتجسسوا لنا الأرض**»[4].

---

(١) تثنية ٣٤ : ٥-٦.

(٢) تثنية ٣٤ : ١٠.

(٣) عدد ١٣ : ١-٢.

(٤) تثنية ١ : ٢٢.

ويوسف، تارة ينسب الأرض إلى العبرانيين، وتارة أخرى إلى الكنعانيين، فعندما كان في السجن يقول: «قد سُرقتُ من **أرض العبرانيين**»(١). وعندما جاء أهله إليه، وهو في مصر «قال يوسف لأخوته ولبيت أبيه أصعد وأخبر فرعون وأقول له أخوتي وبيت أبي الذي في **أرض كنعان** جاءوا إلي»(٢).

وعند تحديد ابن شيخوخة «اسرائيل» - يعقوب - تقول التوارة «وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه **لأنه ابن شيخوخته** فصنع له قميصاً ملوناً»(٣) أما إذا تتبعت النصوص، فسوف تجد **أن «بنيامين» هو إبن الشيخوخة، وليس يوسف.**

أما عن التناقض في الأحكام، فالأمثلة عليه كثيرة، يقول موسى: «**عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها**. عورة بنت إمرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها إنها أختك»(٤). أما إبراهيم فيقول إلى أبي مالك ملك جيرار عندما طمع هذا في زوجه: «**وبالحقيقة هي أختي إبنة أبي غير أنها ليست أبنة أمي فصارت لي زوجة**»(٥). وقصة «ثامار» مع أخيها، تدفع الاحتجاج بالزمن أو المنسوخ، فقد قالت لأخيها «أمنون»، بعد أن اجتمعا على الزنا: «**والآن كلّم الملك لأنه لا يمنعني منك**»(٦). والملك هو أبوهما.

وفي حكم تحرر اليهودي من عبودية اليهودي تقول التوراة: «**وإذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً**»(٧). أما النصوص الأخرى، فتحددها حتى خمسين سنة، تقول: «**يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك**»(٨).

---

(١) تكوين ٤٠ : ١٥.
(٢) تكوين ٤٦ : ٢١، ٤٧ : ١.
(٣) تكوين ٣٧ : ٣.
(٤) لاويون ١٨ : ٩، ١١.
(٥) تكوين ٢٠ : ١٢.
(٦) صموئيل الثاني ١٣ : ١٣.
(٧) خروج ٢:٢١ تثنية ١٥ : ١٢.
(٨) لاويون ٢٥ : ٤.

لقد غضب الرب زمان نوح على البشر «**فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة**»[١]. ولكن إذا حسبنا أعمار الذين ذكروا في سفر التكوين «١١ : ١٠- ٢٦» فسوف نجد ما يناقض هذا الحكم، فسام بن نوح عاش ٦٠٠ سنة، ارفكشاد بن سام عاش ٤٣٨، شالح بن ارفكشاد عاش ٤٣٣ سنة، عابر بن شالح عاش ٤٦٤ سنة، فالج بن عابر عاش ٢٣٩ سنة، رعو بن فالج عاش ٢٣٩ سنة، سروج بن رعو عاش ٢٣٠ سنة، ناحور بن سروج عاش ١٤٨ سنة، تارح بن ناحور عاش ٢٥٠ سنة.

إن التحريف الذي يعني تعدد الرواة، لابد أن يؤدي إلى التناقض مع الحقيقة، أو مع ما حدث، وهذا موجود بكثرة، والتوراة تقول: أن الملك طمع في جمال زوج إبراهيم التي خلبت لبه فأراد استخلاصها لنفسه، ولكن النصوص التي تنتمي فيما بعد للحدث تقول: «وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام وقد **انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء**»[٢] «**هي بنت تسعين سنة**»[٣].

لقد هاجر إبراهيم من «**أور الكلدانيين**»، نعم، و«الترجمة السبعينية- للتوراة- تقول: أن الهجرة حصلت عام ١٠١٧ بعد الطوفان، بينما تروي الترجمة العبرانية حدوثها عام ٣٦٧ بعد الطوفان»[٤].

تقول التوراة بنص صريح: أن عدد الذين هاجروا إلى مصر أيام يوسف سبعون رجلاً، إلا أنه على تحقيق «ابن حزم»، «هذا خطأ فاحش، لأن المجتمع من الأعداد المذكورة تسعة وستون، فإذا اسقطنا ولدي يوسف اللذان ولدا بمصر، بقي سبعة وستون»[٥].

---

(١) تكوين ٦ : ٣.
(٢) تكوين ١٨ : ١١.
(٣) تكوين ١٧: ١٧.
(٤) ص١٣ المفسدون في الأرض.
(٥) ص١٥٠ الفصل في الملل والأهواء والنحل.

بعد أن تآمرت «رفقة» و«يعقوب» على «عيسو»، **حصل يعقوب على** بركة أبيه، التي تحكم باستعباد يعقوب إلى عيسو، إلا أن الأحداث تقول العكس، فعندما أرسل يعقوب رسله إلى عيسو «**أمرهم قائلاً هكذا تقولون لسيدي عيسو هكذا قال عبدك يعقوب**»(1). وعند لقاؤهما سجد له أكثر من مرة «**وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه**»(2). **وكذلك سجد أولاده وأزواجه**(3). بل وقال له: «**رأيت وجهك كما يُرى وجه الله**»(4)، إلا أن يعقوب لم يكن ضعيفاً، فقبل أن يرسل الرسل إلى أخيه الذي سجد أمامه على الأرض، استطاع أن يصارع الله طوال الليل حتى غلبه، بل وأسره، ولكن هل للذي يغلب الله أن يُغلب أمام من هم أمثاله؟!.

وفي قصة الولد القربان أو الذبيح «إن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال هاأنذا. فقال **خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب إلى أرض المريا واصعده محرقة** على أحد الجبال الذي أقول لك»(5). إلا أن اسحق ليس ولده الوحيد فهنالك اسماعيل الذي قبله، ولكن بما أن اسماعيل ابن المصرية، جرده الكهنة أو الكتبة من شرف الإخلاص الذي وضعوه في اسحق، حفاظاً على ارتباط النسل بوعد الأرض، والآيات تقول: «ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء، وقال بذاتي أقسمت يقول الرب اني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك أبنك وحيدك. أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي»(6). وعلى كلٍ فسوف نمر فيما بعد على قضية النسل والوعد بالأرض، والمهم الآن أن إبراهيم ذهب بولده إلى المكان المحدد «**فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع**

---

(1) تكوين ٣٢ : ٤، ١٧ : ٢٠.

(2) تكوين ٣٣ : ٣.

(3) تكوين ٣٣ : ٦-٧.

(4) تكوين ٣٣ : ١٠.

(5) تكوين ٢١: ١-٢، ٢٢ : ١٢.

(6) تكوين ٢٢ : ١٥- ١٨.

يهوه يرآه حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يُرى»[1]. أو جبل الله، إلا أن الجبل لم يسمَّ بذلك الإسم على الحقيقة، إلا بعد بناء المعبد، أي بعد موت إبراهيم وموسى بزمن طويل.

ولدينا مثال آخر على تداخل، أو عدم انطباق مسميات الأمكنة بالأزمنة، تقول التوراة: «فلما سمع إبرام أن أخاه سبي جرَّ غلمانه المتمردين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان[2]. والحقيقة أن المدينة التي اسمها «دان»، لم تسمَّ بذلك الإسم، إلا بعد موت موسى ويشوع بمدة طويلة، وفي زمن القضاة كان أسمها حسبما يقولون «**لايش**»[3].

وعن تداخل الأزمنة بالأحداث تقول التوراة: أن موسى حدد طريقي البركة واللعنة، فإذا استقام بنو اسرائيل يقول موسى: «**يرد الرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك الرب إلهك ومن هناك يأخذك ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها**»[4]. ولكن «الأرض التي امتلكها الآباء» لم يكن ملكها إلا بعد موت موسى، الذي لم يدخل إلى الأرض قط، وهذا يعني أن الآيات كتبت من مشاعره بعد السبي، وما ربط العودة بموسى، إلا محاولة لتوحيد اليهود تحت رايته تارة أخرى، فكما كان لهم الخروج من مصر عندما كان حياً، يجب أن يحيا ليخرجهم من السبي.

إن قصة تحديد مدة أكل اليهود للمن مثل آخر لوتيرة التداخل، يقول موسى: أنها انقطعت في زمانه «وأكل بنو اسرائيل المن أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة **أكلوا المن حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان**»[5]. أي قبل أن يدخلوها، أما «يشوع» فيقول: انهم استمروا في أكلها حتى دخولهم أراضي الكنعانيين، عندها «**انقطع المن في الغد عند أكلهم من غلة الأرض**»[6].

---

(١) تكوين ٢٢ : ١٤.

(٢) تكوين ١٤ : ١٤.

(٣) قضاة ١٨ : ٢٩- ٣٠.

(٤) تثنية ٣٠ : ٣- ٥.

(٥) خروج ١٦ :٣٥.

(٦) يشوع ٥ :١٢.

- انتساب الخطأ إلى الله دليل على التحريف:

وإذا ما أخذنا بمنطق الإيمان فيجب القول عندها: أن الخطأ والله لا يجتمعان، فمن المحال أن يخطىء الله، ولا يجوز نعته بغير الكمال، أما إذا وجد الخطأ في الأخبار التي تنسب إليه، فإن الخبر لا ينتمي إليه حتماً، بل إلى مصدر بشري تجريبي، فالعقل يخطىء عندما يسمح لنفسه تعميم ما يظنه اليقين، والمحرّف يظن أن ما لديه من معارف هو قمة المعرفة، وتجربة اليهود العلمية التي انعكست على الكتبة، كانت تقول: أن نهر النيل، وجيحون، ودجلة، والفرات، كلهم من أصل واحد، إنه ذلك النهر الذي يخرج من جنة عدن التي طرد منها آدم، وهذه الجنة على الأرض، إنها «**في عدن شرقاً**»[١]. والتوراة تقول: «**وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيعبر أربعة رؤوس ، اسم الواحد فيشون** وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع. **واسم النهر الثاني جيحون** وهو المحيط بجميع أرض كوش، **واسم النهر الثالث حواقل** وهو الجاري شرقي آشور **والنهر الرابع الفرات**»[٢]. وهل من المعقول أن الله لا يعلم منابع هذه الأنهر؟!.

تقول الحفريات: أن الإنسان وجد على هذه الأرض منذ ملايين السنين، ولذلك " لا نستطيع علمياً، قبول نص سفر التكوين، الذي يعطي أنساباً وتواريخ تحدد أصل الإنسان «خلق آدم» بحوالي ٣٧ قرناً قبل المسيح»[٣].

الشمس تدور حول الأرض، انها مقولة ثابتة اليقين في بيئة الذين كتبوا التوراة، فقد أصبح انتصار يشوع قاب قوسين أو أدنى في حربه مع الملوك الخمسة، وعندما خشي مغيب الشمس قبل تحقيقه للنصر الحاسم، طلب من ربه ايقاف الشمس، «**فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تتعجل للغروب نحو يوم كامل**»[٤].

---

(١) تكوين ٢ :٨.

(٢) تكوين ٢ :١٠- ١٤.

(٣) ص١٢ دراسة الكتب المقدسة.

(٤) يشوع ١٠ :١٣.

إلا أنه من المؤكد، أن كاتب هذه الكلمات لم يكن يعلم أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، ولكن الله الخالق للشمس والأرض يعلم ذلك بالتأكيد، وحاشى الله أن يقول إلا الحق.

الكاهن هو رجل العلم، وبنو لاوي عيون الرب، إنهم الكهنة، فقد استحوذوا على المعرفة والإيمان، وما ينقصهم هو إرادة الله، والملك، «آسا» كما يقولون عمل الشر في عيني الرب، لأنه «**في مرضه لم يطلب الرب، بل الأطباء**»[١]. فللطب إذن طريقين: طريق يتصل بالرب، وطريق يتصل بالأطباء، والكهنة هم المعبر الذي لابد منه للوصول إلى الإيمان الصحيح، فإما كاهن أو طبيب!!

ومن علوم الكهنة التي نسبوها لله الشيء الكثير، فقد كان يعقوب يخدم عمه «لابان»، والد زوجتيه، فاشترط أن تكون أجرته كما أوصى إليه الرب، كل شاة - رقطاء وبلقاء، وكل شاة سوداء بين الخرفان، وبلقاء ورقطاء بين المعز»[٢]. وأوحى إليه الرب بالعلم الذي سيجعل الغنم والماعز يلد ما أراده له. «فأخذ يعقوب لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب وقشرٌ فيها خطوطاً بيضاً كاشطاً عن البياض الذي على القضبان وأوقف القضبان التي قشَّرها في الأجران في مساقي الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب. **فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاء وبلقاء**»[٣]. «**وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم في الأجران لتتوحم بين القضبان، وحين استضعف الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب**»[٤]. وأي أخلاق هذه؟! وأي علم عظيم هذا الذي يتحكّم بالنسل بواسطة «الوحام»، وهل من مهام الله تعليم الغش والخطأ لبني الإنسان؟!.

---

(١) الأيام الثاني ١٦ :١٢.

(٢) تكوين ٣١ :٩- ١٢.

(٣) تكوين ٣٠ : ٣٧- ٣٩.

(٤) تكوين ٣٠ : ٤١- ٤٢.

إن التناقض والخطأ واللاأخلاق أو قل إرادة التحريف ممتدة على طول الأسفار وعرضها، ورغبة في اختصار الطريق إلى ما نريده في هذا الكتاب، فسوف أكتفي بسرد ما توصل إليه «اسبينوزا» من أحكام.

يقول عن سفر يشوع: «إن هذا السفر قد كتب بعد يشوع بقرون عديدة»[1].

وعن سفر القضاة يقول: «فلا أظن أن شخصاً سليم العقل، يعتقد أن القضاة أنفسهم قد كتبوه»[2].

وعن سفر صموئيل يقول: «إن هذا السفر لابد أنه قد كتب بعد صموئيل بقرون عديدة»[3].

وعن أسفار الملوك يقول: «فقد تم اقتباسها، كما هو ثابت في هذه الأسفار ذاتها، من كتب حكومة سليمان»[4].

وعن أسفار الأخبار يقول: «كتبت بعد إعادة بناء المعبد بمدة طويلة، وأنا لا أعلم شيئاً يقينياً عن مؤلفيها الحقيقيين»[5].

وعن المزامير يقول: لقد «جمعت.. بعد إعادة بناء المعبد.. وأعتقد أن أمثال سليمان، قد جمعت في نفس العصر، أو على الأقل في زمان الملك يوشيا»[6].

كما يقول عن سفر إشعيا أنه ليس إلا «شذرات من الأنبياء»[7].

وعن سفر ارمياء يقول: «خليطاً من الفقرات المأخوذة من كتب الأخبار المختلفة»[8].

وعن سفر حزقيال يرى أن «هناك جزءاً ناقصاً»[9].

---

(١) ص٢٧٥ رسالة في السياسة واللاهوت.
(٢) ص٢٧٥ نفسه.
(٣) ص٢٧٥ نفسه.
(٤) ص ٢٧٥- ٢٧٦ نفسه.
(٥) ص٣٠٩ نفسه.
(٦) ص٣٠٩ نفسه.
(٧) ص٣١٠ نفسه.
(٨) ص٣١١ نفسه.
(٩) ص٣١٤ نفسه.

«أما سفر هوشع -يقول- فإننا لا نستطيع أن نقول عن ثقة، أنه كان أطول مما هو عليه الآن، في السفر الذي يحمل اسمه، ولكني أعجب حقاً، من أننا لا نعرف شيئاً أكثر من هذا، عن رجل استمرت نبوته أكثر من أربع وثمانين سنة»[1].

وعن سفر يونان أو يونس يقول: «فلا يذكر عن يونس إلا نبواته عن النيناويين، مع أنه كان أيضاً نبياً للاسرائيليين»[2].

وعن سفر أيوب يقول: «لا يبدو موضوعه وأسلوبه، صادرين عن شقي أنهكه المرض وغطاه التراب، بل عن رجل متفرغ، لا عمل له إلا التأمل.. وربما كنت أميل إلى الاعتقاد مع ابن عزرا، بأن هذا الكتاب مترجم عن لغة أخرى»[3].

أما سفري عزرا ودانيال كما يقول: «كاتبهما واحد»(ص٣١٦ نفسه).

ويقول عن سفر أستير: «ولا أتردد في ربط سفر استير بسفر عزرا هذا.. ولا ينبغي أن نعتقد أن سفر أستير هذا، هو نفس الكتاب الذي دونه مردخاي»[4] «وإذن فنحن - كما يقول- نؤكد أن هذه الأسفار الأربعة، دانيال، وعزرا، واستير، ونحميا، قد كتبها مؤرخ واحد، أما من يكون هذا المؤرخ، فإني لا أستطيع حتى مجرد التخمين به»[5].

- الكهنة والتحريف:

وإذا ما نظرنا فيما مضى كله، فسوف نجد أن المسلمات التي انطلق منها الإلحاد، بقيت مسلمات لا مبرر لها، فالخطأ في العلم لا ينتمي إلى الله العليم، والأسفار لا تنتمي كتابتها إلى من نسبت إليهم، وحتى أن فكرة التحريف، لا تستطيع أن تدفع الملحد، نحو فرز ما كان مما هو موجود، لأنه لا معايير هناك

---

(١) ص٣١٤ نفسه.

(٢) ص٣١٥ نفسه.

(٣) ص٣١٦ نفسه.

(٤) ص٣١٧ نفسه.

(٥) ص٣١٨ نفسه.

على الحقيقة، ليستطيع أن يهتدي بهديها، وكل ما في الأمر، أنه ربما يدرك بعض الاختلاف، الذي يميز العهد القديم، عن سواه من العقائد التي سبقته.

لقد قلنا أن للتحريف عوامل كثيرة أدت إلى وجوده، وأولها السقوط في أوهام العلم الشامل، فإذا ما أراد واحد من أصحاب هذا المنهج، تفسير آية من الآيات التي اشكلت عليه، فإنه يرغمها للانصياع نحو ما يعرف، أو ربما يحرفها لتلائم ما يظنه اليقين الشامل، الذي ما بعده يقين، وعندها قد يربح مرحلة من الزمن، ولكنه سيخسر المستقبل كله، وسوف يخسر العقيدة نفسها بالتأكيد، لأنها ستمسي عاجزة عن مسايرة تجربة الإدراك، التي تتسع يوماً بعد يوم، ولكم نتمنى لو بقيت التوراة كما هي، دون ترميم من تجربة إدراك قصيري النظر، أولئك الذين ظنوا أنهم يحسنون صنعاً، ولو بقي التفسير شيئاً والنص شيئاً آخر، لهان الأمر وخفَّ الإشكال.

وليس التفسير الذي يمحو الجهل هو الوحيد الذي يزهق العقائد، بل أن الأغراض والأهواء هي الأهم، ولسان أصحابها يقول دائماً: وليكن النص ناطقاً بما نريد! والقرآن يوجه الاتهام نحو الكهنة، إلى أغراضهم، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿**وإذا أخذ الله ميثاق الذي أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون**﴾(1) ﴿**بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً**﴾(2) ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل هم مما كتبت أيديهم وويل هم مما يكسبون**﴾(3).

وهل تقع مسؤولية حفظ العقيدة، أو ما لديها من تراث شفهي أو مكتوب، إلا على الكهنة، وهل من أحد غيرهم يتاجر بالإيمان؟

من المعلوم أن الشعب اليهودي مكوَّن من اثني عشر سبطاً، وسبط «لاوي» واحداً منهم، «**أفرز الرب سبط لاوي ليحملوا تابوت عبد الرب**

(١) آل عمران ١٨٧.

(٢) البقرة ٩٠.

(٣) البقرة ٧٩.

ولكي يقفوا أمام الرب ليخدموه ويباركوا باسمه إلى هذا اليوم»[١]. فهم وكلاء الله على الأرض، اختصهم لخدمة بيته إلى الأبد[٢] وعلى كل الشعب أن يطيعهم «**والرجل الذي يعمل بطغيان فلا يسمع للكاهن** الواقف هناك ليخدم الرب إلهك أو للقاضي **يقتل ذلك الرجل** فتنزع الشر من اسرائيل. فيسمع جميع الشعب ويخافون ولا يطغون بعد»[٣].

لقد تميز الكهنة عن غيرهم بكثير من المميزات الخاصة، فهم لا علاقة لهم بالحرب، **لأنهم مأمورون بألا «يجرحوا جراحة في أجسادهم»**[٤] أما الغنائم فلهم حصة الأسد، لأنه لا نصر لليهود إن لم يكن وراءه بنو لاوي، أو إن لم يحز الجيش على رضاهم، كما يمنع على أي كان حتى الملك نفسه، أن يقوم بتعدادهم «**إذ كلم الرب موسى قائلاً: أما سبط لاوي فلا تحبسه ولا تعده بين بني اسرائيل»**[٥].

الكاهن فوق الحلال والحرام، ولقد خاطبه الرب قائلاً: «**كل محرم في اسرائيل يكون لك»**[٦]. وليس في هذا استثناء، إنه يشمل كل شيء، ابتداء من الزنا نهاية بعبادة الأصنام. أما مناسبة هذا الحكم فلها قصة، فالكهنة الأواخر اشتغلوا كهنة للأصنام وعبدوها، وعندما أرادوا تبرير ذلك قالوا: ان هارون أول الكهنة، هو الذي صنع العجل صنماً لبني اسرائيل حتى يعبدوه، ورغم ذلك لم يعاقب بالقتل، كما عوقب غيره، بل بالعكس، فقد رضي الله عنه، وأباح له كل محظور ومحرم، فليس لأحد إذن أن يحاسب الكاهن، مهما يكن الفعل الذي يقوم به، حتى وإن عبد الأصنام، سيبقى كاهناً، ولن تسقط الكهانة عن اللاويين، إنه القدر الذي لا مفر منه، وعندما أخطأ أبناء «عالي» الكاهن قال له الرب: «**ورجل لك لا أقطعه من أمام مذبحي** يكون لإكلال عينيك وتذويب نفسك»[٧].

---

(١) تثنية ١٠ :٨.
(٢) خروج ٢٨ :٤٣.
(٣) تثنية ١٧ : ١٢- ١٣.
(٤) لاويون ٢١ :٥.
(٥) عدد ١ :٤٨- ٤٩.
(٦) عدد ١٨ :١٤.
(٧) صموئيل ٢ :٣٣.

للكهنة ثياب خاصة، مميزة الفخامة، واقرأ إن شئت في سفر الخروج الاصحاح ٢٨ من الآية الرابعة حتى الأخير.

أما دهن المسحة الخاص بهم، فكل من يركب مثله أو يستعمله، جزاءه القتل[(١)] كما يقتل كل من يستعمل عطورهم، أو كل من يركّب مثله،[(٢)] وطعامهم ممنوع عن الآخرين، وغير ذلك الشيء الكثير الكثير.

أما عن الزواج، ومَنْ مِنَ النساء تصلح للكاهن؟ فالكاهن «هذا يأخذ امرأة عذراء. **أما الأرملة والمطلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ، بل يتخذ عذراء من قومه امرأة**»[(٣)].

ولو تفحصنا فيما تعنيه هذه النبذة البسيطة من مميزاتهم، لوجدنا أنهم ينشدون كل الدروب التي تؤدي إلى قوة هذا السبط، فمن أجل السيطرة على الدين والحكم، قالوا بمنع تعدادهم، لتبقى قوة سيوفهم من الأسرار التي تقبع تحت جناح الظلام، والأمثلة كثيرة، فقد قاتلوا مع داوود، عندما استعان بهم في حربه مع شاؤول. ومن أجل أن يحافظوا على قوة ذراعهم مهيأة في كل فرصة، قالوا بأن سيوف الكهنة لا علاقة لها بالحرب. ومن أجل ألا يختلط بنو لاوي بغيرهم، ومن أجل أن يصبحوا قوة واحدة يربط الدم بينها، قالوا بمنع الزواج من بقية الأسباط. ومن أجل أن يضمنوا استمرار قبضتهم على قوة الدين، قالوا أن الكهانة لن تسقط عنهم مهما فعلوا من منكرات. وبذلك كله، حافظوا على استمرار قبضتهم القوية.

- التحريف من أجل الموارد:

الإيمان وموارد الكهنة: لقد رأينا كيف كانت «الفيدا» ثروة ورزق لكهنة الهندوس، وها هي التوراة أيضاً تقول للكاهن: «**بل أذكر الرب إلهك أنه هو الذي يعطيك قوة لاصطناع الثروة** لكي يفي بعهده الذي أقسم لآبائك»[(٤)]

---

(١) خروج ٣٠ :٣٣.

(٢) خروج ٣٠ :٣٨.

(٣) لاويون ٢١ :١٣- ١٤.

(٤) تثنية ٨ :١٨.

واصطنع الكهنة الدروب لتحصيل الثروة في كل حدب وصوب، على طول العقيدة وعرضها، وأصبحت مواردهم ترافق كل لحظة من لحظات الزمن، وتحول الشعب إلى بقرة وضعت ضرعها في أفواه الكهنة، الذين لا يعرفون الرحمة ولا الكلل.

لقد أصبحت مواردهم كثيرة، وحتماً تزداد بازدياد أعدادهم، وأولها الموارد اليومية: «**وهذا ما تقدمه على المذبح خروفان حوليان كل يوم دائماً**»[١]. «**أوصي بني اسرائيل أن يقدموا إليك زيت ز يتون مرضوضاً نقياً للضوء لإيقاد السرج دائماً.. فريضة دهرية في أجيالكم**»[٢]. وإذا أردت التفصيل في قصة هذه الذبائح، فارجع إلى «عدد ٢٨ : ٣-٨).

- الموارد الأسبوعية: لقد شدَّد الكهنة كثيراً على السبت، وحكموا بالموت على كل من يخرق التعاليم والشعائر التي تتعلق به[٣]. «**وفي يوم السبت خروفان حوليان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت تقدمه سكيبة**»[٤]. بل «وتأخذ دقيقاً وتخبزه اثنى عشر قرصاً عُشرين يكون القرص الواحد. وتجعلها كل صف ستة على المائدة الطاهرة أمام الرب. وتجعل على كل صف لباناً نقياً فيكون للخبز تذكاراً وقود للرب. **في كل يوم سبت يرتبه أمام الرب دائماً من عند بني إسرائيل ميثاقاً دهرياً. فيكون لهرون وبنيه فيأكلونه** في مكان مقدس لأنه قدس أقداس له من وقائد الرب **فريضة دهرية**»[٥]. أما التذكار فليس سوى ملء الكف، يحرق للرب، والباقي للكهنة أبناء هارون.

- الموارد الشهرية: «**وفي رؤوس شهوركم تقربون محرقة للرب ثورين ايني بقر وكبشاً واحداً وسبعة خراف حولية صحيحة**»[٦] «**وتيساً واحداً من المعز**

---

(١) خروج ٢٩ :٣٨.

(٢) لاويون ٢٤ : ٢-٣.

(٣) خروج ٣١ : ١٤، ٣٥ :٣.

(٤) عدد ٢٨ :٩.

(٥) لاويون ٢٤ :٥- ٩.

(٦) عدد ٢٨ :١١.

ذبيحة خطية للرب»[1]. وعلى الشعب معرفة أن ما يقدَّم في الشهر، لا يُسقط ما يُقدَّم في الأسبوع، وما يُقدَّم في الأسبوع، لا يُسقط ما يُقدَّم كل يوم.

– موارد الأعياد:

١– عيد الفصح: وهو سبعة أيام، ولكل يوم «تقربون وقوداً محرقة للرب **ثورين ابني بقر وكبشاً واحداً وسبعة خراف حولية**»[2]. «**وتيساً واحداً** ذبيحة خطية للتكفير عنكم»[3]. كل ذلك مع المونة. أما «**من كان طاهراً وليس في سفر وترك عمل الفصح تقطع تلك النفس** من شعبها لأنها لم تقرِّب قربان الرب في وقته ذلك الإنسان يحمل خطيته»[4].

٢– يوم الباكورة: **ثورين وكبش وسبعة خراف مع تيس والمونة**»[5].

٣– عيد هتاف البوق: **ثور وكبش وسبعة خراف وتيس والمونة**[6].

٤– عيد المظال: وهو سبعة أيام، ويوماً آخر للمحفل. وفي اليوم الأول «**ثلاثة عشر ثوراً أبناء بقر وكبشين وأربعة عشر خروفاً حولياً صحيحة تكون لكم. وتقدمتهن**»[7]. «وتيساً واحداً من المعز ذبيحة خطية»[8]، وبالإجمال فإن مجموع تكلفة هذا العيد، هي ٧١ ثور، و١٥ كبش، و١٠٥ خروف، و٧ تيوس، عدا التقدمة والسكائب، وللايضاح ودفعاً للإلتباس تقول التوراة: «هذه هي مواسم الرب التي فيها تنادون محافل مقدسة لتقريب وقود للرب محرقة وتقدمة وذبيحة وسكيباً **أمر اليوم بيومه. عدا سبوت الرب وعدا عطاياكم وجميع نذوركم وجميع نوافلكم التي تعطونها للرب**»[9].

---

(١) عدد ٢٨ :١٥.
(٢) عدد ٢٨ :١٩.
(٣) عدد ٢٨ :٢٣.
(٤) عدد ٩ :١٣.
(٥) عدد ٢٨ :٢٧، ٣٠.
(٦) عدد ٢٩ :٢، ٥، ٦.
(٧) عدد ٢٩ :٣- ١٤.
(٨) عدد ٢٩ :١٦.
(٩) لاويون ٢٣ :٣٧- ٣٨.

- **النذور والموارد:** زلة اللسان توجب النذر، فلا مزاح مع الكهنة و«إذا نذر رجل نذراً أو أقسم قسماً أن يلزم نفسه بلازم **فلا ينقض كلامه حسب كل ما خرج من فمه يفعل**»(١). ولو نذر قتل ولده أو أبيه، ومن أجل ذلك حاكوا قصة «**يفتاح الجلعادي**»، «فكان روح الرب على يفتاح - أي أن زلة اللسان وحي من الله - ونذر يفتاح نذراً للرب قائلاً: إن دفعت بني عمون ليدي. فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون يكون للرب وأصعده محرقة. ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته وإذا بابنته خارجة للقائه. **ففعل بها نذره الذي نذر** وهي لم تعرف رجلاً فصارت عادة في اسرائيل. أن بنات اسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادي أربعة أيام في السنة»(٢). إلا أن الكاهن رحيم، فـ«إذا أفرز إنسان نذراً حسب تقويمك نفوساً للرب. فإن كان تقويمك لذكر من ابن عشرين سنة إلى ابن ستين سنة يكون تقويمك خمسين شاقل فضة على شاقل القدس وإذا كان انثى يكون في تقويمك ثلاثين شاقلاً»(٣). على سبيل التخفيف والتيسير، وإذا لم يوجد ذلك الذهب عند الناذر، فأي شيء عندها مقبول، والمهم أن يبقى النذر رافداً لمواردهم، فـ«**على قدر ما تنال يد الناذر يقومه الكاهن**»(٤). ومن الجدير بالملاحظة، هنا أن الكاهن قد ملَّ الذبائح على ما يبدو، حتى أصبح يهتف للذهب.

- **القرابين والموارد:** القرابين كثيرة منها:

١- قربان ذبيحة السلامة: فإذا كان القربان من البقر «**يقرب من ذبيحة السلامة وقوداً للرب الشحم** الذي يغشي الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء. والكليتين والشحم الذي عليها على الخاصرتين«(٥). فالرب لا يأكل

---

(١) عدد ٣٠ :٢.

(٢) قضاة ١١ :٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤٠.

(٣) لاويون ٢٧ : ٢-٤.

(٤) لاويون ٢٧ : ٨.

(٥) لاويون ٣ :٤٣، ٧ :٣٠- ٣٤.

إلا الشحم، فالشحم هو «**طعام وقود للرب**»[١]. وراجع إن شئت «**لاويون** ٣ :٩- ١٠» للتعرف على قصة الشحم و«لاويون ٧ :١٥- ١٦» **لتتعرف** إلى الذي يأكله الكهنة. أما من يذبح قربان السلامة بعيداً عن أعين الكهنة، فإنه كقاتل النفس، يجب أن يقتل[٢].

٢- قربان تقدمة الرب: يتألف هذا القربان من الدقيق والزيت والبان، **أما** ما يقدم للرب فهو ملء قبضة اليد، بقبضة الكاهن السخي **الأمين، أي تذكاراً** فقط «**والباقي من التقدمة هو لهرون وبنيه**»[٣]. أما العسل فإن الرب **لا يحبه** «**وكل عسل لا توقدوا منهما وقوداً للرب**»[٤]. وإذا ما كان الملح عبئاً على الكهنة، فإنهم يقولون: «**عهد إلهك على جميع قرابينك تقرب ملحاً**»[٥]. **أما** من يظن أن توفر الطعام الكثير عند الكهنة، يبيح للآخرين أن يأكلوا منه، **هو** مخطىء لابد من عقابه، «**وكل أجنبي** - أي ليس لاوياً - **لا يأكل قدساً**.. وإذا أكل إنسان قدساً سهواً يزيد على خمسه ويدفع القدس للكاهن»[٦].

٣- قربان الإثم: **الكاهن يغفر الذنوب ويمحو الآثام**[٧] وله من القرابين اللحم، ولله الشحم «كل ذكر من الكهنة يأكل منها.. **الكاهن الذي يكفّر بها تكون له**: والكاهن الذي يقرب محرقة إنسان فجلد المحرقة التي يقربها يكون له. وكل تقدمة خبزت في التنور وكل ما عمل في طاجن أو على صاج يكون للكاهن الذي يقربه. وكل تقدمة ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بني هرون كل إنسان كأخيه»[٨]. وعندما أصبحت حيوانات القرابين، تزيد على حاجتهم للطعام، أصبح التشديد على سلامتها عظيماً، وإذا أردت تعلم

---

(١) لاويون٣ :١١.

(٢) لاويون ١٧ :٣- ٥، ٨-٩.

(٣) لاويون ٢ :٣.

(٤) لاويون ٢ :١١.

(٥) لاويون ٢ :١٣.

(٦) لاويون ٢٢ :١٠، ١٤.

(٧) لاويون ١١ :٤، ٤ :٢٠.

(٨) لاويون ٧ :٦- ١٠.

التجارة في الحيوانات فما عليك إلا مراجعة(لاويون ٢٢ :٢٠- ٢٤). للتعرف على الطرق الدقيقة التي تنفعك في فحص عيوبها، فقد أصبحوا لا يقبلون من القرابين إلا السليمة من كل عيب، لقد أرادوها حية، **فأمروا بإرسالها إلى الصحراء**»(لاويون ١٦ : ٧- ١٠، ٢١ -٢٢). وحتماً يرسلون من يأتي بها سراً من هناك. أما إذا قدم أحدهم قرباناً من حيوانات محرَّمة، أو غير منصوص عليها، «فيقومها الكاهن جيدة أم رديئة فحسب تقويمك ياكاهن هكذا يكون. فإن فكّها يزيد خمسها على تقويمك»[١]. «**وأما فضة ذبيحة الإثم وفضة ذبيحة الخطية فلم تدخل إلى بيت الرب بل كانت للكهنة**»[٢]. أما قربان إثم الجماعة، وقربان إثم الكاهن، فلا يؤكل بل يحرق[٣]. وإنه لكرم عظيم يقدمونه للإله! ولكن هيهات للكاهن أن يخطىء، أو يقع في ذنب!!

قد يبدو للوهلة الأولى أن قرابين الإثم والتكفير ليست بالمورد الكبير، أما إذا نظرنا إلى الأخطاء التي حددها الكهنة، فسوف نعجب بعيون الكهنة الواسعة التي شملت كل شيء، ولنستمع إلى هذا النص الذي يقولون فيه: «وإذا أخطأ أحد وسمع صوت حلف وهو شاهد يبصر أو يعرف فإن لم يخبر به حمل ذنبه، أو إذا مسَّ أحد شيئاً نجساً جثة وحش نجس أو جثة بهيمة نجسة أو جثة دبيب نجس وأخفي عنه فهو نجس ومذنب. أو إذا مسَّ نجاسة إنسان من جميع نجاساته التي يتنجس بها وأخفي عنه ثم علم فهو مذنب. أو إذا حلف أحد مفترطاً بشفتيه للإساءة أو للإحسان من جميع ما يفترط به الإنسان في اليمين وأخفي عنه ثم علم فهو مذنب في شيء من ذلك. فإن كان مذنب في شيء من هذه يقرّ بما قد أخطأ به. ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيته التي أخطأ بها انثى من الأغنام نعجة أو عنزاً من المعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيته. وإن لم تنل يده كفاية لشاة فيأتي بذبيحة لإثمه الذي أخطأ به يمامتين أو فرخي حمام»[٤].

---

(١) لاويون ٢٧ :١٢- ١٣.

(٢) ملوك الثاني ١٢ :١٦.

(٣) لاويون ٦ :٢٣، ٤ :١١- ١٢.

(٤) لاويون ٥ :١- ٧.

«وإن لم تنل يده يمامتين أو فرخي حمام فيأتي بقربانه عما أخطأ به عُشر الأيفة من دقيق قربان خطية لا يضع عليه زيتاً ولا يجعل عليه لباناً لأنـه قربـان خطية يأتي به إلى الكاهن»[1]. فالمهم ألا يأتي المخطىء خالي اليدين، والأهم أن يقـع الناس في الأخطاء.

طمث النساء نجاسة[2] يحتاج إلى التطهير، وكل ما تلمسه المـرأة يتنجـس، «وإذا طهرت من سيلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهـر. وفي اليـوم الثـامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخـي حمـام وتـأتي بهـا إلى الكـاهن إلى بـاب خيمـة الاجتماع.. **ويكفـر عنهـا الكـاهن أمـام الـرب مـن سـيل نجاستها**»[3]. أمـا «**صموئيل**» فقد شك في أخلاق الكاهن، فقال: أن الكهنة «**كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الإجتماع**»[4].

الولادة تحتاج إلى التطهير، والتطهير يحتاج إلى خروف وفرخ حمام أو يمامة، وإن لم يكن بالإمكان فيمامتين أو فرخـي حمـام على الأقـل، ومـن الضـروري أن تـأتي المرأة بنفسها إلى الكهنة، ومن أجل مراسم هذا التطهير راجع(لاويون ١٢ :٦- ٨).

الميت يؤدي إلى النجاسة، والتطهير ضروري، فـ«**إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيام، وكـل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس**»[5].

الزنا نجس، وللكاهن أسلوبه في معرفة الزانية، وكل شيء له ثمن، فقد صنع ما يسمى شراب الإعتراف، وإنه لشراب سحري، بإمكانـه أن يـؤدي إلى ورم بطن الزانية، وسقوط فخذها[6]. وليس الشراب يـؤدي إلى معرفـة الزانيـة، بـل يؤدي بالفعل إلى ورم البطن، أو تشنج الرجل أو الفخذ. والتي لم تدفع للكاهن بسخاء، فسوف تجازف بشرفها، سـتتهم يقينـاً، أمـا الزانيـة الكريمـة، فشـرفها

---

(١) لاويون ٥ :١١- ١٢.

(٢) لاويون ١٥ :١٩- ٢٤.

(٣) لاويون ١٥ : ٢٨- ٣٠.

(٤) صموئيل الأول ٢ :٢٢.

(٥) عدد ١٩ :١٤- ١٥.

(٦) عدد ٥ :١٥- ٢٥.

مصان عن أي دنس، وما أكثر الذين يشكُّون في زوجـاتهم، ومـا أكـثر الذيـن يريدون التخلص منهن.

وحتى الخطأ سهواً، لم ينجو من قبضة الكهنة، فـ«إذا خان أحد خيانة وأخطـأ سهواً»[1]. فالتكفير يحتاج إلى الكبش والملتوت. أما قربان خطأ السـهو للرئيس، ولو لم يدر بالذي فعله فتيس[2]. **«ويكفّر الكاهن عنه مِن خطيته فَيُصفح عنه»**[3].

وكذلـك «إذا أخطـأ أحـد وعمـل واحـدة مـن جميـع منـاهي الـرب»[4]. فتطهيره كبش غنـم فيصفـح عنـه حتمـاً[5]. والكبـش يكـون بالتـأكيد لهـم ولمأكلهم[6].

المرض بخس، عقوبة من الرب، والتطهير هو العلاج، **الكاهن هو الطبيب، إنه الذي يحكم بنجاسة المريض**[7] ولقد حدد الكهنة الخيار أمام المريض: فإمـا الشفاء أو القرابين، فعن الشفاء مثلاً قالوا: «الأبرص الذي فيـه الضربـة تكـون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مكشوفاً ويغطي شاربيه وينادي بخسٌ بخسٌ، كـل الأيام التي تكون الضربة فيه يكون بخسـاً إنـه بخس يقيـم وحـده خـارج المحلة يكون مقامه»[8]. وإذا ضرب البرص البيت - هكذا يقولون- وحكم الكـاهن بنجاسته، فيجب عندها أن يُهـدم كـاملاً، ويُلقـى كلـه إلى أرض بخسـة[9] ولِمَ هذا التهويل؟ أليس ليقال أن القرابـين أهـون الشـرور بمـا أنهـا عصفوريـن، أو يمامتين أو فرخي حمام أو خروف واحد وعُشر واحـد دقيـق ملتـوت بزيـت أو خروفين ونعجة وثلاثة أعشار دقيق للكاهن[10].

---

(١) لاويون ٥ :١٥.

(٢) لاويون ٤ :٢٢- ٢٣.

(٣) لاويون ٤ :٢٦.

(٤) لاويون ٥ :١٧.

(٥) لاويون ٦ :٢- ٣.

(٦) لاويون ٦ :٢٦.

(٧) لاويون ١٣ :٣.

(٨) لاويون ١٣ :٤٥- ٤٦.

(٩) لاويون ١٤ :٤٤- ٤٥.

(١٠) لاويون ١٤، ٣: ١٣، ٢٠- ٢٢، ٤٩- ٥٣.

الإصابة بالقرع بخاسة[١]، ومرض السيلان بخس[٢]. وكل ذلك يحتاج إلى القرابين والتكفير[٣].

- **كفارة الشباب**: «**كل من اجتاز إلى المعدودين من إبن عشرين سنة فصاعداً يعطى للرب للتكفير عن نفوسكم**. وتأخذ فضة الكفارة من بني اسرائيل وتجعلها لخدمة خيمة الاجتماع فتكون لبني اسرائيل تذكاراً أمام الرب للتكفير عن نفوسكم»[٤].

- تقديس مورد الرزق: «**وإن قدس إنسان بعض حقله ملكه للرب يكون**»[٥]. «لكن إن لم يفك الحقل وبيع الحقل لإنسان آخر لا يُفك بعد. بل يكون الحقل عند خروجه في اليوبيل قدساً للرب كالحقل المحرَّم للكاهن يكون ملكه»[٦]. «وإذا قدس إنسان بيته قدساً للرب يقوِّمه الكاهن جيداً أم رديئاً وكما يقومه الكاهن هكذا يقوم. **فإن كان المقدِّس يفك بيته يزيد خمس فضة تقويمك عليه فيكون له**»[٧].

-**الذبائح والموارد**: «وهذا يكون حق الكهنة من الشعب من الذين يذبحون الذبائح بقراً كان أو غنماً يعطون الكاهن الساعد والفكين والكرش، وتعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك»[٨].

- **حصة الكهنة من الحيوانات**: العُشر هو حصة الكهنة من مالكي الحيوانات، وتحديده ليس بأي طريقة اتفقت «وأما كل **عشر البقر والغنم**

---

(١) لاويون ١٣ :٣٦.

(٢) لاويون ١٥ :١.

(٣) لاويون ١٥ :١٤.

(٤) خروج ٣٠ :١٤- ١٦.

(٥) لاويون ٢٧ :١٦.

(٦) لاويون ٢٧ :٢٠- ٢١.

(٧) لاويون ٢٧ :١٤- ١٥.

(٨) تثنية ١٨ :٣- ٤.

فكل ما يَعْبُرْ تحت العصا يكون العاشر قدساً للرب. لا يفحص أجيد هو أم رديء ولا يبدله وإن أبدله يكون هو وبديله قدساً لا يُفَكّ»[1]. أما سفر التثنية، فقد جعل لليتيم والفقير والأرملة ولأصحاب الكاهن نصيب من هذه الضريبة[2]. وعلى ما يبدو أن هذا النص، ينتمي إلى كتبة دولة اسرائيل، التي حرمت من بيت الرب الموجود في اورشليم، خلال الصراع الذي دار بين يربعام ورحبعام، أي عندما لم يكن للكاهن وجود في تلك الدولة.

- **ضرائب السكان أو «التعداد»**: تؤخذ هذه الضريبة عن الشعب، حتى لا يصاب بالوباء، «إذا أخذت كمية بني اسرائيل بحسب المعدودين منهم **يعطون كل واحد فدية نفسه للرب عندما تعدهم لئلا يصير وباء عندما تعدهم**»[3].

- **البكور من الموارد**: كل بكر ملك للكهنة، «**كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس ومن البهائم** يكون لك غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكر البهيمة النجسة تقبل فداءه. **وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقويمك فضة خمسة شواقل** على شاقل القدس هو عشرون جيرة، لكن بكر البقر أو بكر الضأن أو بكر المعز لا تقبل فداءه إنه قدس»[4]. وهل تقارن الشواقل مهما بلغت بالحياة؟ لقد أخذ الرب الكهنة عوضاً عن أبكار اسرائيل، فداء عن الموت أو المحرقات[5]. وهل يُعتبر أخذهم لبعض الشواقل شيئاً عظيماً؟!

- **الكهنة وموارد الأرض**: بالقرعة تقسم أرض كنعان، على أسباط بني اسرائيل[6]. أما الكهنة «**قال الرب لهرون لا تسأل نصيباً في أرضهم**»[7]،

(١) لاويون ٧ :٣٢- ٣٣، ٢٧ :٢٦- ٢٧، تثنية ١٥ :١٩- ٢٢.
(٢) تثنية ١٤ :٢٨- ٢٩.
(٣) خروج ٣٠ :١٢.
(٤) عدد ١٨ :١٥- ١٧.
(٥) عدد ٣ :١٢- ١٣.
(٦) عدد ٢٦ :٥٥- ٥٦.
(٧) عدد ١٨ :٢٠.

وما هي حاجتهم للأرض؟ «**وأما بني لاوي فإني قد أعطيتهم كل عشر في اسرائيل ميراثاً**»[1]. «،من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو قدس للرب. وإن فك إنسان بعض عشره ويزيد خمسه عليه»[2]. «وهذه العشور **سنة فسنة**»[3]. وكل ذلك لا علاقة له بالأبكار، فـ«أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك»[4] «وكل دسم الزيت وكل دسم المسطار والحنطة أبكارهن التي **يعطونها** للرب لك أعطيتها، أبكار كل ما في أرضهم التي يقدمونها للرب لك تكون»[5]. **أما حصة الرب من هذه العشور التي يأخذها الكهنة، فهي عُشر العشر**[6]. ولا بأس إذا ما كانت حصة الرب بلا دسم، «**ولا تتحملون بسببه خطية إذا رفعتم دسمه منه**»[7] ومن أجل ألا يكون للأرض قيمة إلا بما تنتجه منعوا بيعها»[8].

- **المدن والكهنة**: صحيح أن الكهنة لا حصة لهم من الأرض، إلا أنهم يصرون على حصصهم من المدن، وليس أي مدينة كانت، فيجب أن تكون المدينة مع سوار من الأرض، يحيط بها مقداره ألفا ذراع. وعند دخول «يشوع» أرض كنعان، كانت **مدنهم ٤٨ مدينة مع مسارحها**[9]. **إضافة إلى ست مدن أخرى، تسمى مدن ملجأ القتلة سهواً**[10].

- الحرب والثروة:

عند تجهيز الجيش، وقبل انطلاقه للحرب، يقف الكهنة مطالبين بحقوقهم أو ديونهم، فربما يموت من كان عليه بعض العشور أو البكور، وكذلك قد يموت من بنى بيتاً ولم يقدسه، ولهذا يقف الكاهن مخيّراً الجند بين العودة لذويهم، وآداء ما

(١) عدد ١٨ :٢١.
(٢) لاويون ٢٧ :٣٠- ٣١.
(٣) تثنية ١٤ :٢٢.
(٤) خروج ٢٣ :١٩، لاويون ٢٣ :١٠.
(٥) عدد ١٨ :١٢- ١٣.
(٦) عدد ١٨ :٢٥.
(٧) عدد ١٨ :٣٢.
(٨) لاويون ٢٥ :٢٣.
(٩) يشوع ٢١ :٤١.
(١٠) عدد ٣٥ :٢- ٨.

عليهم، أو الذهاب إلى الموت، «يخاطب العرفاء الشعب قائلين من هو الرجل الذي بنى بيتاً جديداً و لم يدشنه **ليذهب ويرجع إلى بيته** لئلا يموت في الحرب فيدشنه رجل آخر. ومن هو الذي غرس كرماً و لم يتكره ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت في الحرب فيتكره رجل آخر»(١). وهل يموت حق وراءه كاهن؟!.

أما عند عودة المحاربين بالنصر والغنائم، فعليهم المكوث خارج المحلة، لإخراج حصة التطهير، وأظن أن سبعة أيام تكفي لمعرفة ما يحمله الجنود وما يملكونه، «**فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام وتطهروا** كل من قتل نفساً وكل من مسَّ قتيلاً في اليوم الثالث وفي السابع أنتم وسبيكم. وكل ثوب وكل متاع من جلد وكل مصنوع من شعر المعز وكل متاع من خشب تطهرونه»(٢) وهنالك حصص أخرى، «**نصف النهب** بين الذين باشروا القتال الخارجين إلى الحرب وبين كل الجماعة. **وارفع زكاة للرب** من رجال الحرب الخارجين إلى القتال واحدة نفساً من كل خمس مئة من الناس والبقر والحمير والغنم. من نصفهم تأخذونها وتعطونها لألعازر الكاهن رفيعة للرب. ومن نصف بني اسرائيل تأخذ واحدة مأخوذة من كل خمسين من الناس والبقر والحمير والغنم من جميع البهائم وتعطيها للاويين الحافظين مسكن الرب»(٣). أما الذهب فليس لأحد فيه نصيب، إنه للكهنة وحدهم، «**فأخذ موسى والعازر الكاهن الذهب من رؤساء الألوف والمئات وأتيا به إلى خيمة الاجتماع تذكاراً لبني اسرائيل أمام الرب**»(٤). والويل لمن يخفي شيئاً، وخداع الكهنة كما يقولون سبباً رئيسياً لهزيمة الجيش، فبعد هزيمة «يشوع» أمام «عاي»، فتش الكهنة عن أسباب الهزيمة، فإذا هي اعتداء على حق من حقوقهم، فقد أخفى «عخان»، بعض الفضة والذهب والألبسة(٥). وكان عقابه عظيماً فظيعاً، فقد رجموه

---

(١) تثنية ٢٠ :٤- ٦.
(٢) عدد ٣١ :١٩- ٢٠.
(٣) عدد ٣١ :٢٧- ٣٠.
(٤) عدد ٣١ :٥٤.
(٥) يشوع ٧ :٢٠- ٢١.

بالحجارة واحرقوه بالنار، هو وبناته وبنيه وبقره وحميره وغنمه وخيمتـه و كـل ماله حتى رجع حمو غضب الرب[١]. فالكاهن هو الأسـباب، إنـه وراء النصر والهزيمة، وما هو النصر إن أراده؟ فالكهنة يفعلون بقدرات أعظم مـن السيف، فعندما استعصت أريحا أمام يشوع، هذا الذي يُنعت ببطـل الدخـول إلى أرض كنعان، **فتحوها هـم بـالبوق وحطمـوا سـورها**[٢]. وهـل كـان دخـولٌ لبـني اسرائيل إلى أرض الأردن لولا تجمد الماء تحت أقدامهم[٣].

- الكهنة ومنهج الابتزاز

لو نظرنـا إلى منهـج الإبـتزاز الـذي وضعـه الكهنـة، لرأينـاه يسـخرِّ الـرب والأنبياء أو قل الإيمان وسيلة لكل غـرض يريـدون تحقيقـه، وعلـى المؤمنـين أن يصدقوا كل شيء يقال لهم.

فالكاهن ضروري لبقاء الشعب، هكذا يقولـون «وأمـا اللاويـون فيـنزلون حول مسكن الشهادة لكي لا يكون سخط على جماعة بني اسرائيل»[٤].

والكاهن ضروري من أجل الشريعة، «**شفتي الكاهن تحفظان معرفة ومـن فمه يطلبون الشريعة لأنه رسول رب الجنود**»[٥].

والكهانة لا تسقط عن بـني لاوي ولـو أخطـؤوا، حتـى أن قصـة قـارون اللاوي لم تؤثر في اصطفـائهم[٦]. فمـن المعلـوم حسـب أقوالهـم، أن قـورح أو قارون تآمر مع جماعته على موسى،[٧]. لذلك خسف الله به الأرض، وعندمـا كانت هذه القصة تؤدي إلى تشويه سمعة سبط الكهـان، قـاموا بصنـع معجـزة

---

(١) يشوع ٧ :٢٤- ٢٦.

(٢) يشوع ٦ :٤- ٦.

(٣) يشوع ٣ :١٥- ١٦.

(٤) عدد ١ :٥٣.

(٥) ملاخي ٢ :٧.

(٦) عدد ١٦ :٨.

(٧) عدد ١٦ :٩- ١٠.

تشهد لهم بالخير على الرغم من كل ما حدث، وتشهد بعدم جواز خروج الكهانة إلى سواهم فقالوا: إن الرب أمر موسى باتخاذ عصي بأسماء الأسباط وكانت عصا لاوي أو الكهنة «قد أفرخت أخرجت فروخاً وازدهرت زهراً وأنضجت لوزاً»(١). علامة على أن الله اختارهم لخدمته، ولو أخطؤوا.

وبعد أن تم لهم الأمر، وحفاظاً على مصدر قوتهم وأسرارهم، قالوا: «**كل من اقترب إلى مسكن الرب يموت**»(٢) لأن الخدمة فيه ليست سهلة، إنها خطيرة فعندما أخطأ ابنا هرون «ناداب» و«ابيهو» خطأً بسيطاً قتلهما الرب «**فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب**»(٣) وهل للمؤمنين برهان أعظم من ذلك؟

الكاهن في خطر دائم، وإذا ما أردتم ألا يخطىء، فيجب ألا يعمل عملاً آخر، إنه للرب ولكم أيها الشعب، وهل كثيراً إذا ما أكل العشور والقرابين وغير ذلك؟ وما الحيلة إذا كان الرب لا سرور له من الذبائح إلا برائحتها أليس هو القائل «**قرباني طعامي مع وقائدي رائحة سروري** تحرصون أن تقربوه لي في وقته»(٤)، «**مُحرقة وقود رائحة سرور للرب**»(٥).

الكهنة مرغمون على أكل القرابين، فليس جشعاً ولا طمعاً، أم أنكم أيها المؤمنون تتناسون قصة هارون، أليس موسى دفع أخاه دفعاً للأكل من القرابين بعد موت ولديه مباشرة، دون أن يكترث بهما، فالشعائر هي الأهم، «وقال موسى لهرون وألعازار وايثامار - ابنيه الباقين خذوا التقدمة الباقية من وقائد الرب وكلوها فطيراً بجانب المذبح لأنها قدس أقداس. كلوها في مكان مقدس **لأنها فريضتك وفريضة بنيك من وقائد الرب فإنني هكذا أُمرت**»(٦)، وكذلك يغضب موسى وتنتفخ أوداجه، إن لم يأكلوا تيس الخطية(٧). وكم صوروا هارون جشعاً وهو

---

(١) عدد ١٧ :٨.

(٢) عدد ١٧ :١٣.

(٣) لاويون ١٠ :٢.

(٤) عدد ٢٨ :٢.

(٥) لاويون ١ :٩، ٣ :٥.

(٦) لاويون ١٠ :١٢- ١٣.

(٧) لاويون ١٠ :١٦- ٢٠.

يسأل المزيد من الطعام، فلا شعور لديه ولا اكتراث بولديه القتلى، فالمهم أن يأكل المزيد من القرابين، فأكلُها إذن فريضة على الكهنة لا مفر منها.

ومن أجل ألا تنقطع العطايا والقرابين عن الكهنة، صوروا ربهم، والعياذ با لله، جشعاً أكولاً نهماً، وما أسوأ الزائر لبيته إذا ما أتاه خالي اليدين، وفي ذلك يقول: «**ولا يظهروا أمامي فارغين**»(١). فيجب ألا تنقطع عطايا المؤمنين وإلا فإن الرب هو المسلوب وهو القائل: «**أيسلب الإنسان ا لله فإنكم سلبتموني** فقلتم بما سلبناك. في العشور والتقدمة. قد لعنتم لعناً وإياي أنتم سالبون هذه الأمة كلها. هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام وجرِّبوني بهذا قال رب الجنود إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع»(٢). فليس من شيء بلا ثمن، وإذا ما شبع الكهنة، فسوف يأتيكم الخير مدراراً، ومن حيث لا تحتسبون.

وأخيراً فإن أعداء الكهنة وحسادهم لا يفلحون، لأنهم أعداء الرب، وهل من إنسان ينتصر على الإله؟ وموسى بارك الكاهن، وها هو يخاطب الرب قائلاً: «حفظوا كلامك وصانوا عهدك، يعلِّمون يعقوب أحكامك وإسرائيل ناموسك، يضعون بخوراً في أنفك ومحرقات على مذبحك. بارك يارب قوته وارتضي بعمل يديه أحْضُم متون مقاوميه ومبفضيه حتى لا يقوموا»(٣).

- التحريف والصراع بين الكهنة والملوك:

وأخيراً أصبح للكهنة الثروة والسلطان، بل وظلموا الشعب كثيراً من أجل ذلك حتى تذمَّر من جشعهم وتصرفاتهم، «وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لإسرائيل. وكان اسم ابنه البكر يوئيل وإسم ثانيه أبيا كانا قاضيين في بئر سبع. ولم يسلك إبناه في طريقه بل مالا وراء المكسب وأخذا الرشوة

---

(١) خروج ٢٣ :١٥، ٣٤ :١٩.

(٢) ملاخي ٣ :٨- ١٠.

(٣) تثنية ٣٣ :٩- ١١.

وعوجا القضاء. فاجتمع كل شيوخ اسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة. وقالوا له هو ذا أنت قد شبت وإبناك لم يسيروا في طريقك فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب»[1]. فحذرّهم صموئيل، لأن الملوك سيتخذون الشباب عبيداً وخصياناً، والبنات جواري وطباخات ووبخهم قائلاً: **«إنه عظيم شركم الذي عملتموه في عيني الرب بطلبكم لأنفسكم ملكاً»**[2]. ولكنهم أصروا على طلبهم، وعَيَّن صموئيل شاؤول ذلك الفلاح ملكاً عليهم. وحاول الكهنة تكبيله بالتوراة، كتاب حقوقهم فقالوا: «وعندما يجلس على كرسي مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته لكي يتعلَّم أن يتقي الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها»[3].

وتجرأ الملك على الكهنة، فعندما تأخر الكاهن صموئيل عن موعده **«فقال شاؤل قدموا إلي المحرقة وذبائح السلامة فأَصْعَدَ المحرقة. وكان لما انتهى من إصعاد المحرقة إذا صموئيل مقبل فخرج شاؤل للقائه ليباركه. فقال صموئيل ماذا فعلت»**[4]. فقال صموئيل لشاؤل قد انحمقت لم تحفظ وصية الرب إلهك التي أمرك بها لأنه الآن كان الرب قد ثَبَّت مملكتك على اسرائيل إلى الأبد. **وأما الآن فمملكتك لا تقوم قد انتخب الرب لنفسه رجلاً حسب قلبه وأمره الرب أن يترأس على شعبه لأنك لم تحفظ ما أمرك به الرب»**[5]. وكان داوود هو الملك البديل.

– داوود والكهنة:

لقد أُعجب الكهنة بادىء الأمر بداوود، بسخائه، وحماسه، فـ**«كان كلما خطا حاملوا تابوت الرب ست خطوات يذبح ثوراً معلوفاً. وكان داوود**

(١) صموئيل الأول ٨ : ١– ٥.

(٢) صموئيل الأول ١٢ :١٧.

(٣) تثنية ١٧ :١٨– ١٩.

(٤) صموئيل الأول ١٣ :٩– ١١.

(٥) صموئيل الأول ١٣ : ١٣– ١٤.

يرقص بكل قوته أمام الرب»[(١)]. ولكنه انحرف فيما بعد، حتى أن «**بنو داووه كانوا كهنة**»[(٢)]. بل وأراد بسياسته أن يعزل الكهنة، فقام بسبر قوتهم، وتلك هي الطعنة النجلاء، «**فعد اللاويون** من إبن ثلاثين سنة فما فوق فكان عددهم حسب رؤوسهم من الرجال ثمانية وثلاثين ألفاً من هؤلاء للمناظرة على عمل بيت الرب أربعة وعشرون ألفاً وستة آلاف عرفاء وقضاة. وأربعة آلاف بوابون وأربعة آلاف مسبِّحون للرب بالآلات التي عملت للتسبيح»[(٣)]. وكيف لا يخشى داوود هذا الجيش العرمرم؟ فهو لم ينس بعد كيف حاربوا الملك شاؤول.

كما استهتر داوود بقرابين التعداد، فلم يقدمها للكهنة، عندما عذَّبني اسرائيل، ولابد من الحرب بينه وبين الكهنة الذين تسلحوا بقدرتهم على صياغة الإيمان، ولننظر بالذي فعلوه. لقد غضب الرب «**قال الرب ثلاثة أنا عارض عليك فاختر لنفسك واحداً منها فأفعله بك**.. أتأتي عليك سبع سنين جوع في أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك أم يكون ثلاثة أيام وباء في أرضك»[(٤)]. وكان الوباء والبلاء عاماً، ونفذ الرب يوماً واحداً من أيام الوباء، فمات من الشعب سبعون ألف رجل، وعندما ندم الرب على هذا الشر، وعندما أحتجَّ داوود بأن العقوبة يجب أن تكون عليه لا على الشعب، أمره الله «**وقال له إصعد وأقم للرب مذبحاً**»[(٥)]. أي إذهب إلى الكهنة تائباً. وتأويل هذه القصة يقول: إن رضي الشعب بخروج الكهانة من لاوي، وإن رضي بالذين يتجرأون على الكهان أو على بيت الرب، فسوف يحاربه الرب حتماً، وإنها لسياسة تهدف إلى تأليب الشعب على الملك!!.

ومن هو داوود برأي الكهان؟ أليس اليهود اسباطاً واضحوا النسب؟ وبدأ الكهنة يصنعون نسباً لهذا الملك الملحد فقالوا: **إن نسبه يرتد إلى أبشع علاقة في الزنا**،

---

(١) صموئيل الثاني ٦ :١٣- ١٤.
(٢) صموئيل الثاني ٨ :١٨.
(٣) أيام الأول ٢٣ :٣- ٥.
(٤) صموئيل الثاني ٢٤ :١٢- ١٣.
(٥) صموئيل الثاني ٢٤ :١٨.

«يهوذا» زنى بكنته الغير يهودية، فأنجبت ولدان أحدهما اسمه «فارص»، «فارص ولد حصرون. وحصرون ولد رام ورام ولِد عمينا داب. وعمينا داب ولد نحشوت ونحشوت ولد سلمون، وسلمون ولد بوعز، وبوعز ولد عوبيد، وعوبيد ولد يسيٍّ، ويسيٍّ ولد داوود»(١). بل أن «راعوث والدة «عوبيد» جده القريب، موآبية أي من الأغراب، أو الأعداء الذين قضى الله عليهم بالموت والهلاك. فلا تغترّ أيها الشعب اليهودي بداوود وولده سليمان، ولو قاما ببناء المعابد، فإنهما بالأصل من الأعداء الذين التحقوا باليهود عن طريق الزنا، وليس يهودياً من لم تكن أمه يهودية. وهل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟ لا، وها هو داوود يقول عن نفسه في المزامير التي نسبت إليه: «**هأنذا بالإثم صوِّرت وبالخطية حبلت بي أمي**»(٢).

داوود الذي اضطهد الكهنة، ليجعل من بنيه أو من الزناة كهنة، **يغدر بنساء الجيران، ويقتل أعوانه**، فعندما رأى جمال زوجة «أوريا» الحثي، وهي تستحم من طمثها، وعندما فتن بذلك الجمال، أتى بها إلى قصره وزنى بها أولاً وانجبت له، وللتخلص من زوجها الذي كان جندياً من جنوده، أمر القائد «يوآب» بتقديمه إلى الصف الأول في الحرب مكيدة لقتله، وهكذا كان، وبعدئذ تزوجها داوود، فأنجبت له سليمان الحكيم»(٣).

فهل رأيت أيها الشعب من هم أعداء الكهنة؟ ولم تنته القصة بعد، وعقاب الرب عظيم، وها هو إبنه من الزنا يموت،(٤). أما ابناءه الأحياء، فانظر بالذي يقوله الكهنة: **لقد زنى ابنه «أمنون» بأخته «ثامار»**(٥)**. ثم قتل «أبشالوم» أخاه الزاني، وبعدها تمرد على أبيه داوود** حتى اضطره للهرب(٦). وعندها

---

(١) راعوث ٤ :١٨- ٢٢.
(٢) مزامير ٥١ :٥.
(٣) صموئيل الثاني الأصحاح ١١.
(٤) صموئيل ١٢ :١٥.
(٥) صموئيل الثاني ١٣ :١٤.
(٦) صموئيل الثاني ١٥ :١٤.

زنى ابشالوم بسراري والده الملك، أمام كل بني اسرائيل،[1]. **وفي نهاية الأمر قُتل ابشالوم بجند والده داوود**، فحزن عليه حزناً عظيماً[2]. **وأخيراً نسبوا الملك إلى علاقة وطيدة بالأصنام**[3]. وحكموا عليه بالإلحاد والمروق.

– **سليمان والكهنة**: سليمان سليل الزنا، وابن الأغراب، تجرأ هو الآخر على بيت الرب، فغيَّر في الكهنة وبدَّل،[4]. وقتل «يوآب» في المذبح وهو ممسك بقرونه[5]. وتزوج بالأغراب وصاهر فرعون مصر[6]. فلابد لذلك كله من العقاب، **وكان أن جعلوه عابداً لكل الأصنام المعروفة حينئذ**، بل وزوجوه على عدد أصحابها فقد زوجوه بسبعمائة من النساء، وثلاثمائة من السراري[7]. إنه ملحد وفاجر، وهكذا يكون مصير كل من سوَّلت له نفسه التمرد على الكهنة!.

لقد جعلوا سليمان حامل كل فرقة وفتنة حدثت لبني اسرائيل، حتى أنه بزعمهم كان مسؤولاً عن انقسامهم إلى دولتين، فعاقبه الرب على أفعاله، «**وأقام الرب خصماً لسليمان هدد الأدومي**»[8]. و«**أقام ا لله له خصماً أخر رزون بن اليداع**»[9]. ولم ينسوا أيضاً «**يربعام**»[10]. الذي ناصبه العداء.

– **عزيا والكهنة**: لقد غضب الكهنة على «عزيا» ملك يهوذا، فقد «**ارتفع قلبه إلى الهلاك وخان الرب إلهه ودخل هيكل الرب ليوقد على مذبح البخور**، ودخل وراءه عزريا الكاهن ومعه ثمانون من كهنة الرب بني البأس. وقاوموا عزيا الملك وقالوا له ليس لك يا عزيا أن توقد للرب بل للكهنة بني هرون المقدسين

---

(١) صموئيل الثاني ١٦ :٢٢.

(٢) صموئيل الثاني ١٨ :٣٣.

(٣) صموئيل الأول ١٩ :١٣.

(٤) ملوك الأول ٢ :٣٥.

(٥) ملوك الأول ٢ :٢٨- ٢٩.

(٦) ملوك الأول ٣ :١.

(٧) ملوك الأول ١١ :١- ٨.

(٨) ملوك الأول ١١ :١٤.

(٩) ملوك الأول ١١ :٢٣.

(١٠) ملوك الأول ١١ :٢٦.

للإيقاد أخرج من المقدس لأنك خنت وليس لك من كرامة من عند الرب الإله. فحنق عزيا وكان في يده مجمرة للإيقاد وعند حنقه على الكهنة خرج برص في جبهته أمام الكهنة في بيت الرب بجانب مذبح البخور»[١].

- **يربعام والكهنة**: وعندما انقسم اليهود إلى دولتين، طردهم يربعام من مملكته، ورفضهم أن يكونوا كهنة للرب[٢]. ولذلك ضلت هذه المملكة طريقها عند خلوها منهم، حتى عبدوا العجل وجعلوه إلهاً لهم[٣]. فلا هداية بغير الكهنة.

الملوك هم المفسدون في الأرض على رأي الكهنة، فلا نفع منهم، وإذا ما ربط البعض وجودهم بحرب الأعداء على وجه الضرورة، فليعلموا أن زمن القضاة أو الكهنة، كان أعظم حماية للشعب من أي ملك يكون، فشمشون وحده - يقول-: «**بلحي حمار قتلت ألف رجل**»[٤]. كما جعلوه - أي الكهنة - قادراً على تدمير بناء ضخم، يتسع سطحه إلى ثلاثة آلاف رجل، بسقوط عمودين فقط من أعمدته!![٥]. ويالها من اكذوبة. وها هو أيضاً «**شمجر بن عناة فضرب من الفلسطينيين ستة مئة رجل بمنساس البقر**»[٦]. و«**يوشيب» هزَّ رمحه على ثمان مئة قتلهم دفعة واحدة**»[٧]. و«**أبيشاي**» هو الآخر «**هزَّ رمحه على ثلاث مئة قتلهم**»[٨]. وهل تقارن الثرى بالثريا، أو الملك ببركة الكاهن؟ ومن هو الملك المؤمن؟ إنه الذي يرضي الكهنة، فلهم أن يجعلوه ملكاً أو ألعوبة، وها هو «يهوآش» فقد تآمر الكهنة برئاسة الكاهن «يهويا داع» لتنصيبه ملكاً، ونجحوا في ذلك و«كان يهوآش ابن سبع

---

(١) أيام الثاني ٢٦ :١٦- ١٩.

(٢) الأيام الثاني ١١ :١٤.

(٣) ملو ك الأول ١٢ :٢٨.

(٤) قضاة ١٥ :١٦.

(٥) قضاة ١٦ :٢٧.

(٦) قضاة ٣ :٣١.

(٧) صموئيل الثاني ٢٣ :٨.

(٨) صموئيل الثاني ٢٣ :١٨.

سنين»[1]، فاستحوذوا عليه، وكان لهم كل مايريدون، **«وقال يهوآش للكهنة جميع فضة الأقداس التي أدخلت إلى بيت الرب** الفضة الرائجة فضة كل واحد حسب النفوس المقوَّمة كل فضة يخطر ببال إنسان أن يدخلها إلى بيت الرب. **ليأخذها الكهنة لأنفسهم»**[2]. لذا فإنه النموذج للملك المؤمن، فقد أحيا دروب ثروتهم بسخاء، بعد فتور طويل، لقد «أمر جميع الشعب قائلاً اعملوا فصحاً للرب إلهكم كما هو مكتوب في سفر العهد. **إنه لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيام القضاة الذين حكموا على اسرائيل ولا في كل أيام ملوك اسرائيل وملوك يهوذا»**[3].

ولكن من هو الملحد على الحقيقة؟ إنه الكاهن، انه الذي جعل من هواه إلهاً له، إنه صانع الإيمان، فكل ما يحقق أغراضه فهو مقدس ودين يُتبَّع، لقد هرب الكهنة عندما لم يكن وراء الكهانة ثروة وأموال[4]. واشتغلوا كهنة للأصنام، ورضوا تقديسها في كثير من الأحوال، بل ورضوا بوجودها في بيت الرب، دون أن يحركوا ساكناً **«حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب اكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذي قدسه في أورشليم»**[5]. **والملك «يوشيا» أمرهم «أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجساد السماء وأحرقها خارج أورشليم»**[6]. **«وأخرج السارية من بيت الرب»**[7].

الكهنة كما يقول «هوشع»: صيادون «وكما يكمن لصوص لإنسان كذلك زمرة الكهنة»[8]. وبني «بليعال» كان لهم منشال ذو ثلاثة أسنان،

---

(١) الملوك الثاني ١١ :٢١.

(٢) الملوك الثاني ١٢ :٤- ٥.

(٣) الملوك الثاني ٢٣ :٢١- ٢٢.

(٤) نحميا ١٣ :١٠.

(٥) الأيام الثاني ٣٦ :١٤، ٢٢ :٢٦.

(٦) الملوك الثاني ٢٣ :٤.

(٧) الملوك الثاني ٢٣ :٦.

(٨) هوشع ٦ :٩.

يستعملونه للإعتداء على المُحرقات، بل وأخذوا الشحم، وإن يعارض كبيرهم أحد يقول له: «**وإلا فآخذ غصباً**»(١).

البركة الإلهية تدور مع اللاوي حيث دار، فقد كان لـ«ميخا» بيتاً للأصنام، وعندما التقى بلاوي «**فقال له ميخا أقم عندي وكن لي أباً وكاهناً** وأنا أعطيك عشرة شواقل فضة في السنة وحلة ثياب وقُوتك **فذهب معه اللاوي**. فقال ميخا الآن علمت أن الرب يحسن إليه لأنه صار لي اللاوي كاهناً»(٢). وحدث أن كان جواسيس من اليهود يبحثون عن مدينة آمنة ليذبحوا أهلها، وصلوا إلى هذا الكاهن، وتعرفوا عليه، «فقالوا له اسأل إذن من الله لنعلم هل ينجح طريقنا الذي نحن سائرون فيه. فقال لهم الكاهن اذهبوا بسلام أمام الرب طريقكم الذي تسيرون فيه»(٣). ولكن اليهود محتاجون إلى الكاهن اللاوي رغماً عنهم، محتاجون إلى بركته ومهما كلفهم من ثمن. وعندما قدِم الست مئة رجل من أصحاب الجواسيس، مالوا إلى بيت ميخا «وأخذوا التمثال المنحوت والأفود والترانيم والتمثال المسبوك والكاهن واقف عند مدخل الباب مع الست مئة الرجل المسلحين بعدة الحرب. وهؤلاء دخلوا بيت ميخا وأخذوا التمثال المنحوت والأفود والترانيم والتمثال المسبوك فقال لهم الكاهن ماذا تفعلون، فقالوا له إخرس ضع يدك على فمك واذهب معنا وكن لنا أباً وكاهناً أهو خير لك أن تكون كاهناً لبيت رجل واحد أم تكون كاهناً لسبط ولعشيرة في اسرائيل. **فطاب قلب الكاهن وأخذ الأفود والترانيم والتمثال المنحوت ودخل في وسط الشعب**»(٤).

لقد أخذوا الكاهن والأصنام معه: ولكن أليس كفراً الكهانة للأصنام؟ ولكن حتى لا يقول أحداً بضرورة إقصائهم عن بيت الرب أو الكهانة اتهموا هارون بصناعة العجل، ذلك الصنم الذي عبده بني اسرائيل حسبما يقولون.

---

(١) صموئيل الثاني ٢ :١٦.

(٢) قضاة ١٧ :١٠، ١٣.

(٣) قضاة ١٨ :٥- ٦.

(٤) قضاة ١٨ :١٧- ٢٠.

لقد زعم الكهنة أن الله عيَّنهم لخدمة بيته إلى الأبد، ولو أصبحوا **فاسقين**، ولكن «زكريا» يقول أن الكهانة مشروطة، وحذَّرهم من أعمالهم، وطالبهم بالتوبة، «فأشهد ملاك الرب على يهوشع - الكاهن - قائلاً: هكذا قال رب الجنود إن سلكت في طرقي وإن حفظت شعائري فأنت أيضاً تدين بيتي وتحافظ أيضاً على دياري وأعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين»[١].

وأخيراً تمَّ عزلهم عن الكهانة لصالح "بني صادق" «**أما المقدس فللكهنة من بني صادوق الذين حرسوا حراستي الذين لم يضلوا حين ضل بنو اسرائيل كما ضل اللاويين**»[٢].

الكاهن هو الملحد، وإذا قلنا بوجود التوراة التي تنتسب إلى الله، فإن أغراضه كما رأينا هي التي حرَّفتها، لقد حرَّفها بجشعه، فحاز القوة والثروة، فانتصر كما يزعم على أعدائه، ولو كانوا ملوكاً، وهل انتهى الأمر عند «أنا» الكاهن فقط؟ لا، بل امتد إلى كل شيء في عقيدة اليهود، لإيجاد «أنا» يهودي، إنهم شعب الله المختار، فقد أحبهم الله لا من أجل عظمتهم، بل من أجل المحبة ذاتها، أو قل من أجل نفسه التصق بهم! «**لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك قد أختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم**»[٣]. أما ما يرمون إليه من ارتباط مقولة الشعب المختار بالقسم، فهو جعل هذه المقولة فوق المعايير والموازين، فمهما فعل الشعب اليهودي، فسوف يبقى شعبه المفضل إلى الأبد، وهل يخلف الله وعده، أم أنه حين الوعد لا علم له بما ستؤول إليه أحوالهم من الفسوق والعصيان؟ إنها المحبة[٤]. «**وكفرح العريس**

(١) زكريا ٣ :٥- ٧.

(٢) حزقيال ٤٨ :١١.

(٣) تثنية ٧: ٦-٨.

(٤) ملاخي ١ :٢.

بالعروس يفرح بك إلهك»[١] وأصبح التحالف عظيماً بين الرب واليهود، والرب يقول: «**واتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً فتعلمون إني أنا الرب إلهكم**»[٢]. إنه تحالف مسلح ضد كل الشعوب. تحالف تمَّ من الأزل، ومن أجل أن يتمجد الرب سلّحهم ودربهم على فنون القتال والحرب. والرب من البطن دعاني، من أحشاء أمي ذكر أسمي. وجعل فمي كسيف حاد، في ظل يده خبأني، وجعلني سهماً مبرياً في كنانته أخفاني. وقال لي أنت عبدي اسرائيل الذي به اتمجد»[٣] و«طوبى للأمة التي الرب إلهها الشعب الذي اختاره ميراثاً لنفسه»[٤]. فمن أجل نفسه، نعم! «**وثبت لنفسك شعبك اسرائيل شعباً لنفسك إلى الأبد وأنت يارب صرت هم إلهاً**»[٥].

وليكن لله المجد والربوبية والاطمئان على الحب، ولتكن الثروة لليهود، فكل ثروة الغرباء حلالاً لهم، وكل الشعوب خدم للشعب المختار، ذلك وعد من الله، ودستور التحالف يقول: «**يقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون**»[٦]. حتى يصبح «**مجد الأمم كسيل جارف فترضعون وعلى الأيدي تحملون وعلى الركبتين تدللون**»[٧] وسبحان هذا الرب الكريم الذي يقول أيضاً: «**مباركاً تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك**»[٨]. وهل سيبقى المؤمنون صماً بكماً يصدقون كل شيء؟ وهل إذا وجد العقيم والعاقر في اليهود وبهائمهم، يكون ذلك برهاناً وعلامة على انتهاء مقولة الشعب المختار؟ الآيات تقول ذلك! وأسفار الأنبياء

---

(١) اشعياء ٦٢ :٥.

(٢) خروج ٦ :٧.

(٣) اشعياء ٤٩ :١- ٣.

(٤) مزامير ٣٣ :١٢.

(٥) صموئيل الثاني ٧ :٢٤.

(٦) اشعيا ٦١ :٥- ٦.

(٧) اشعيا ٦٦ :١٢.

(٨) تثنية ٧ :١٤.

المتأخرين تقول عن اليهود: «**لقد أتعبتم الرب**»[1]. وانقلب المختار إلى المجنون، «**شعبي أحمق إياي لم يعرفوا هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين هم حكماء في عمل الشر ولعمل الصالح لا يفهمون**»[2].

وإذا ما أردنا البحث عن الإلحاد، في قضية شعب الله المختار، فسوف نراه جاثماً وراء ربط هذه المقولة بوعد أبدي غير مشروط، وهذا ما أكد عليه الأنبياء المتأخرون، تماماً كما ارتبط إلحاد الكاهن باللاوي المختار إلى الأبد، بل إن محاولة جعل اللاوي كاهناً إلى الأبد، هي التي أوجدت الشعب المختار إلى الأبد، وهل الشعب إلا مزرعة الكهنة؟ وأرادوها مزرعة أبدية، وهذا هو كل الأمر!!.

الكهانة علاقة بين سبط وأسباط، وإن لم يوجد اليهود الذين ينتمون إلى الأسباط، فلا أبدية لوجود الكاهن، ومن هنا كان التشديد على ضرورة وجود العداء الدائم بين اليهود والشعوب الأخرى، وأعظم فجوة حفروها، تقول بعدم شرعية الزواج بالأغراب، ثم ربطوا ما بين هذه المقولة ووعد الحصول على الأرض من خلال أن الوعد مقترن بالسلالة.

لقد تزوج «إبراهيم» بالمصرية، وعندما ندم الرب، أَمَرَهُ أن يقذف بها وابنها إلى الصحراء، أما عندما أراد تزويج ابنه «اسحق»، استحلف عبده كبير بيته، ألا يأخذ له زوجة إلا من عشيرته، حفاظاً على وعد الأرض المرتبط بالسلالة، بل إن ملاك الرب هو الذي حدَّد الزوجة المناسبة لإسحق[3]. وكيف يكون الزواج بالأغراب مسموحاً به إذا كانت مصافحتهم تستوجب العقاب؟ والآيات تقول: «**فإنك رَفَضْتَ بيت يعقوب لأنهم امتلأوا من المشرق وهم عائفون كالفلسطينيين ويصافحون أولاد الأجانب**»[4] و«**فم الأجنبيات هوة عميقة ممقوت الرب يسقط فيها**»[5].

---

(١) ملاخي ٢ :١٧.

(٢) ارمياء ٤ :٢٢.

(٣) تكوين ٢٤ :٢- ٤،٧.

(٤) اشعيا ٢ :٦.

(٥) أمثال سليمان ٢٢ :١٤.

ومن غضب الله عليه فلا نصر له في الحروب، وأسباب الهزائم الأولى هي الزواج بالأغراب[1]. و«نحميا» الذي يحب النصر يقول: «فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناساً ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً **لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم**. أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك اسرائيل»[2] أما «عزرا» فلقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال: «**اختلط الشعب المقدس بشعوب الأرض، فلما سمعت بهذا الأمر مزَّقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيراً**»[3]. وعندما خرج من حيرته قال: «**فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا أن نخرج كل النساء والذين ولدوا منهن**»[4].

ولنسلِّم لهم بأن زواج الأغراب كفر وإلحاد وخروج عن الشريعة، إلا أنه حدث، وهل كل من فعل ذلك كان ملحداً بالفعل؟ لقد استوصت التوراة بالغريب كل الخير[5]. وموسى تزوج بـ«**المرأة الكوشية**»[6]. وضرب الله أخته «مريم» بالبرص عندما ناقشته في هذا الزواج، فهل كان موسى ملحداً؟

أما «شمشون» «فقال شمشون لأبيه إياها خذ لي لأنها حسنت في عيني. **ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب** لأنه كان يطلب علة على الفلسطنيين»[7].

وهذا يعني أنه إذا كان الزواج بالأغراب لأغراض تخدم اليهود فلا بأس به، وها هي قصة «أستير» فقد تزوجت من ملك مجوسي مُلحد، وهو غير يهودي، لقد أصبحت قديسة من القديسات، ولها عيد خاص لإحياء ذكرى زواجها الميمون كل عام. فما الذي فعلته؟ لقد كره «هامان» أو رجل الملك، اليهود من أجل طباعهم الغريبة - هكذا يقول سفر استير - فسعى لاستصدار أمر

---

(١) قضاة ٣ :٥- ٦، ٨.

(٢) نحميا ١٣ :٢٥- ٢٦.

(٣) عزرا ٩ :٢- ٣.

(٤) عزرا ١٠ :٣.

(٥) خروج ٢٢ :٢١، ٢٣ :٩.

(٦) عدد ١٢ :١.

(٧) قضاة ١٤ :٣- ٤.

ملكي بقتل اليهود عامة، وعندما علمت «أستير» بذلك، دبرت مع «مردخاي» اليهودي مؤامرة أدت إلى قتل «**خمسة وسبعين ألفاً**»[1] من آل «هامان». وعلى ما يبدو أن المؤامرة تتلخص في جر «هامان» إلى علاقة مشبوهة مع «استير» زوجة الملك «احشو يروش» بدليل يبرئها ويدينه، وتساؤل الملك وقوله: «**هل أيضاً يكبس الملكة معي**»[2] يشير إلى نوعية تلك المؤامرة. بل أن سفر استير كله لا مبرر له إلا الحكمة التي تقول: إذا كان الزواج بالأغراب لأغراض يهودية، فمقدس ذلك الزواج، لأن استير لم تتزوج الملحد إلا من أجل اليهود، ولَم لا يكون ذلك إذا كان الله نفسه هو الذي اختار لشمشون زوجة من الفلسطينيين مكيدة بهم؟.

الأغراض مباركة، و«**تبارك على النساء ياعيل**»[3]. وما الذي فعلته «ياعيل» هذه التي أصبحت مقدسة؟ لقد أعطت «سيسرا» رئيس مركبات جيش «يابين» اللبن حتى نام في بيتها، ثم قتلته، علماً أنه كان في صلح مع قومها، ولكن لابأس بالقضاء على عدو محتمل خاصة إن كان قوياً.

فإذا كانت أغراضهم لا تؤدي إلى الإلحاد لأن الله أرادها، فإن الله عندها هو الملحد - والعياذ بالله - ولذا قالوا: أنه يجوز عليه البكاء والحسرات والندم، أي البداء أو تغيير الرأي.

- الأرض ومنهج الإيمان:

الشعب المختار حبيب الله إلى الأبد، يحتاج إلى أرض يسكن عليها، وفلسطين هي الهدف، فخيراتها كثيرة، إنها مقدسة. ولما كان اليهود عنصريون، لذا يجب إفناء الكنعانيين أصحاب تلك الأرض، وإذا ماقلت بأي حق يكون ذلك الحكم القاسي؟ يقول الكهنة: لأنهم شعب ملعون من الرب،

---

(١) استير ٩ :١٦.

(٢) استير ٧ :٨.

(٣) قضاة ٥ :٢٤.

فـ«حام» جدُّهم أبصـر عـورة أبيـه السـكير «نـوح»، وإنـه ذنـب لـو تعلمـون عظيم، والقصة تقول: «وابتدأ نوح يكـون فلاحـاً وغـرس كرمـاً، شـرب مـن الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. **فأبصر حام أبـو كنعـان عـورة أبيـه** وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعـاه على أكتافهمـا ومشـيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهمـا. فلمـا استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. **فقـال ملعـون كنعـان عبـد العبيـد لأخوتـه. وقـال الـرب مبـارك الـرب إلـه سـام وليكـن كنعـان عبـداً هم**»[١]. ولكن أليس من الغريب أن تكون اللعنة على كنعان، بينما الذي رأى عورة نوح هو حام؟! ليس في ذلك غرابـة إن كـان لنـا التمييز بيـن مـا يعنيه العدل وما يعنيه منطق الأغراض الذي يقول: **إن الله مفتقـد ذنـوب الآبـاء في الأبناء حتى الجيل العاشر** وإلا فكيف يتم تبرير شمولية الحكم بطرد الكنعـانيين أو قتلهم؟ ولما لم يروا في ذلـك علـة كافيـة قـالوا: إن الكنعـانيين ذوي سـلوك بخس، ومن أجل آثامهم قرَّر الرب طردهم[٢].

أما الوعد العلني فقد كانت بدايته مع إبراهيم، الـذي وعـده الله بـالأرض وعداً أبدياً له ولنسله من بعده[٣]. وأكدَّ لـه ذلـك مـن خـلال معجـزة الطيـور والعجول[٤]، **وأصبح الحفـاظ على وعد الأرض، يعـني الحفـاظ علـى النسـل اليهودي بلا شوائب من الأغراب**، وكأنه هو الشرط الوحيد، ولذلك وضـع إبراهيم ابنه من المصرية بعيداً في الصحراء، حتى لا يكون له حصة في فلسـطين كما يزعمون، وأصبح ابنه الآخر «اسحق» يمثـل النسـل المنشـود، وكـان منـه «عيسو» و«يعقوب» إلا أن عيسو تزوج بالأجنبيات[٥]. فأحدث الكهنة قصة حرمانه من حق البكورية، عندما اشتراها منـه يعقـوب[٦]. الـذي حصـل علـى

(١) تكوين ٩ :٢٠- ٢٦.
(٢) تثنية ٩: ٤.
(٣) تكوين ١٣ :١٥.
(٤) تكوين ١٥ :٧- ١٧.
(٥) تكوين ٢٦ :٣٤- ٣٥.
(٦) تكوين ٤٥ :٢٣- ٣٤.

بركة أبيه، تلك البركة المغشوشة[1]. واستقر النسل بيعقوب، وأوصى أبيه - اسحق - عبده كبير بيته ألا يزوجه إلا من عشيرته، لأن الله ربط الوعد بالنسل، ولا يجب على الأرض أن تضيع. وعندما كان يعقوب في طريقه إلى ذلك الزواج، اكتشف أن الله والملائكة ساكنون حقاً في أرض كنعان، ومن خلال هذا الكشف جدَّد له الرب الوعد الذي كان قد وعده لإبراهيم[2]. وعندما هاجر إلى مصر مع بنيه السبعين، حيث ولده يوسف هناك، أحاطه علماً بما وعده الله إلى الأبد[3]. ويوسف بدوره ذكر الوعد لأخوته، وبشرهم بالخروج من مصر[4]. وبعدها انطوت ٤٠٠ سنة من تاريخهم طي الكتمان، فلا خبر ولا حديث عن هذه المدة في كل كتابهم وأسفارهم المقدسة التي أرخت لأحوالهم. وأخيراً جاء موسى، فأوصاه الرب بألا يعمل ميثاقاً أو عهداً مع سكان فلسطين،[5] وألا يصاهرهم بل قتلاً يقتلهم، دون شفقة ولا رحمة[6]. «وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها»[7].

أما النسل فمازال له القول الفصل، وعندما صنع لهم هارون العجل، الذي زعموا أنه هو الإله الذي أخرجهم من مصر، حمي غضب الرب، فقرر فناءهم، ولكن موسى ذكَّره بإرتباط الوعد والنسل، حتى ندم الرب على الشر الذي قال أنه سيفعله بشعبه[8]. ولنستمع إلى موسى وكيف يخاطب ربه، ليقول: «**إرجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك**. أذكر إبراهيم واسحق

---

(١) تكوين الأصحاح ٢٧.
(٢) التكوين ٢٨ :١٢، ١٣، ١٦، ١٧.
(٣) تكوين ٤٨ :٣- ٤.
(٤) تكوين ٥٠ :٢٤.
(٥) خروج ٣٤ :١٢.
(٦) تثنية ٧ :١- ٣.
(٧) عدد ٣٣ :٥٥.
(٨) خروج ٣٢ :٩- ١٤.

واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد»[1]. وبعدها أصبح الرب أو ملاكه يسير أمامهم[2]. لهدايتهم إلى الطريق المؤدي إلى سحق الشعوب السبعة.

وعندما دخل «يشوع» الأرض، عجز عن حسم الأمر، وبقيت الشعوب تقاتل، إلا أن الكاهن، يخشى أن يؤول الموقف، إلى تخلي الله عن وعده، أو عجزه عن تحقيق النصر، خاصة أنهم زعموا أنه يحارب معهم وإلى جانبهم، فقالوا: أن ما يحدث، هو خطة من الله مرسومة قبل يشوع، أليس هو القائل: «**لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. فقليلاً قليلاً أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك الأرض**»[3].

وعندما عجز اليهود عن تحقيق النصر الذي عجز عنه يشوع، قالوا أيضاً: إنها حكمة الرب القائل: «فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامكم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته. لكي أمتحن بهم اسرائيل أيحفظون طريق الرب ليسلكوا بها كما حفظها آباؤهم أم لا؟ فترك الرب أولئك الأمم و لم يطردهم سريعاً و لم يدفعهم بيد يشوع»[4].

وعندما سكن اليهود في الأرض، كان الشقاق بينهم، وكان الكهنة وراء ذلك كله، فعندما مات عدوهم سليمان، تولى الأمر بعده ابنه «رحبعام»، فألبوا عليه «يربعام بن نابط»، «**وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام**»[5].

وهل يعترف الكهنة بخبثهم؟ لا، وبما أن سلاحهم صنع الإيمان، فسوف ينحتون قصة عن الرب تؤيد يربعام، فقالوا: «لمَّا خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه اخيا الشيلوني النبي في الطريق وهو لابس رداء جديد وهما وحدهما في

---

(١) خروج ٣٢ :١٢- ١٣.
(٢) خروج ٢٣ :٢٣.
(٣) خروج ٢٣ :٢٧- ٣٠.
(٤) قضاة ٢ :٢١- ٢٣.
(٥) الملوك الأول ١٤ :٣٠.

الحقل. فقبض إخيا على الرداء الجديد الذي عليه **ومزقه إثني عشرة قطعة. وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله اسرائيل ها أنذا أمزِّق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط. ويكون له سبط واحد من أجل عبدي داوود ومن أجل أورشليم التي اخترتها من كل أسباط اسرائيل. لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت»**[١]. وأصبح اليهود دولتين: دولة يهوذا ودولة اسرائيل، في صراع دائم، وبعدها هزموا أمام المصريين والآشوريين والبابليين، وكان السبي والخروج عن الأرض، وأصبح الوعد مدار حديث دائم. أما النبي «ارمياء» رأى أن الوعد - الوعد بالأرض - مشروط وليس أبدياً كما زعم الكهنة، وتنبأ بالسبي البابلي قبل حدوثه، فأمر اليهود بالرضوخ تحت نير بابل لخدمتها «**سبعون عاماً**»[٢] كما صنع لنفسه نيراً وضعه على رقبته، ليؤكد لهم صدق ما تنبأ به[٣].

لقد تأمل «إرمياء» أحوال اليهود، وتذكر أن الوعد مشروط بسلوك طريق الرب وحفظه[٤]. أليس موسى هو الذي ربط بين البركة واللعنة والوعد؟[٥] فإذا حفظوا الوصايا فهم المالكون وإلا فإنهم مبددون في الأرض[٦]. والأصنام تبددهم[٧]. ومن جهة أخرى، تأمل «ارمياء» أحوال اليهود من الداخل، فوجد أن الحق والعدل مفقود بينهم[٨] وكل واحد منهم صهل على أمرأة صاحبه،[٩] حتى أصبح الكل زناة وخونة[١٠]، الكهنة والأنبياء آثمون، لقد سفكوا دماء

---

(١) الملوك الأول ١١ :٢٩- ٣٣.

(٢) ارمياء ٢٥ :١١.

(٣)(رمياء ٢٧ :١٢- ١٣، ٢٨ :١٠.

(٤) قضاة ٢ :٢١- ٢٣.

(٥) تثنية ٣٠ :١- ٤.

(٦) تثنية ١١ :٨- ٩، خروج ١٩: ٥، تثنية ١١ :٢٦ -٢٨.

(٧) تثنية ٤ :٢٥- ٢٧.

(٨) ارمياء ٥ :١.

(٩) ارمياء ٥ :٨.

(١٠) ارمياء ٩ :١٢.

الصديقين[١] وحولوا القفا للرب لا الوجه[٢]، بَّخروا وسجدوا للآلهة الأخرى[٣] ووضعوا الأصنام في بيت الرب، وجوزوا ابناءهم وبنيهم في النار، على عادة الوثنيين[٤] «**فرذل الرب كل نسل اسرائيل وأذلّهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طردهم من أمامه**»[٥]. وحاول الكهنة تجاوز الحدث مع الحفاظ على معنى الوعد الأبدي فقالوا: أن السبي ليس إلا غربلة لبني اسرائيل[٦] وقالوا: أن الرب يقول «**لا أحقد إلى الأبد**»[٧]. «وأيضاً في تلك الأيام يقول الرب **لا أفنيكم**»[٨]. كما قالوا أن المصاب مصاب الله نفسه، فعندما رأى فظاعة ما حدث لشعبه راح يبكي - والعياذ بالله مما يصفون - ويولول وهو يقول: «**ويل لي من أجل سحقي ضربتي عديمة الشفاء فقلت إنما هذه مصيبة فأحْتَمِلُها**»[٩]. وعندما أراد الكهنة فصل سلوك الآباء الآثمين، الذي أدى إلى السبي، عن التأثير في عودتهم إلى الأرض، قالوا: «النفس التى تخطىء هي تموت الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون»[١٠].

وعندما خشي الكهنة من احتجاج الشعب اليهودي، بموتاه الأعزاء الذين يصعب فراقهم، قالوا: إن موتاكم سيعودون معنا أحياء وحزقيال يقول: «ثم قال لي يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت اسرائيل هاهم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا قد انقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب إني أنا الرب عند فتحي قبوركم واصعادي إياكم من قبوركم ياشعبي. وأجعل

(١) مراثي ارمياء ٤ :١٣.

(٢) ارمياء ٢ :٢٧.

(٣) ارمياء ١ :١٦.

(٤) ارمياء ٧ :٣٠- ٣١.

(٥) ملوك الثاني ١٧ :٢٠.

(٦) عاموس ٩ :٨- ٩.

(٧) ارمياء ٣ :١٢.

(٨) ارمياء ٥ :١٨.

(٩) ارمياء ١٠ :١٩.

(١٠) حزقيال ١٨ :٢٠.

روحي فيكم فتحيون واجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب»[١].

وقد أصابهم الحنين إلى الأرض والشوق إليها بلوثة من الجنون، حتى راحوا يصفون مفاتن الحسناء بخلاعة، بعد أن استعاروا تكوينها أو صورتها من الأرض التي كانت لهم، أو التي تعرَّفوا عليها فقالوا: «ثدياك كخشفتين توأمي ظبية. عنقك كبرج من عاج، عيناك كالبرك في حشبوت عند باب بث ربيم، أنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق. رأسك عليك مثل الكرمل»[٢].

لقد تعهدهم الرب بالعودة من السبي، بعد انقضاء سبعين سنة[٣] ولكن على الشعب عدم نسيان الكاهن بعد هذه المدة الطويلة، وها هو الرب يكلمنا عن صورة الفرح التي رسمها للعودة قائلاً: «**حينئذ تفرح العذراء بالرقص والشبان والشيوخ معاً وأحوِّل نَوْحهم إلى كرب وأعزِّهم وأفرِّحهم من حزنهم. وأروي نفس الكهنة من الدسم**»[٤]. فما عليك أيها الشعب إلا الإطمئنان، فقد «حلف الرب بيمينه وبذراع عزته قائلاً إني لا أدفع بعد قمحك مأكلاً لأعدائك»[٥] فلا تشريد بعد العودة «**فلا يكونون بعد غنيمة للأمم ولا يأكلهم وحش الأرض. بل يسكنون آمنين ولا مخيف**»[٦].

وهل كان لهم هذا الوعد بالفعل؟ لا، فبعد العودة من السبي «وفي سنة ٢٠٣ ق.م وقعت يهوذا ثانية تحت حكم ملوك سوريا السلوسيديين.. وها هو «بوجيه» الروماني يستولي على مملكة يهوذا ويجعلها إقليماً رومانياً، وفي سنة ٧٠ بعد الميلاد، يثور اليهود على الرومان فيضطر الرومانيون لأخذ أورشليم ويأمر ملكهم «تيتوس» باحراق معبدهم وذبح معظم أهلها، وبيع من بقي منهم ولم يمضي غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانياً، ولكن ثورة

---

(١) حزقيال ٣٧ :١١- ١٤.

(٢) نشيد الأنشاء ٧ :٣- ٥.

(٣) ارمياء ٢٩ :١٠.

(٤) ارمياء ٣١ :١٣- ١٤.

(٥) اشعياء ٦٢ :٨، ٦٠ :١٨، ٥٢ :١.

(٦) حزقيال ٣٤ :٢٧- ٢٨.

أخرى جعلت الأمبراطور الروماني «ادريان» سنة ١٣٥م يأمر بهدم المدينة من أساسها، وذبح ٥٠٠٠٠٠ من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة»[١]. وبعدها فما من مكان حلوا فيه إلا وطردوا منه «وإليك أيها القارىء لائحة بحوادث الطرد: في انكلترا طرد الملك أدوار اليهود سنة ١٢٩٠م. وفي فرنسا طردهم فيليب الجميل سنة ١٣٠٦م.. وفي المجر طردوا سنة ١٣٦٠م.. وفي بلجيكا طردوا عام ١٣٧٠م»[٢]. وليس هذا إلا فيضاً من غيض! ولكنهم عادوا تارة أخرى لاحتلال فلسطين، وإذا ما أخذوا بمفهوم الغربلة فسوف يزعمون بأستمرار الوعد إلى الأبد، ولكن بما أن قصة الأرض والمختار ترتبط عندهم با لله فلابد إذن من النظر في رأي القرآن بما أن ما فيه ينتمي إلى نفس الإله الذي آمن به أنبياء اليهود.

- القرآن وقضية الأرض والنسل عند اليهود:

إن من يقرأ القرآن يندهش من كثرة النصوص التي تحاور قضايا اليهود، وكأن قضية احتلال فلسطين هي المحور الرئيسي، علماً أن «أول ترجمة - للعهد القديم - إلى العربية جرت بعد انتشار الإسلام في العصر العباسي الأول، أو عند منصرم الفترة الأموية، ولا توجد قرائن عن وجود ترجمة عربية من العهد القديم سابقة للإسلام»[٣].

وعلاقة الأرض بالنسل أو الشعب المختار واحدة من تلك القضايا الهامة، فعندما زعمت التوراة التي بين أيدينا، أن معجزة إحياء الطيور والعجول - التي لم يذكروا سواها - بين يدي إبراهيم، كانت لتشهد على صدق وعد الأرض من ا لله إليه، قال القرآن أن هذه المعجزة لا علاقة لها بالأرض، وإنما هي برهان على قدرة ا لله في إحياء الموتى وفي ذلك يقول عز وجل:

---

(١) ص٩٠ - ٩١ اليهود في القرآن.

(٢) ص٩٢ نفسه.

(٣) ص٢٩ التوارة.

﴿إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم أجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن ا لله عزيز حكيم»(١).

وعندما قالوا أن الذبيح من ولدي إبراهيم هو اسحق، ليربطوا الحدث بقصة النسل والأرض، **قال القرآن أن الذبيح هو اسماعيل ابن الغريبة،**(٢). **وليس اسحق**. بل أن القرآن يرفض أن يكون النسل معياراً قائماً بذاته **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلك للناس إماما قال: ومن ذريتي قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾**(٣).

نعم لقد فضَّل ا لله اليهود على غيرهم من الشعوب، لحمل رسالته، وهو القائل: **﴿وإني فضلتكم على العالمين﴾**(٤) **﴿وهو فضلكم على العالمين﴾**(٥) ووعدهم بالأرض المقدسة التي يسكنها الفسقة **﴿سأريكم دار الفاسقين﴾**(٦). **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب ا لله لكم﴾**(٧) ولكن اليهود قالوا: نحن شعب ا لله المختار وأحباؤه إلى الأبد، ووعد الأرض أبدي ما دام هنالك إله موجود! فقال القرآن: أنهم كذبة **﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾ ﴿ويقولون على ا لله الكذب وهم يعلمون﴾**(٨).

إنهم يعلمون أن الوعود مشروطة، وإذا سقط الشرط فلا وعد، وما الذي قاله موسى؟ **﴿قال موسى لقومه استعينوا با لله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾**(٩). وما هي التقوى إن لم تكن

---

(١) البقرة ٢٦٠.

(٢) الصافات ٩٩- ١١٣.

(٣) البقرة ١٢٤.

(٤) البقرة ٤٧.

(٥) الأعراف ١٤٠.

(٦) الأعراف ١٤٥.

(٧) المائدة ٢١.

(٨) آل عمران ٧٨.

(٩) الأعراف ١٢٨.

الحفاظ على شريعة الرب؟ وهل نسي اليهود علة تشريدهم في الصحراء أربعين سنة، أليس لأنهم فسقة: ﴿**قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾(١). وهل جزاء الفاسقين أرض مقدسة؟!.

ليس من وعد غير مشروط ﴿**يا بني اسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون**﴾(٢) فهل حافظ اليهود على بنود هذا الحلف أو الميثاق والعهد؟ يقول الله عز وجل: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾(٣)، كالحجارة(٤).

فليس من وعد أبدي مبعثه الحب من أجل الحب، وإذا دخلتم الأرض يقول الله ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى**﴾(٥)، ومسخهم الله حتى أصبحوا كالقردة والخنازير(٦). وشردهم في بحور من العذاب والآلام ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم**﴾(٧).

لقد أصبح الشعب المختار شعباً ملعوناً من الله ﴿**لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾(٨)، ﴿**أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم هم في**

---

(١) المائدة ٢٦.

(٢) البقرة ٤٠.

(٣) المائدة ١٢ -١٣، النساء ١٥٤، البقرة ٨٣.

(٤) البقرة ٧٤.

(٥) طه ٨١.

(٦) المائدة ٦٠.

(٧) المائدة ١٨.

(٨) النساء ٤٦.

الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1] وهل الإذلال نصيباً للذي اجتاره الله إلى الأبد؟ إلا أن الله يقول: **﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا﴾** وصدق الله وكذب اليهود فيما يزعمون.

لقد قتلوا أنبياءهم[2]، إنهم أعداء الله، فهم وراء كل حرب وفاسد على الأرض **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً﴾**[3] **﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾**[4].

وقد يقول قائل خاصة من أولئك الذين يشتركون معهم فيما آمنوا به: كل ذلك صحيح، ولكن ذلك كان، وربما أن اليهود أخلصوا لربهم حتى عادوا إلى فلسطين تارة أخرى، إنها الغربلة، فنقول: إذا كان الحفاظ على ما يقوله الله هو شرط الحلف، فإن الله اشترط عليهم الإيمان بنبوة محمد(ص)، وإلا فهم أعداؤه، وقد أمرهم قائلاً **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾**[5] إلا أنهم كفروا بما أنزل على محمد **﴿بئس ما اشتروا به أنفسهم، أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾**[6].

وهل من المعقول أن يعذب الله شعباً بالحب أو الاصطفاء وتمليك الأرض؟! لا، فلا هم أصبحوا شعب الله المختار، ولا لهم أرض في فلسطين. لقد انقطع حبل الله الذي كان يربطهم بالأرض، ولم يبق لهم إلا الدسائس والمؤامرات، وعن هذا الطريق كان احتلالهم لفلسطين، والله عز وجل هو

---

(١) المائدة ٤١.

(٢) البقرة ٨٥.

(٣) المائدة ٦٤.

(٤) المائدة ٦٢.

(٥) البقرة ٤١- ٤٢.

(٦) البقرة ٩٠.

القائل: ﴿**ضُربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من ا لله وحبل من الناس وباءوا بغضب من ا لله وضربت عليهم المسكنة**﴾[١].

وأخيراً بيَّن ا لله للمسلمين ضرورة الحذر من اليهود[٢] ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا**﴾[٣] ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب ا لله عليهم**﴾[٤]، وهل لفلسطين التي فيها أولى القبلتين صراخ إلا واأسلاماه ﴿**وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب**﴾[٥]. واليهود بدورهم، لا يرون لهم عدواً على الحقيقة إلا وجود ذلك المسلم، لأنه الوحيد الذي يستطيع فصل الوعد عن الأبد، وربطه بالاغتصاب ما دام هنالك قرآن يُقرأ.

ومن كل ما مضى، نجد أن التحريف بالإجمال، تمَّ عند ربط الوعد، كل وعد بالأبد، بجعل الإيمان وسيلة نفع للكهنة، وقد رأينا ذلك عند الحديث عن مواردهم، وعند رؤية أحلام العودة التي تقول: «وأروي نفس الكهنة من الدسم» ومن أجل الدسم بالفعل، أصبحت مقولتنا شعب الله المختار ووعد الأرض أبديتين، ومن أجله صار الكاهن ملحداً، حتى امتد إلحاده ليشمل الإيمان با لله وكل شعيرة في ديانة اليهود.

- الله بين الإلحاد والإيمان

تقول التوراة بإله أحد خلق كل الكون، كما تقول بتنزيهه عن الصور والأشكال، وفي «حوريب» عند لقاء اليهود بالرب، حيث كلمهم، قالوا أنهم لم يروا شيئاً[٦]. وعلى الرغم من ذلك كله، نجد التجسيم وكل معانيه

---

(١) آل عمران ١١٢.

(٢) آل عمران ١١٨.

(٣) المائدة ٨٢.

(٤) الممتحنة ١٣.

(٥) الأعراف ١٦٧.

(٦) تثنية ٤ :١٥- ١٩.

يرافق الإله تارة أخرى، ولو التزموا بما يعنيه الخبر، لانفصل التجسيم عن الكلام، وليس هذا كل الأمر، بل أغراضهم ماتزال كامنة وراء كل عودة نحو البدائية، والمدقق يرى أن كل مرحلة من تاريخهم بشكل عام، ذات تأثير خاص على معتقداتهم.

- الله والوعود الأبدية:

لقد قال الكهنة أن وعود الله لبني اسرائيل أبدية، ومن أجل تجاوز الزمن، نجد أن الله عندهم لا كالبشر، وإذا ما وعد فلن يندم «**نصيح اسرائيل لا يكذب ولا يندم لأنه ليس إنساناً ليندم**»،[1] أو ابن إنسان،[2] ومن صفاته الأمانة، ليس لشيء، وإنما لأنه يجب عليه أن يحافظ على عهوده التي قطعها لهم،[3] وهو رحيم لنفس السبب[4]، ومن صفاته القدرة، إنه قدير لا حدود لقدرته، وكل ما يأمر به يكون، لا تغيير في أفكاره من دور إلى دور، هذا إذا قاتل كل الشعوب الغريبة[5].

- التجسيم بين الأرض وبيت الرب:

الأرض الموعودة هي الأرض المقدسة، لأن الرب يسكن فيها، «فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً **إن الرب في هذا المكان** وأنا لم أعلم. وخاف وقال ما أرهب هذا المكان ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء»[6] ومن أجل الأرض تم تحديد الله، إنه المحدود الذي جعلوه **يسكن في جبل صهيون**[7].

وبيت الرب مصدر الرزق والقوة، ومن أجل أن يضمن الكهنة استمرار أرزاقهم وقوتهم، قالوا بأن الله يأكل ويشرب، وإبراهيم رأى الله ورجلين

---

(١) صموئيل الأول ١٥ :٢٩.

(٢) عدد ٢٣ :١٩.

(٣) تثنية ٧ :٩.

(٤) تثنية ٤ :٣١.

(٥) مزامير ٣٣ :٩- ١١.

(٦) تكوين ٢٨ :١٦- ١٧.

(٧) اشعياء ٨ :١٨، يوئيل ٣ :٢١.

معه فعرفه من بينهما، فصنع لهم الطعام **«ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا»**(١).

بيت الرب هو مكان الرب على الحقيقة، وهو الذي أمرهم أن يبنوا له مسكناً، ليسكن في وسطهم(٢) فقد سئم العيش في الضباب والسحاب،(٣) ألم يكن يتكلم من داخل خيمة الإجتماع؟(٤). نعم، وها هو قد أصبح قائماً في المذبح(٥) وليس ذلك فحسب، بل أصبح له بيتاً داخلياً خاصاً في بيت الرب، ولهذا البيت مدخلاً خاصاً يؤدي إليه،(٦) إنه يأتي ويحضر إلى المحلة،(٧) ويمشي على رؤوس الأشجار(٨) إن شاء، وها هي الرسائل تقرأ أو تنشر أمامه،(٩) وها هو يقف على الحائط وبيده زيج،(١٠) و**«في سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل»**،(١١) إن لقدميه موطىء(١٢) وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق،(١٣) أليس سمع آدم من قبل، صوت مشيته حتى أختبأ منه،(١٤) وها هو داوود يغني ويقول: «صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت جمر اشتعلت منه. طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه. ركب على كروب وطار **ورئي على أجنحة الريح»**،(١٥).

---

(١) تكوين ١٨ :١-٨.

(٢) خروج ٢٥ :٨.

(٣) الملوك الأول ٨ :١٢- ١٣.

(٤) لاويون ١ :١.

(٥) عاموس ٩ :١.

(٦) حزقيال ٨ :١٦.

(٧) صموئيل الأول ٤ :٧.

(٨) صموئيل الثاني ٥ :٢٤.

(٩) اشعياء ٣٧ :١٤.

(١٠) عاموس ٧ :٧.

(١١) اشعياء ٦ :١.

(١٢) مزامير ٩٩ :٥.

(١٣) خروج ٢٤ :١٠.

(١٤) تكوين ٣ :٨.

(١٥) صموئيل الثاني ٢٢ :٩- ١١.

وعندما أراد موسى أن يراه قال له: لا تستطيع رؤية وجهي، **بل الظهر فقط، «فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يرى»**،[1] و«ايليا» غطى وجهه برداء عندما كلمه في مغارة حوريب،[2]. وسفر حزقيال يقول: «فحملني روح وأتى بي إلى الدار الداخلية وإذا بمجد الرب قد ملأ البيت. **وسمعته يكلمني من البيت وكان رجل واقفاً عندي. وقال لي يا ابن آدم هذا مكان كرسيَّ ومكان باطن قدميَّ حيث أسكن في وسط بني اسرائيل إلى الأبد**»، [3] إنه رجل أشيب. ولذلك على ما يبدو، انتصر يعقوب عليه في المصارعة، «**فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوق في مصارعته معه. وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك فقال يعقوب. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقَدَرْت**»[4]. وعلى ما يبدو، أن يعقوب كان أعرجاً، حتى اختلقوا هذه القصة، التي تستطيع تجاوز ما به من ضعف.

- الحرب وصفات الله:

إن الله محارب عنيد، يريد تحرير أرضه المسلوبة، هذا ما زعمه الكهنة، وجسموا الحرب بالعضلات المفتولة فقالوا: «**الرب رجل الحرب**»،[5] الذي يحارب عن بني اسرائيل في كل معاركهم،[6]. إنه الذي علّمهم القتال وفنون الحرب، «**مبارك الرب صخرتي الذي يعلم يدي القتال وأصابعي الحرب**»[7]، يرشدهم إلى الطريق في حلهم وترحالهم، بشكل دائم ليلاً ونهاراً، فإذا لم ترتفع سحابته عن المسكن فهو بينهم، وإذا ارتحلت رحلوا حيث

---

(١) خروج ٣٣ :٢٣.

(٢) الملوك الأول ١٩ :١١، ١٣.

(٣) حزقيال ٤٣ :٥- ٧.

(٤) تكوين ٣٢ :٢٤- ٢٨.

(٥) خروج ١٥ :١٣.

(٦) تثنية ٣ :٢٢.

(٧) مزامير ١٤٤ :١.

برشدهم[1]. «**وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمد نار ليضيء لهم**»[2] إنه أمامهم دائماً لإبادة الأمم[3]، وانتصر اليهود على المصريين مثلاً، عندما حلَّ الرب بكرات مركباتهم،[4] فقد حرص على سلامة بني اسرائيل أمام كل الأخطار، كما يحمل الرجل إبنه وكما تحمل الأم وليدها حملهم[5].

إن هذا التجسيم الذي أوجدته ظروف الحرب، امتدت آثاره إلى عقيدتهم في الإله أو التوحيد، وقد أصبح التوحيد يعني الواحد بالمعنى الرياضي، «**اسمع يا اسرائيل الرب إلهنا رب واحد**»[6] ولما كان النصر في المعارك هو انتصار الإله على الآلهة الأخرى حسبما تمليه بيئة «الطوطم» الثقافية، قال الكهنة وهم يضاهئون أعداءهم: «**الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة**»[7]. كما قالوا لنفس السبب: أن «**ا لله قائم في مجمع ا لله في وسط الآلهة يقضي**»،[8]. إنه زعيم الآلهة، إنه أعظمهم «**من في السماء يعادل الرب من يشبه الرب بين أبناء ا لله**»[9] فلله أبناء، والطريق نحو الألوهية أسهل، وآدم بأكله من شجرة المعرفة، فقط أصبح واحداً من الآلهة،[10]. إنه التجسيم والتعدد و«**قال الرب لربي إجلسي عن يميني**»،[11]. وإذا ما قورن الرب بالملك في بعض الأحيان، فالملك القوي عند اليهود ينعت بالألوهية، وقالوا أنه يفعل إلى دهر الدهور،[12]. وليس الإله عندهم يستطيع ذلك على الدوام.

---

(١) خروج ٤٠ :٣٦- ٣٨، عدد ٩ :١٨- ١٩، ١٠ :١١- ١٢.

(٢) خروج ١٣ :٢١.

(٣) تثنية ٣١ :٢.

(٤) خروج ١٤ :٢٤- ٢٥.

(٥) تثنية ١ :٣١.

(٦) تثنية ٦ :٤، صموئيل الثاني ٢٢ :٣٢.

(٧) خروج ١٨ :١١ تثنية ١٠ :١٧.

(٨) مزامير ٨٢ :١.

(٩) مزامير ٨٩ :٦.

(١٠) تكوين ٣ :٢٢.

(١١) مزامير ١١٠ :١.

(١٢) مزامير ٤٥ :٦.

وهل انتصر اليهود في كل حروبهم؟ لا، فقد ذاقوا الأمرين من أعدائهم، ولابد أن ينعكس هذا على الرب، وإذا كان أعداؤهم كسكان الوادي مثلاً يملكون مركبات الحديد في هروبهم، فإن ا لله عاجز عندها عن تحقيق النصر(١) وعند توالي الهزائم الكثيرة، نسبوا إلى ا لله الجهل وعدم التمييز، فشَّبهوه – والعياذ با لله – بالدب، الذي لا يعرف الصديق من العدو، «**هو لي كدب كامن**»،(٢) وعدم القدرة على التمييز من صفاته القديمة، فعندما أراد أن يضرب كلِ بكرٍ من المصريين مثلاً، طلب علامة من بني اسرائيل، حتى لا يخطىء فيضرب أبناءهم(٣).

– السبي وصفات الله:

لقد حلّت المصائب في بني اسرائيل، فهزموا في كثير من المعارك، وشردوا بعيداً عن ديارهم، إلى بابل وآشور، ولكن كيف ذلك وهم أحباب ا لله، وهم الذين وعدهم بالأرض إلى الأبد؟ والطامة الكبرى إذا ما آمن الشعب اليهودي بأن ا لله قد تخلى عنهم، فعندها لا أرض ولا نسل ولا عشور ولا قرابين ولا بيت للرب ولا كهانة، وهو الخسران المبين، فقال الكهنة: أن الندم من صفات ا لله وبهذه الفكرة: حافظوا على الوعود وتجاوزوا النكبات والمصائب.

إن ا لله يندم، أليس هو القائل: «**ندمت على أني جعلت شاول ملكاً**»(٤). ألم يندم كثيراً على الشر الذي قرَّر أن يفعله بشعبه، عندما كانت تنجلي الأمور أمامه بشكل أوضح؟(٥). وعندما يدرك ما أخطأ به، فلن يتوانى عن البكاء والعويل، وها هو يقول: «**فإن نفسي تبكي في أماكن مستترة من أجل الكبرياء وتبكي عيني بكاء وتذرف الدموع لأنه قد سبي قطيع الرب**»(٦).

---

(١) قضاة ١ :١٩.

(٢) مراثي ارمياء ٣ :١٠.

(٣) خروج ١٢ :٧، ١٢– ١٣.

(٤) صموئيل الأول ١٥ :١١.

(٥) عاموس ٧: ٥– ٦)(صموئيل الثاني ٢٤ :١٦.

(٦) ارمياء ١٣ :١٧.

لقد أدرك أنه تسرَّع بقذفه الشعب اليهودي إلى الأعداء، فندم وأصبح المصاب مصابه، ولولا الكبرياء، لبكى الرب علناً أمام الجميع، معترفاً لهم بما أخطأ به.

الندم يعني البداء، والبداء يعني الجهل، والنسيان والجهل من بعض الوجوه سيان، وأن الرب كالإنسان، ينسى ويذكر، ولابد للذكر أو التذكر من مناسبة، وإلا فالنسيان أولى «**فسمع ا لله أنينهم فتذكر ا لله ميثاقه مع إبراهيم واسحق ويعقوب. ونظر ا لله بني اسرائيل وعلم ا لله**»[1]. أي علم ا لله بعد الجهل أو النسيان، وكذلك يقول: «**إني قد تذكرت كل شرهم**»[2].

ومن أجل التوفيق بين الوعود والمصائب قال الكهنة: أن اليهود ذوي نسب ينتمي إلى الرب، ومن المحال من أجل ذلك أن يتخلى عنهم، فاسرائيل هو ابنه البكر(خروج ٤ :٢٢). وهل تستطيع الأم نسيان رضيعها؟ لا، كذلك فإن ا لله لا ينسى أبناءه[3]. إنهم بنو ا لله،[4]. الذين لم يطلّق أمهم[5]، وما الذي قاله الرب عن سليمان؟ قال: «**أنا أكون له أباً وهو يكون لي إبناً**»[6]، فقد صنعه من الأزل قبل وجود الطين، وقبل خلق السموات والأرض، ليلتذ به ويلتذ هو في بني آدم[7].

ولكن اليهود أوّلوا البنوة، وهو جائز لهم، و«اشعيا» بيّن دروب التأويل، عندما نقل البنوة من التخصيص إلى التعميم بقوله: «**والآن يارب أنت أبونا نحن الطين وأنت جابلنا وكلنا عمل يديك**»[8]. وهذا معناه أن كل الناس هم أبناؤه بلا تمييز، وهل يرضى الكهنة بتمييع الوعود؟

---

(١) خروج ٢ :٢٤- ٢٥، اشعياء ٤٩ :١٤.

(٢) هوشع ٧ :٢.

(٣) اشعياء ٤٩ :١٤.

(٤) أيوب ٢ :١، أمثال ٣٠ :٣، تثنية ٣٢ :٥، ١٩، ٢٠، ١٤ :١، أيام الأول ٢٩ :١٠، مزامير ١ :٧- ٨، اشعياء ٦٣ :١٥- ١٦.

(٥) اشعياء ٥٠ :١.

(٦) صموئيل الثاني ٧ :١٤، الأيام الأول ١٧: ١٢- ١٣، ٢٢ :١٠، مزامير ٨٩ :٢٦- ٢٧.

(٧) أمثال ٨ :٢٢- ٣١.

(٨) اشعياء ٦٤ :٨.

أما إذا ذهبنا إلى سِفر التكوين، فسوف يمنعنا مـن التأويل، لأن التأويل لا يستطيع تغيير الوجود أو المُدْرَك، والآيات تقول: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات. أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم»(١). أما إذا جعلنا النتيجة مقدمة، فسوف نقول: إن هذه القصة لم تكن، إلا لتعليل وجود أولئك الناس، ذوي الأجسام الغير عادية، المميزة بالقوة والعظمة، فنسبوها إلى أصل عظيم، إلى الله، إلى أبنائه.

وبإجمال ما سلف يمكننا أن نقول: أن الله عند اليهود، ينتمي إلى التجسيم والتعدد، وصفاته متناقضة، إنه يندم، ولا يندم، جبار وضعيف، عليم وجهول، وإلى ما هنالك. ولكن إذا كان إلههم هكذا فأين هو الإلحاد؟ إنه في جعل الأغراض والأحوال السياسية معياراً في صناعة الإيمان، أو تحريفه. إلا أن إله الأغراض ليس موجوداً في كل العهدَ القديم، وغالباً لا وجود له عند الأنبياء المتأخرين، وفي سفر «نحميا» تقول الآيات: «**أنت هو الرب وحدك أنت صنعت السموات وسماء السموات وكل جندها والأرض وكل ما عليها والبحار وكل ما فيها أنت تحييها كلها وجند السماء لك يسجد**»(٢). وفي «اشعياء» تقول: «**أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي باسط الأرض من معي**»(٣). «التفتوا واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر. بذاتي أقسمت خرج من فمي الصدق لا ترجع إنه لي تجثو كل ركبة يحلف كل لسان»(٤). «**أنا الأول والآخر ولا إله غيري**»(٥) فهنا نجد

(١) تكوين ٦ :١، ٤.
(٢) نحميا ٩ :٦.
(٣) اشعياء ٤٤ :٢٤.
(٤) اشعياء ٤٥ :٢٢- ٢٣.
(٥) اشعياء ٤٤ :٦.

التوحيد والقدرة والتنزيه، ومن غير المعقول أن يكون هو نفسه الإله الذي وصفوه بالتجسيم والعجز والجهل. أما «اسبينوزا» فيقول لا وجود للإلحاد، والأمر معلّق بالاستعداد، ولكل نبي تجربته الخاصة التي جعلته يتمثل الوحي من خلالها، وفي ذلك يقول: «اختلف الوحي عند كل نبي، طبقاً لمزاجه وخياله، ووفقاً للآراء التي اعتنقها من قبل، وتحدث فروق المزاج على النحو الآتي: إذا كان النبي ذا مزاج مرح، توحي إليه الحوادث التي تعطي الناس الفرح مثل الانتصارات والسلام.. وعلى العكس من ذلك إذا كان النبي ذا مزاج حزين، توحي إليه الشرور كالحرب والعذاب، وإذا كان النبي رحيماً ألوفاً غضوباً قاسياً كان قادراً على تلقي هذا الوحي أو ذاك، كذلك فإن فروق الخيال، تكون على النحو الآتي: إذا كان النبي مرهفاً، فإنه يدرك فكر الله ويعبر عنه بأسلوب مرهف أيضاً، وإذا كان مهوشاً أدركه مهوشاً، ومثل هذا يصدق على الوحي الذي يتمثل بالصورة المجازية، فإذا كان النبي من أهل الريف كانت صورة الوحي متضمنة للأبقار والجاموس، وإذا كان جندياً تكون صورة قواد وجيش، وأخيراً إذا كان رجل بلاط، تمثل له عرش ملك وما شابه ذلك، وأخيراً فهناك أيضاً فروق ترجع إلى اختلاف آراء الأنبياء»(١). ولكن لم يبرهن لنا أحد على سبيل المثال، أن يعقوب كان مصارعاً بارعاً جباراً، بل بالعكس، فقد سجد ذلاً أمام عيسو. والحقيقة أن اختلاف أغراض اليهود، هي التي قامت بصياغة إيمانياتهم أو تحريفها، حتى اختلفت صفات الله بالفعل، ولو نظرنا جيداً في قضية الله، لرأينا أن العهد القديم حوى إلهين: إله ينتمي إلى التوحيد والتنزيه أو الخبر، وإله ينتمي إلى الأغراض والتجربة، ولا شيء ثالث، كالاستعداد أو اختلاف التجربة أو الأمزجة، بإمكانه تبرير التناقضات التي لمسناها، على طول هذا العهد وعرضه، اللهم إلا إذا ساوينا بين الأغراض والاستعداد على سبيل المثال.

---

(١) ص١٥٠ - ١٥١ رسالة في السياسة واللاهوت.

- الإلحاد والصراع بين الكهنة والأنبياء:

لقد رأينا فيما مضى الصراع بين الكهنة والملوك، ولابدَّ لنا في هذا المقام، من رؤية العلاقة بين الكاهن والنبي.

من المعلوم أن النبوة في بعض معانيها هي خبر عما لا يُدْرَك، وليس هنالك من يشهد على صدق ما يقوله النبي، إلا هو والله، وتجربة الأمانة والمعجزة، هما اللتان تشهدان على صدق النبوة لا غير، وإلا فإنها فوق المعايير، أو قل أنها ستبقى قضية فارغة لا معنى لها إلا الأغراض، والقضية التي يتأبط بها الملحد عندئذ تقول: إذا كان النبي ينبئنا عما فوق العالم، فيجب على الأقل أن نثق بأمانته، لتصديق الخبر الذي يأتينا به، عما وراء العالم، أما إذا كان كاذباً في سلوكه المُدْرَكْ، فكيف لنا حينئذ الإيمان بقضاياه اللامدركة؟ ومن خلال هذا المنطق، يتوجب علينا النظر في خلقيات أنبياء بني اسرائيل، لنرى إن كان بإمكانها أن تنطلق بنا إلى ما فوق العالم أم لا؟.

اليهود لم يقولوا بالإقتران الضروري بين النبوة والعصمة، فكل الناس سواء و **ليس إنسان لا يخطىء**»[١]. بل ويجوز على النبي الكذب: «**الأنبياء يتنبأون بالكذب**»[٢] أو يجوز أن يعلّموا الناس بالكذب. و«**النبي الذي يعلّم بالكذب هو الذنب**»[٣]. كما أنه يجوز على الله أن يضلل بالأنبياء: **فإذا ضلَّ النبي وتكلم كلاماً فأنا الرب قد أضللت ذلك النبي**»[٤]. وهنالك نصوص تنسب كذب الأنبياء أو ضلالهم إلى المسكر وشرب الخمر: فـ«**الكاهن والنبي ترنحا بالمسكر ابتلعتهما الخمر تاها من المسكر ضلا في الرؤيا قلقا في القضاء**»[٥]. أو إلى الشياطين والأهواء: «**ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئاً.**

---

(١) ملوك الأول ٨ :٤٦.

(٢) ارمياء ٥ :٣١.

(٣) اشعياء ٩ :١٥.

(٤) حزقيال ١٤ :٩.

(٥) اشعياء ٢٨ :٧.

أنبياؤك يا اسرائيل صاروا كالثعالب في الخرب»[1]. أو إلى المكر وإدعاء النبوة: «**بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم»**[2].

فالأنبياء حسب علاقتهم بالكذب ووفق تلك الآيات والروايات، إما كذبة بوحي كاذب من الله، وإما بوحي كاذب من أنفسهم. وأنا أظن وليس كل الظن إثم، أنهم جوزوا الكذب على الله، لاصطدام أغراضهم بالأنبياء، ذوي النبوءات أو المعجزات الصادقة[3]. ومما يعزز هذا الرأي، أن حوادث قتل الأنبياء عند اليهود كثيرة جداً حتى قيل: «**أكل سيفكم أنبياءكم كأسد مهلك»**[4] كما أنهم لم يسمعوا إلى كل من أرسل لهم[5]. كل ذلك يشير إلى أنِ معايير صدق النبوة لديهم هي المستقيمات التي جسدت أغراضهم التي ارتبطت بالكاهن والمختار والأرض.

- الأنبياء زناة:

وليس الكذب هو النقيصة الوحيدة التي التصقت بأنبياء اليهود، بل هم زناة أيضاً، **إبراهيم إنتهازي، فقد استغل جمال زوجه مرتين في سبيل أغراضه: مرة مع أبي مالك، ومرة أخرى مع فرعون مصر**[6]. **أما «لوط» فقد زنى بأبنتيه، وحملتا منه**[7]. **ويعقوب كشف عورة الأختين في وقت واحد، و«ليئة» من بينهما لم يكن له عليها عقد قران، فبالزنى تزوجها**[8]. **وابنه «رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع اسرائيل»**[9]- أي يعقوب - بالأمر و لم يحرك

---

(١) حزقيال ١٣ :٣- ٤.

(٢) ارمياء ١٤ :١٤.

(٣) تثنية ١٣ :١، ٣، ٥.

(٤) ارمياء ٢ :٣.

(٥) ارمياء ٧ :٢٥- ٢٦.

(٦) تكوين ١٢ :١٠- ٢٠.

(٧) تكوين ١٩ :٣٠- ٣٦.

(٨) تكوين ٢٩ :٣٤.

(٩) تكوين ٣٥: ٢٢.

ساكناً لذلك. وليس هذا فحسب، بل إن الله يوحي بالزنا ويأمر به، فقد **«قال الرب هوشع إذهب خذ لنفسك إمرأة زنى وأولاد زنى»**[١].

وهل الزنا مباح في شريعتهم؟ بالعكس، فالكهنة لا يرضون عنه، وهنا سر المسألة، فمن أجل إيجاد قيمة الكاهن أصبح الأنبياء زناة، وإنها لمعادلة بسيطة لا يحتاج تبريرها إلى إرهاق الذهن، فقد قتلوا آل شكيم بخديعة الختان، لأنهم زنوا بابنة النبي يعقوب، الذي لم يهتم بالأمر كعادته، والكاهن «فينحاس» طعن اليهودي الذي زنى بالمديانية بالرمح، فقتلهما معاً، وها هو الرب يقول: **«فينحاس بن ألعازار بن هرون الكاهن قد ردَّ سخطي عن بني اسرائيل** بكونه غار غيرتي في وسطهم حتى لم أفن بني اسرائيل بغيرتي **لذلك قل هأنذا أعطيه ميثاق السلام. فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي** لأجل أنه غار لله وكفّر عن بني اسرائيل»[٢].

- الأنبياء مجرمون:

وليس الكذب والزنى مما يجوز على الأنبياء فقط، بل هم مجرمون وقتلة، وها هو موسى إنه مجرم عريق، ومحترف، يعرف كيف يكون القتل العمد **«فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل»**[٣]. أما «اليشع» «وفيما هو صاعد في الطريق إذ بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه فقالوا له اصعد يا أقرع اصعد يا أقرع. فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم أثنين واربعين ولداً»[٤]. علماً أن كرمه وسعة أخلاقه شملت آسريه الأعداء بمعجزات عظيمة[٥]. وأنه لحكيم على ما يبدو، لأنه يعرف أين تكون الرحمة!!.

---

(١) هوشع ١ :٢.

(٢) عدد ٢٥ :١١- ١٣.

(٣) خروج ٢ :١١- ١٢.

(٤) الملوك الثاني ٢ :٢٣- ٢٤.

(٥) ملوك الثاني ٦ :٢٢.

والأنبياء يتعاملون مع الأصنام، أو يرضون عنها على الأقل: «**فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم**»(١). فعلى ما يبدو أنه لم يعد بحاجة لها، وإلا لما سكت عنها وهو يعلم بوجودها من قبل.

وإذا كان الأنبياء كذبة وزناة، وإذا كان الله يكذب، وإذا كان الله يأمر بالزنى، وإذا كانوا قتلة ولا رحمة في قلوبهم، وإذا كانت العقيدة تُصنع وفق الأغراض، فأي تجربة تلك التي تستطيع أن تدفع الإنسان لما فوق العالم، فمن المحال الوصول إلى تجربة الأمين، ومن المحال عندها الإيمان بالنبوة أو بما تخبر عنه. ولكن إذا قلنا أن الكهنة هم الذين حرَّفوا سير الأنبياء، كما حرَّفوا سير الملوك، ألا يعني هذا أنهم أرادوا أن يكونوا هم الأنبياء، بنفس الدرجة التي طمحوا بها إلى الملك؟

- **الكهنة أنبياء:**

وقصتهم تبدأ مع موسى الألغث، وهارون الفصيح، فقد جعلوا موسى إلهاً لفرعون، أو إلهاً لهارون، ليجعلوا هارون نبياً لموسى، فهو نبي،(٢)، **الكهنة رسل الرب، وكما تكلم الرب مع موسى تكلمَّ مع الكاهن**(٣). والنبي ذو النسب الكهنوتي مميَّز وعظيم، وعن ابن حلقيا الكاهن يقول الرب: «قبلما صورتك من البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك جعلتك نبياً للشعوب»(٤)، الكاهن رجل الله، وأين منه النبي الذليل؟ «**فتقدم رجل الله وكلم ملك اسرائيل وقال هكذا قال الرب**»(٥). أما «**ناثان النبي فدخل إلى أمام الملك وسجد للملك على وجهه إلى الأرض**»(٦). الكهنة أو بنو الأنبياء يفعلون بأوامر الرب فلا اعتراض عليهم: «وإن رجلاً من بني الأنبياء قال لصاحبه: عن أمر الرب اضربني فأبى الرجل أن يضربه. فقال له من أجل أنك

---

(١) تكوين ٣٥ :٢.

(٢) خروج ٤ :١٦، ٧ :١.

(٣) عدد ٢٦ :١.

(٤) ارمياء ١ :٤.

(٥) ملوك الأول ٢٠ :٢٨.

(٦) ملوك الأول ١ :٢٣.

لم تسمع لقول الرب فحينما تذهب من عندي يقتلك أسد ولما ذهب من عنده لقيه أسد وقتله»[1].

- مهام الأنبياء:

الكهنة هم رجال الله، رسل الله أو الأنبياء، أو بنو الأنبياء. ولكن ما هي مهمة الأنبياء؟ لو تأملنا في الأمر جيداً للإجابة على هذا السؤال، لوجدنا أن كل قول يتفق مع المستقيمات أو المعايير التي لديهم فهو مقدس، ولا شيء غير ذلك، لذلك قالوا: «**وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلاً ما وحي الرب فقل أي وحي**»[2].

ليس من شيء جديد عند الأنبياء بعد موسى إلا القليل، وما مهمة الأنبياء إلا تحقيق تلك الوعود.

فمن مهامهم تعيين الملوك، و«اليشع» يعيِّنهم بواسطة مسحة الزيت، وقد نفذت إرادته في تنصيب «ياهو بن يهو شافاط» ملكاً[3]. و«ايليا» فعل نفس الشيء، وزيته قادر على تنصيب الملوك الأجانب، ولابد لمن يوضع عليه أن يصبح ملكاً[4].

ومن مهام الأنبياء أيضاً كونهم أجهزة للاستخبارات، ولكنهم لا يعرفون الخطأ، فالنبي يحدد للملك «آخاب» متى وبمن يهاجم عدوه، «بنهدد» ملك آرام[5]. أما النبي «اليشع» صاحب الدببة، فيخبر الملك اليهودي بنوايا ومخططات عدوه ملك آرام قبل أن يتكلم بها في مخدع مضطجعه، حتى اضطر هذا الملك لإرسال جيش جرار لأسر ذلك المخبر أو النبي[6].

ومن مهامهم نقل العقوبات الإلهية، فـ«ناثان» النبي ينقل إلى «داوود» ما أراد الله أن يفعله فيه من عقاب، لأنه زنى بزوجة «أوريا»، فنبأه بموت إبنه، وببقاء

---

(١) ملوك الأول ٢٠ :٣٥- ٣٦.

(٢) ارمياء ٢٣ :٣٣.

(٣) ملوك الثاني ٩ :٢* ٨ :١٣.

(٤) ملوك الأول ١٩ :١٥- ١٦.

(٥) ملوك الأول ٢٠ :١٣- ١٤، ٢٢.

(٦) ملوك الثاني ٦ :١١- ١٢، ٢٢.

السيف في بيته وإشاعة الزنى في نسائه[1]. و«اخيا الشيلوني» لم يذكر في الكتاب المقدس، إلا كناقل لإرادة الله في تمزيق مملكة سليمان. أما «جاد» النبي - رائي داوود - لم يفعل شيئاً، إلا نقل عقوبة التعداد إليه، والإشارة إلى بناء المذبح في بيدر «أرونة اليبوسي». وكذلك فعل «ايليا» مع «ايزايل» وزوجها الملك آخاب،[2]. كما أرشد الناس بما يجب أن يعملوه ليجعلوا الله يندم على شروره[3].

وما أكثر الأغراض! وما أكثر الأنبياء الذين سخروهم لأغراضهم! ففي مجمع واحد ٤٠٠ نبي يجلسون للتنبؤ في معركة التحالف بين «يهو شافاط» و«آخاب» لقتال الأراميين في «راموت جلعاد»، هذا ما عدا النبي «فينحاس بن يملة»[4] أيضاً.

ومن أجل أغراضهم منحوا النبوة للعصاة والغرباء والكفرة، فداوود كما يقولون غضيب الله وغضيب الكهنة، ولكن يوحى إليه، وها هو يرى سيف الملاك فوق أورشليم وحياً من الرب،[5]. وسليمان تراءى له الرب أيضاً ليعطيه ما يرغب فيه[6].

وللأغراب نصيب في النبوة، فراحاب زانية أريحا، تتنبأ وتعرف إرادة الله، فتقول «**علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض**»[7]. و«دبورة» ليست نبية، إلا لأنها أشارت إلى وجوب حرب «سيسرا»[8]. و«خلدة» زكّت توراة «خلقيا» شهادة من الرب فهي نبية. و«ربشاقي» القائد الأشوري، قد حلّ فيه روح من الله،[9]. والرب يكلم «كورش» المجوسي ويسميه مسيحه: «**هكذا يقول الرب لمسيحه كورش**»[10]. وعندما كان «جدعون» يحارب الميديانيين، أمره الرب أن يذهب لاستماع وحيه من أعدائه: «وجاء جدعون

---

(١) صموئيل الثاني ١٢ :١٠، ١١، ١٤.

(٢) الملوك الأول ٢١ :١٩.

(٣) ارمياء ٢٦ :١٣.

(٤) ملوك الأول ١٨ :٤.

(٥) الأيام الأول ٢١ :١٦.

(٦) ملوك الأول ٣ :٤- ٥.

(٧) يشوع ٢ :٩.

(٨) قضاة ٤ :٤.

(٩) اشعياء ٣٧ :٧.

(١٠) اشعياء ٤٥ :١، عزرا ١ :١- ٢.

فإذا رجل يُخبر صاحبه بحلم ويقول هوذا قد حلمت وإذا رغيف خبز شعير يتدحرج في محلة الميديانيين وجاء إلى الخيمة وضربها فسقطت وقلبها إلى فوق فسقطت الخيمة. فأجاب صاحبه وقال ليس ذلك إلا سبف جدعون بن يوآش رجل اسرائيل قد دفع الله إلى يده الميديانيين وكل الجيش»،[1]. أما نبوة «بلعام» فتثير الإهتمام لأنها تحوي كل عناصر تفكيرهم، فلم يجعلوه نبياً يتراءى الله له أو ملاكه، إلا خدمة لأغراضهم في النزاع الدائر حول الأرض مع «بالاق»، فقد احتكم اليهود إلى نبي ليس منهم، إلى الله، إنها التقوى طبعاً! «فزكاهم بلعام بأمر من الرب[2] فحكم لهم بالأرض لا لساكينها، ولكنهم قتلوه بعدها بحد السيف، وتلك هي نبوة الأغراب!.

- **النبوة كسب لا اصطفاء:**

كيف يعرف الأنبياء إرادة الرب أو ما يريده؟ يقولون: إن الله يكلم من يشبهه، وجهاً لوجه وفماً لفم، كما يكلم الرجل صاحبه، وقد كلم كثيرين من الأنبياء منهم موسى، لأنه «**شبه الرب يُعاين**»[3]. كما يكون الوحي أيضاً بواسطة روح الرب، ومن تحل عليه الروح يصبح قادراً على التنبؤ، إنها تحول الإنسان إلى رجل آخر[4]. كما يمكن أن توهب فترسل إلى أي إنسان بواسطة مسحة الدهن أو الزيت، وهكذا فعل صموئيل لداوود[5]. كما وزعت روح الرب التي على موسى على أكثر من سبعين رجلاً[6]. وجميعهم تنبأوا. ويمكن لروح الرب أن تفارق صاحبها فجأة، لتحل محلها روح خبيث من قبل الرب أيضاً[7]. وموسيقى الرباب والدف وغير ذلك، يساعدها على الحضور

---

(١) قضاة ٧ :١٣- ١٤.

(٢) عدد ٢٣: ٨، ٢١.

(٣) عدد ١٢: ٨.

(٤) صموئيل الأول ١٠ :٦.

(٥) صموئيل الأول ١٦ :١٣.

(٦) عدد ١١ :٢٥- ٢٦.

(٧) صموئيل الأول ١٦ :١٤.

والبقاء[١]. ويكون الوحي بواسطة الحلم، خاصة إذا ما توفرت بعض الشروط الخاصة ولو من العصاة: «وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح. في جبعون تراءى الرب لسليمان في حلم ليلاً وقال إسأل ماذا أعطيك»[٢].

أما «حزقيال» فقد دخل فيه روح[٣]. كما أكل الدرج الذي هو رسالة من الرب[٤].

إن النبوة بهذه المعاني تكتسب كسباً، فإما بالطبيعة كمشابهة بعض الناس للإله، أو بواسطة الزيت والمحرقات، أو بالدف والرباب، أو قل الرقص والسماع على حد تعبير أهل التصوف، ولكن لو تأملنا فيما تعنيه المصطلحات التي ترافق روح الرب، كالدخول والخروج فجأة والتوزيع على الغير أو نقلها لهم وحلول روح خبيث عوضاً عنها، ربما نجد في ظاهرة الأرواح والوسطاء تفسيراً لكل ذلك، والنبي عندها هو هذا الوسيط الروحي الذي نعرف عنه الشيء الكثير في أيامنا هذه، مما يشجع هذا الرأي عدم تمييزهم للنبي عن سواه: «وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلاً ما وحي الرب فقل أي وحي»[٥] بل وساووا بينه وبين العرّاف فهو يُسأل عن الأتن الضائعة[٦] كما يُسأل عن أحوال المرضى وقراءة المستقبل، لذا فإنا نراه كثيراً ما كان يسأل الأجر. كما أنهم لم يميزوا بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة. وسحرة فرعون فعلوا ما فعله موسى بالتمام والكمال،[٧]. إلا معجزة البعوض عجزوا عنها «**فقال العرافون لفرعون هذا إصبع الله**»[٨].

---

(١) صموئيل الأول ١٠ :٥.
(٢) ملوك الأول ٣ :٤- ٥.
(٣) حزقيال ٣ :٢٤.
(٤) حزقيال ٣ :٢.
(٥) ارمياء ٢٣ :٣٣.
(٦) صموئيل الأول ٩ :٨.
(٧) خروج ٧ :١١، ٢٢.
(٨) خروج٨ :١٩.

ولم نجد هذا التمييز الواضح، بين النبي والوسيط أو الساحر، إلا عند النبي «دانيال» الذي يقول: «**السر الذي طلبه الملك لا تقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون على أن يبينوه للملك. لكن يوجد إله في السموات كاشف الأسرار**»[1]. فالنبي ذو علاقة مع الله، بعكس الوسطاء والسحرة والمنجمين، الذين علاقتهم مع الأرواح أو الشياطين أو القوى النفسية. وما يقوله النبي ليس من تجربته كالحكماء أو الفلاسفة، أنه خبر من لدّن العليم الخبير، بواسطة ملاك يسميه دانيال بجبريل القائل له: «**الآن أرسلت إليك**»[2].

- البعث والعنصرية:

لقد قلنا أن من مبررات وجود الإيمان قول الإيمان بإمكانية الحصول على العدل المطلق. إلا أن اليهود لم يهتموا بالفعل الخلقي، ولا بإيجاده، وهذا يعني أن عقائد ما بعد الموت، ستكون بعيدة عن إهتمامهم إن لم تكن مهملة. فاليهودي لا يعبد الله أو يذكره إلا لغرض له في هذه الحياة، فلا جنة ولا نار بعد الموت، فالعبادة أو حفظ الوصايا، هي الطريق إلى تملك الأرض: «**في جميع الطريق التي أوصاكم بها الرب إلهكم تسلكون لكي تحيوا ويكون لكم خير وتطلبوا الأيام في الأرض التي تمتلكونها**»[3]. وإذا ما سعى اليهودي نحو العمل الصالح، فليس لشيء يكون سعيه إلا من أجل الأرض: «وزن صحيح وحق يكون لك ومكيال صحيح وحق يكون لك **لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك إلهك**»[4]. والعبادة هي الطريق المؤدي إلى سحق الآخرين: «وإن سمعت لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه التي أنا أوصيك بها اليوم **يجعلك الرب إلهك مستعلياً على جميع قبائل**

---

(١) دانيال ٢ :٢٧- ٢٨.

(٢) دانيال ١٠ :١١.

(٣) تثنية ٥ :٣٣، ٦ :١٨، لاويون ٢٦ :١٧.

(٤) تثنية ٢٥ :١٥.

الأرض»[1]. والجزاء على الأعمال يكون في هذه الحياة، **بالأمراض** أو الأوبئة ونقص المحصول، واللعنات هي العقوبة[2]. «وإذا اضطجع رجل مع أمرأة عمه فقد كشف عورة عمه يحملان ذنبهما **يموتان عقيمين**. وإذا أخذ رجل إمرأة أخيه فذلك نجاسة قد كشف عورة أخيه **يكونان عقيمين»**[3].

لقد قال اليهود بأن النفس هي الدم،[4]. وبما أن الدم متحلل في التراب، فلا شيء من الإنسان سيبقى لاحتمال الخلود، وداوود يقول: «***ما الفائدة من دمي إذا نزلت إلى الحفرة هل يحمدك التراب»**[5]. «إمسك مجناً وترساً وانهض إلى معونتي»[6]. وعندها لك الحمد والشكر. وعندما قال الله أن «أيوب» ليس كمثله رجل تقي على الأرض «**فأجاب الشيطان الرب وقال هل مجاناً يتقي أيوب الله»**[7]. وكان الشيطان إمامهم فقالوا: **«إن مات رجل أفيحيا»**[8]. «**لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة»**[9] «**أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد»**[10].

وطبيعي أن السلوك الذي سينتهي على هذه الإيمانيات، سيتجه نحو اللذة، والآيات تقول: «**إن عاش الإنسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها»**[11] «**لا تكن باراً كثيراً ولا تكن حكيماً بزيادة لماذا تخرّب**

(١) تثنية ٢٨ :١.

(٢) تثنية: الاصحاح ٢٨.

(٣) لاويون ٢٠ :٢٠- ٢١.

(٤) لاويون ١٧ :١١، ١٤، تثنية ١٢ :٢٣.

(٥) مزامير ٣٠ :٩.

(٦) مزامير ٣٥ :٢.

(٧) أيوب ١ :١٠.

(٨) أيوب ١٤ :١٤.

(٩) جامعة ٣ :١٩.

(١٠) جامعة ٩ :٥.

(١١) جامعة ١١ :٨.

نفسك»[1]. و«**حسن أن لا تتمسك بهذا وأيضاً أن لا ترخي يدك عن ذاك»**[2].

وعندما قالوا بوجود «الهاوية» جاءت آراؤهم قلقة، فتارة جعلوها لأشرار الأمم الأخرى، كقولهم: «**الأشرار يرجعون إلى الهاوية كل الأمم الناسين الله»**[3]. وتارة أخرى يقولون أنها تشمل اليهود، ولكنها بلا معنى حينئذ، والآيات تقول: «**ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها»**[4]. وعلى ما يبدو أن أشرار اليهود ليس لهم مقام دائم فيها، لأن «**الرب يحيي ويميت ويُهبط إلى الهاوية ويُصعد»**[5].

فليس من حكمة في الهاوية، ولا وجود للعدل المطلق، إنها مأوى الأمم، وإن كانت لأشرار اليهود فهي إلى حين، وعلى ما يبدو أن فكرة الهاوية، واردة إليهم قياساً على قصة «قورح» الذي خسف الله به الأرض عقاباً له، حتى أصبح في أعماقها أو في الهاوية. وعلى كلٍ فإن هناك ثقافتان متباينتان حول معنى العدل، إحداهما: تعتمد على مساواة النفس بالدم ولا حياة بعد الموت والأخرى: تقول بالهاوية التي لا عدل مطلق وراءها.

إن الإيمان بالجزاء والثواب بعد هذه الحياة، هو انقطاع لأرزاق الكهنة، ويكفي أن نتذكر قصة القرابين التي يكفّرون بها عن خطايا الشعب، ومن أجل ذلك امتصت بطونهم كل إيمانيات ما بعد الموت، فالجحيم والنعيم هو الكاهن نفسه، إنها اللعنة والبركة التي يمنحها لمن يشاء، وإلا فالسيف البتار هو لسانهم. وأخيراً جاء النبي «دانيال» وقال بالبعث والحساب والجنة والنار، إلا أن ما أراد قوله، كان على طريقة الرمز، تلافياً لسطوة الكهنة: «**أما أنت يا دانيال فاخف الكلام واختم السفر إلى وقت النهاية كثيرون يتصفحونه**

---

(١) جامعة ٧ :١٦.
(٢) جامعة ٧ :١٨.
(٣) مزامير ٩ :١٧.
(٤) جامعة ٩ :١٠.
(٥) صموئيل الأول ٢ :٦.

والمعرفة تزداد»[١] أي إلى وقت نهاية تلك السطوة. وما الذي قاله دانيال؟ يقول: «**أما أنت فاذهب إلى النهاية فتستريح وتقوم لقرعتك في نهاية الأيام**»[٢]. فالنهاية هي الموت، و«تقوم» تعني البعث «لقرعتك» أي الحساب، «في نهاية الأيام» ليوم القيامة كما يقول: «**كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقضون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدي**»[٣]. وعلى ما يبدو ان كلمة «كثيرون» مضافة على النص، لتلائم مقولة شعب الله المختار، الذي يستحيل برأيهم مساواته ببقية الشعوب.

- القرآن والعهد القديم:

أما القرآن فقد كذّب اليهود الزاعمين أنهم فوق الحساب لأنهم شعب الله المختار، وقال إن الحساب شامل لكل إنسان على الإطلاق، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا**﴾[٤]. فأمانيهم هي التي ردمت الحياة الآخرة، وهي التي زرعت كلمة «كثيرون» عند دانيال، والتلمود يقول بأن الجنة لهم دون الخلق، إلا أن الله تعالى يقول: ﴿**قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين**﴾[٥]. وليسوا كذلك فحسب، بل هم أحرص الناس على الحياة، مهما تكن دنيئة وحقيرة ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون**﴾[٦].

---

(١) دانيال ١٢ :٤.

(٢) دانيال ١٢ :١٣.

(٣) دانيال ١٢ :٢.

(٤) النساء ١٢٢.

(٥) البقرة ٩٤- ٥٩.

(٦) البقرة ٩٦.

ويقول القرآن الكريم أن الإيمان بالبعث والحساب ليس بالشيء الجديد، فإبراهيم مؤمن به،(١) ونوح مؤمن بلقاء ربه، ومؤمن بالحساب بعد الموت،(٢) وهو القائل ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾(٣) ويعقوب يوصي بنيه بالإسلام،(٤) وبنيه يؤكدون الإيمان بالإله الواحد إله آبائهم(٥). أما موسى ﴿**وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب**﴾(٦).

أما عن الإله الذي آمن به بنو اسرائيل، فيقول القرآن أنهم كاذبون عندما زعموا أنه خاص بهم دون سواهم، فإبراهيم كان مؤمناً بإله لكل العالمين،(٧) وهو الخالق للسموات والأرض،(الأنبياء ٥٦) لا يشرك معه أحدا(٨) عليم بالسر وما أخفي، عليم بكل شيء،(٩) وليس جهولاً كما يزعمون.

وإله موسى هو نفسه إله إبراهيم، إنه رب العالمين،(١٠) ودعا فرعون لطاعته، ولقد قال عز وجل: ﴿**فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين**﴾(١١) كما قال: ﴿**إذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل إلى أن تركى وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾(١٢). والسحرة كفرعون ليسوا من اليهود، وهاهم آمنوا وسجدوا لإله موسى (١٣).

وهل كان موسى مجرماً كما زعم العهد القديم؟ لا، فلم يكن قتله للمصري عمداً وعن سابق إصرار ﴿**قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين**﴾(١٤).

---

(١) الشعراء ٨٢، ٨٧.

(٢) هود ٢٩ نوح ١٦.

(٣) يوسف ٨٢.

(٤) البقرة ١٣٢.

(٥) البقرة ١٣٣.

(٦) غافر ٢٧ وبنفس المعنى :الأعراف ١٤٧، طه ٧٤، السجدة ٢٥، طه ١٤ -١٦.

(٧) الصافات ٨٧، الشعراء ٧٧.

(٨) الأنعام ٧٩، الأنبياء ٥٧ -٥٨، الصافات ٨٣- ٩٣.

(٩) إبراهيم ٣٨.

(١٠) الشعراء ١٦، النمل ٨.

(١١) الشعراء ١٦، الأعراف ١٠٤.

(١٢) النازعات ١٧ -١٩.

(١٣) الأعراف ١٢٠ - ١٢١.

(١٤) الشعراء ٢٠.

فقد كان القتل «إذّاً»، أي غير مقصود بالإرادة، حيث الانفعال ضلال للإرادة، لا معنى فيه للعمد. وقد زكاه الله في كثير من آياته قائلاً:

﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾(1). **﴿وأذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيا﴾**(2) **﴿وكان عند الله وجيها﴾**(3).

أما عن هارون الذي جعلوه صانعاً للأصنام يقول الله عز وجل:

﴿سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين﴾(4) فالسامري هو صاحب العجل، **﴿أضلّهم السامري﴾**(5) أما هارون فقد استنكر فعلتهم، ونعتهم بالظلم والفتنة، ودعاهم للتوبة والعودة إلى الله، حتى كادوا أن يقتلوه(6).

وهل ضل داوود كما زعم الكهنة؟ لا، يقول الله تعالى: **﴿إن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾**(7).

وهل كفر سليمان؟ **﴿وما كفر سليمان﴾**(8). **﴿ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾**(9).

ولكن ما هي أغراض القرآن من وراء تنزيه أنبياء اليهود عن الفحشاء والرذائل؟ ليس لشيء إلا لأن القمح لن يُحفظ سبع سنين تامة دون سنبلة **﴿فما حصدتم فذروه في سنبلة﴾**.

---

(1) الإسراء ٣.

(2) مريم ٥١.

(3) الأحزاب.

(4) الصافات ١٢٠- ١٢٢.

(5) طه ٨٥.

(6) الأعراف ١٥٠- طه ٩٠.

(7) ص ٢٥، ٣٠، الأنبياء ٢٠.

(8) البقرة ١٠٢.

(9) النمل ١٥.

- خاتمة:

الكهنة أو اللاويون هم النواة الـتي التفَّ حولها الدين اليهـودي أو العهد القديم، فهـم الجوهـر الثابت، والباقي عرض متغيِّر، وقضايا الإيمان متغيِّرة حسب أغراضهم، إنهم صنَّاع العقيدة أو محرفيِّها، والملحد في نظرهم هو الذي يفصل بين الإيمان والأغراض، فليس هنالك من فرق بين التجسيم والتنزيه، بين الله والإنسان، بين التوحيد والتعدد، بين التناقض والعقل وهكذا.

أما إلحاد المعايير، فلم يستطع ربط العهد القديم بالأنبياء المزعومين، لأنهم ليسوا أو ليس أغلبهم هم الكتبة على الحقيقة، ولا استطاع إيجاد التجربة التي تميِّز النبي عن الشامان والساحر والعرَّاف، فالأنبياء عند بني اسرائيل مشعوذين، كذبة، زناة وظلمة. وهل من نبي لا أمانة له؟ ولا استطاع كتابهم الإقرار بإله يخلق السموات والأرض، بل هو الجهـول في كثير من الأمور، بل وضعيف حتى أمام الإنسان. وبذلك كله انزلقت تجربة إيجاد الفعل الخلقي إلى الهاوية، وفقد الإيمان مبرِّر وجوده. وهل بعد ذلك من وسيلة لربط العهد القديم بالسماء؟ لا وسيلة إلا المسيحية، لأنها تقول بأن الإله الذي تؤمن به، هو نفسه الإله الذي تحدَّث عنه اليهود، وفي البدء يجب البرهنة على صحة انتساب المسيحية إلى الله، وإذا ما تمَّ ذلك فسوف نحصل حينئذ على المعيار، الذي يقيِّم ما آمن به بنو اسرائيل، وإلا فإلى القرآن مباشرة.

***

الجزء الخامس

المسيحية بين الإلحاد والإيمان

- المسيح والتاريخ:

وإذا نظرنا إلى الملحد عند ذكرنا للمسيحية، فسوف نراه يقلّب كفيه على بعض، وبعد أن تبرَّم بشفتيه، كأنه اليائس القنوط، راح يقول بحيرة وضجر: ولكن يجب ألا نلقي تلك المهمة الجلل إلى المجهول أو الأحلام والأمنيات، فهل لكم البرهنة على وجود المسيح في التاريخ؟ لا، فالمؤرخون لم يؤرخوا إلا للبشر و«**ليس من المقطوع به أن عيسى شخص تاريخي**»(١). وإذا ما احتكمنا إلى معايير صحة الوثائق فإنه «**يكاد أن يكون مجهولاً**»(٢). وهل ترضون ذلك برهاناً على أنه ابن الله بالفعل؟!.

إن لليهود مؤرخين كما هو معلوم، ولكن «لا يوجد في تاريخ اليهود الديني ولا في كتبهم، أي ذكر لعيسى بن مريم، ولا لدعوته، ولا لأحداث القبض عليه وصلبه، **فالذي يقرأ كتب اليهود لا يجد لعيسى ذكراً**»(٣). وإن «تاريخ جستس الطبري، المكتوب بعد المسيح ببضع سنوات، غفلاً عن ذكره، وهو مولود حيث ولد المسيح في الجليل، ولم يشر بليني الأكبر، بكلمة واحدة إلى الخوارق التي نسبت إليه، وهو كثير العناية بجمع الخوارق في تاريخه الطبيعي، المؤلف بعد المسيح بثلاثين أو أربعين سنة»(٤). رغم كثرة الحوادث العظيمة المذكورة في الأناجيل المقدسة، التي ارتبطت بابن الله الوحيد، وكلها ذات وقائع مادية، تفرض نفسها على المؤرخين رغماً عنهم، فقد قتلَ «هيرودوس» جميع صبيان بيت لحم(٥)، وعندما مات المسيح، أصبح الكون بلا مدبِّر ثلاث ساعات، كما حلَّ عليه الظلام الذي لا ينسى(٦)، وانشق حجاب

---

(١) ص٨٢ المسيحية.

(٢) ص٢٢٣ فلاسفة انسانيون.

(٣) ص٧٧ المسيحية.

(٤) ص١٥٥ الله.

(٥) متى ٢ :١٦- ١٧.

(٦) متى ٢٧ :٤٥، لوقا ٢٣ :٤٤، مرقص ١٥ :٣٣.

الهيكل[1]. وليس هذا فحسب، بل إن «متى» يقول: «وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا إلى المدينة وظهروا لكثيرين»[2]. فهل لا علاقة لذلك كله بالتأريخ؟! حتماً نعم، ولكن لاذكر لذلك كله، في كتب التاريخ!!

وما أسوأ الشك الذي يزرعه المؤرخون في قلوب المؤمنين وعقولهم، تباً لهم!! «**فالمدرسة الهولندية مدرسة بيرسن ونابر ومتشاس، إذ أنكرت بعد بحوث مضنية، حقيقة المسيح التاريخية**»[3]، و«فلني ١٧١٩ جهر بأن المسيح ليس ذو شخصية تاريخية في كتاب خرائب الامبراطورية، وبرو نوبور ١٨٤٠ يقول **أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير، أو تجسيداً لطقس من الطقوس**، نشأ في القرن الثاني، من مزيج من الأديان اليهودية واليونانية والرومانية»[4]. وعليه فإنه «من الجنون أن نعتبر المسيحية تبدأ بيسوع كشخص تاريخي»[5]. والمحاولة التي قام بها رجال الدين المسيحي، لاصطياد المؤرخ الشهير «يوسفوس»، الذي عاصر المسيح «٣٧ - ٩٥م» تؤيد هذه المزاعم، فقد «دسوا في كتابه - قِدَم اليهود- جملة عن المسيح، ثبِّتت في بعض نسخ هذا الكتاب»[6]، والجملة تقول: «**في ذلك الوقت كان يعيش يسوع، وهو رجل من رجال الدين، إذا جاز أن نسميه رجلاً، لأنه كان يأتي بأعمال عجيبة، ويعلّم الناس، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط، وقد اتبعه كثيرون من اليهود، وكثيرون من اليونان، لقد كان هو المسيح**»[7]. ويعقب «ول ديورانت» على هذا الحدث قائلاً: ولكن «هذا الثناء لمما يبعث الريبة في

---

(١) مرقص ١٥ :٣٨، لوقا ٢٣ :٤٥.

(٢) متى ٢٧ :٥١- ٥٢.

(٣) ص٢٠٤ ج١١ قصة الحضارة.

(٤) ص٢٠٤ ج١١ قصة الحضارة.

(٥) ص٢٣٩ فلاسفة انسانيون.

(٦) ص٩٢ الأسفار المقدسة.

(٧) ص٢٠٤ ج١١ قصة الحضارة.

هذه الفقرة، ولذلك يرفضها علماء المسيحية – الذين لهم علم بالتاريخ–، ولا يكادون يشكون في أنها مدسوسة على يوسفوس»[1]. أنتهى. أي أن «مظهرها – بتعبير آخر– دليل إقحامها، كأنها الرقعة الجديدة في الثوب الخَلِق»[2].

الغموض يحيط بشخصية المسيح من كل جانب، حتى عند أصحابه، فمولده مختلف فيه، إنه في بيت لحم على روايتي «متى» و«لوقا»، ومن عذراء، إلا أن «مرقص» لا يوافقهما على المكان، و«بولس» و«يوحنا» لا يهتمان بقصة العذراء، بل جمعا بين عذراء وأنساب تتصل بـ«يوسف النجار»، عندما بحثا عن نسب المسيح، ليربطوه بـ«داوود» الملك. أما استنتاجات النقاد فتقول: إن مولد المسيح يتراوح ما بين ٢– ١ ق.م، أو إلى عام ٦ ق.م، أما عن يوم مولده، فالكنائس تقول: أنه ١٩ من أبريل، أو ١٠ مايو، أو ١٧ نوفمبر، أو ٦ يناير، أو ٢٥ نوفمبر، أو ٢٥ ديسمبر، وعلى ما يبدو أن لكل شهر مسيحه الخاص به، ولكن الغريب في الأمر موافقة هذه التورايخ لأعياد البيئة الوثنية!!

– التحريف بين العقل والتناقض:

وليس التاريخ فقط هو العقبة في طريق المسيحية، فللعقل أيضاً موقف، والتناقض الذي نلمسه بين خبريات الأناجيل، يدفع الإنسان دفعاً للشك في صدق تلك الأخبار، وما أكثر التناقضات التي تصطدم مع العقل، لأنها في الأغلب على عناد مع الثالث المرفوع، فالباب كما يقول المناطقة: إما مفتوح أو مغلق، وليس هناك ثالث، فالصدق يمضي برفعه، والمسيح إما ابن يوسف النجار، أو ابن الله، وإما مرسل إلى اليهود خاصة، أو إلى كل الناس، والوقائع التي حدثت أمام كل التلاميذ كثيرة، إلا أن التناقض الذي يصف ما حدث كان عظيماً، فالحدث واحد، **والواصفون اختلفوا، وكلهم من الذين رأوه**

(١) ص٢٠٢ ج١١ قصة الحضارة.

(٢) ص٩٢ الأسفار المقدسة.

رأي العين، فهل لا وجود للحدث، أم أن كتبة الأناجيل التي بين أيدينا ليسوا من تلاميذ المسيح؟ ولابد من الإجابة، فالمجانين الذين شفاهم المسيح، خرجت شياطينهم إلى الخنازير، إنهم مجنونان حسب رواية متى،(١). أما لوقا(٢) ومرقص(٣) فيقولان إنه مجنون واحد فقط. وكذلك هي قضية «الجحش» و«الأتان»، أنها قضية حسية لا تقبل التأويل، لقد حدثت أمام الإثنى عشر تلميذاً(٤). فإما أن المسيح ركب على جحش فقط، عند دخوله «اورشليم» كما يقول «لوقا» و«مرقص»، أو «جحش أتان» كما يقول «متى». ولكن لو أمعنا النظر لرأينا أن التناقض لم يكن مبعثه الحدث أو الواقعة أو الإدراك، بقدر ما هو اختلاف الكتبة، أو اختلاف قدراتهم على تفسير آيات البشائر الواردة في العهد القديم، فالبشائر هي المسؤولة عن بعض صياغة المسيح الموجود بالرسائل والأناجيل التي بين أيدينا.

- البشائر والتناقض:

لقد بشرَّ العهد القديم، على لسان «اشعيا»، بمجيء المسيح ملكاً، يولد من بيت داوود الملكي، (٥) ولهذا السبب كان له ذلك النسب الذي قال به «بولس» و«يوحنا». ومن أجل أن اشعيا نعته بحامل أوجاعنا وخطايانا وآثامنا، كانت عقيدة الخطيئة والفداء. وعندما نعته «اخنوخ» و«دانيال» بابن الإنسان، أصبح المسيح هو ابن الإنسان في الأناجيل. وعندما قال سفر الأمثال: أنه العقل المجسد أو الحكمة والكلمة، صار المسيح ابن ا لله الوحيد وهكذا دواليك.

ومن أجل الإيضاح نقول: **إن النصارى آمنوا بعصمة العهد القديم كله عن التحريف والخطأ، أو قل أنهم لتبرير نبوة عيسى قالوا بذلك الإيمان، ولذلك كانت مأساتهم عظيمة، فلا هم قادرون على نفي التباشير، ولا مسيحهم الذي آمنوا به ملك شأن كل الملوك، ولكن يجب**

---

(١) متى ٨ :٢٨.

(٢) لوقا ٨ :١٧.

(٣) مرقص ٥ :١.

(٤) متى ٢٠ :١٧.

(٥) اشعيا ١١ :١.

أن يكون ملكاً، والبشير «متى» أراد موافقة المكتوب أو تفسيره فقال: «ولما قربوا من اورشليم وجاءوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين. قائلاً لهما اذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت **تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما وأتيا بهما**. وإن قال لكما أحد شيئاً فقولا الرب محتاج إليهما فللوقت يرسلهما. **فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل. قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان**. فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع. وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما **فجلس عليهما**»[1]. فركب الرب إذن على الحمار والحمارة! وأنها لحيلة بارعة من «متى»، حتى استطاع التوافق مع المكتوب أو البشائر. أما «لوقا» فقد فسَّر المكتوب على أنه لا يحتاج إلا إلى الجحش، ولقد قال المسيح كما يروي: «**إذهبا إلى القرية التي أمامكما وحين تدخلانها تجدان جحشاً مربوطاً لم يجلس عليه أحد من الناس قط فحلاه وأتيا به**»[2]. ويوافقه على ذلك «مرقص»[3]. أما «يوحنا» فيؤكد على ضرورة انتساب الجحش إلى الحمارة، وهو حسبه، فيقول: «**ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوب، لا تخافي يا ابنة صهيون هوذا ملكك يأتي جالساً على جحش أتان**»[4]. ولو نظرنا في هذه النصوص، لوجدنا الخلاف محصور في التفسير، فالجملة عند «متى» تقول: «أتان وجحش»، بينما عند «يوحنا» سطقت «الواو» واو الجمع، وأصبحت الجملة «جحش أتان». أما عند «لوقا» و«مرقص»، فقد أصبحت الجملة «تجدان جحشاً»، دون ذكر الأتان. فليست المشكلة مشكلة إدراك وواقعة، وربما تكون اختلافاً في نسخ العهد القديم التي اعتمدها الكتبة، إن لم يكن اختلافهم في التفسير، وعندها

---

(١) متى ٢١ :١- ٧.

(٢) لوقا ١٩ :٣٠.

(٣) مرقص ١١ :٧.

(٤) يوحنا ١٢ :١٤- ١٥.

تكون الواقعة قد ضاعت لحساب **التباشير، وتصبح** المشكلة **بذلك مشكلة** أمانة لا مشكلة تناقض.

ومن علامات المسيح عند اليهود كما يقول العهد القديم: أنه **يكلمهم بأمثال**. وانشغل كتبة الأناجيل في صياغة الأمثال الكثيرة، التي **يصعب حلها بزعمهم**، وكأنكم عندها «**تسمعون سمعاً ولا تفهمون**»[1] ثم قالوا: «وبدون مثل لم يكن يكلمهم. **لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال فمي وانطق بمكتومات منذ تأسيس العالم**»[2]. وعندما جاءت هذه المكتومات، **فإذا هي تطلب** من القارىء أو ترجوه ألا يفهم. وسوف نمر على الكثير منها فيما بعد.

البشائر تقول بأن «ايليا» سيسبق المسيح ويبشر بقدومه، ولكنه لم يأت بعد كما يقول اليهود، وما زالوا ينتظرونه، ولكن «يوحنا» **المعمدان بشّر** بالمسيح، وأعلنه للناس، وعندما لم يجد الكتبة سواه قالوا: **أن يوحنا هو نفسه ايليا**[3]. فمن أجل تحقيق البشائر فلا بأس بمساواة رجلين والمعجزات التي تفعل المستحيل كثيرة، وهي البرهان الذي لابد منه.

لقد حثّ المسيح تلاميذه قبل القبض عليه، على حمل السلاح حسبما يقول «لوقا»، ولكن «يهوذا» غدر به، و«بطرس» أنكره ثلاث مرات، وهرب كل التلاميذ، وتركوه وحيداً ليصلب مع اللصوص والمجرمين، فهل في ذلك تخاذل؟ لا، فالكتبة هم رواة ما حدث، إنهم بعض التلاميذ، فالتلاميذ إذن ليسوا متخاذلين، ويجب ألا يكونوا كذلك، إنه الإنصياع للبشائر وليس التخاذل «وقال لهم يسوع إن كلكم تشكّون فيَّ هذه الليلة **لأنه مكتوب** اني أضرب الراعي فتتبدد الخراف»[4]. فالمسيح إذن لم يطلب من أصحابه القتال، كما زعم «لوقا»، بل «**ليتم القول** الذي قاله إن الذين اعطيتني لم أهلك منهم أحد»[5]. وعليه فإما

---

(١) متى ١٣ :١٤.

(٢) متى ١٣ :٣٥.

(٣) متى ١٧ :١٣.

(٤) مرقص ١٤ :٢٧، متى ٢٦ :٣١.

(٥) يوحنا ١٨ :٩.

أن الكتبة استخدموا البشائر لتبرير ما جدث، أو أنهم جعلوا التخاذل في التلاميذ ليتم الإتفاق معها، والكتبة حتماً متفاوتون في اطلاعهم على العهد القديم، لذا كانت أحداثهم لا إتفاق بينها، والخلاف بينهم كثير.

وفي قصة الصلب تفرد «يوحنا» دون غيره، برواية طعن المسيح بالحربة، حتى خرج منه كما يقول دماء وماء![1] ليس لشيء إلا لأنه الوحيد من بين التلاميذ، الذي تنبَّه لما تقوله البشائر، فقام بصياغة هذا الحدث، وهو يقول بفخر «**وأيضاً يقول كتاب آخر** سينظرون إلى الذي طعنوه»[2] وكل ما في الأمر إذن، أنه فسرَّ ما قرأه في العهد القديم الذي ربط المسيح والطعنة في الآية السالفة الذكر، بصنع الواقعة الملائمة، فلا تناقض هناك على الحقيقة، ولا هنالك وجوداً لحدثٍ إختلف المدركون على وصفه.

لقد صعد المسيح بعد موته إلى السماء أمام الأحد عشر تلميذاً، ولكن لم يذكر ذلك سوى «لوقا» و«مرقص»، وعلى ما يبدو أنهما وحدهما من سائر الكتبة، تذكروا قصة صعود «اخنوخ» و«اشعيا» و«اليشع» إلى السماء، فقاما يضاهأن اليهود بما زعموه لرجالهم.

وماذا لو استمعت إلى عبارات الأنين، التي أطلقها المسيح وهو على الصليب، معاتباً ربه قائلاً: «إلهي إلهي لماذا شبقتني» لوجدت هذا القول، هو نفسه الآية الأولى من المزمور ٢٢ في العهد القديم.

أما بولس فقد استخدم البشائر سلاحاً ضد خصومه، وضد المرتدين عنه، فعندما يئس من الجميع قال: «**ولكن الروح يقول صريحاً** أنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين»[3].

كما استخدم البشائر ضد المسيح نفسه، عندما أراد فك الارتباط بين الإيمان والختان، فالمسيح كان مختوناً وتلك عقبة أمام بولس، الذي أراد الغاء الختان، ولكن لابد من إلغائه، والبشائر لها القدرة على التبرير، ومن أجل ذلك

---

(١) يوحنا ١٩ :٣٤.

(٢) يوحنا ١٩ :٣٧.

(٣) تيموثاوس ٤ :١.

قال بولس: «وأقول أن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله **حيث يثبت مواعيد الآباء**»[١]، ومن ثم قال: «ليس الختان ينفع شيئاً»[٢]. فقد كان وانتهى الغرض منه.

وانطلق بولس، ذلك الحاخام اليهودي بالأصل، ومؤسس المسيحية بالفعل، بالبشائر إلى أبعد مدى ممكن، حتى سمح لنفسه بلعن المسيح جهاراً، وبلا خشية ليس لشيء، إلا موافقة للبشائر، فالمسيح كما يقول: «صار لعنة لأجلنا **لأنه مكتوب** ملعون كل من عُلّق على خشبة»[٣].

- الدعاة والتحريف:

ولكن ليست البشائر وحدها، هي المسؤولة عن إيجاد التناقض، وتحريف الوقائع، وصياغة المسيح، فهنالك المبشرون والدعاة، الذين طمحوا في ضم كل البيئة التي تحيط بهم إلى المسيحية، بأي أسلوب كان. فعندما التقى المسيح بـ«بطرس» و«اندراوس» قال لهما: «فقال لهما هلمَّ ورائي **فاجعلكما صيادي الناس**»[٤] وأصبحا تلميذين له فيما بعد، ولكن «بولس» صحابي المسيح بعد موته، أراد لنفسه أن يكون صياداً هو الآخر، بل وأصبح أمير الصيادين على الإطلاق عندما قال: «**استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس**»[٥]. كما قال: «**أنا أيضاً أُرضي الجميع في كل شيء**[٦] وأوصى أصحابه قائلاً: «**ومن هو ضعيف في الإيمان فاقبلوه**»[٧].

---

(١) رومية ١٥ :٨.

(٢) غلاطية ٦ :١٥.

(٣) غلاطية ٣ :١٣.

(٤) متى ٤: ١٩ مرقص ١ :١٧.

(٥) كورنثوس١ ٩ :١٩- ٢٠.

(٦) كورنثوس١ ١٠ :٣٣.

(٧) رومية ١٤ :١.

لقد كان بولس رجل سياسة بحق، أكثر منه داعياً لدين واضح المعالم، فالسياسة تقتضي المرونة، ولا بأس في ضم إيمانيات تلك البيئة إلى الدين المبشر به، ما دام الوصول إلى «الأكثرية»، أو اصطياد تلك البيئة، هو الهدف الهام الذي ما بعده هدف.

المسيحية تؤمن بأن المسيح، أو ابن الله الوحيد، جاء للبشر ليخلصهم من الآثام، فهو فداء أو قربان، وتعتقد بالخطيئة، وتؤمن بالتثليث، والصليب هو المحور، وهل لا وجود لذلك كله في البيئة الثقافية للدعاة؟ بلى، فالمؤرخون للعقائد والأفكار قالوا: إن «المتراسية ديانة فارسية، يعود وجودها إلى ستة قرون قبل المسيحية، عرفت في روما حوالي سنة ٧٠ ق.م، ومن عناصرها المشتركة مع المسيحية، مولد متراس، وعدد تلاميذه البالغ اثني عشر، وكما فهم عن موته أنه مات ليخلص البشرية من خطاياهم، ومن ثم قام من قبره بعد الموت، وصعد إلى السماء، ومن أوصافه، أنه كان كالحمل الوديع، وكان أتباعه يعمِّدون باسمه، وفي ذكراه كل عام، يقام العشاء الرباني المقدس، تماماً كما عند الكنيسة[1]. بل إن «اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، الذي يُحتفل فيه بمولد المسيح، كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس في العبادة المثرية»[2].

ويقول «ول ديورانت»: «**لقد بلغ التشابه بين الطقوس المتراسية والقربان المقدس في القداس، حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس، بأنه هو الذي ابتدعه، ليضل به ضعاف العقول**»[3]. أ.هـ. «فالعشاء الرباني -إذن- كان معروفاً في عبادة مترا، على الطريقة التي عرف بها في المسيحية، بل كان الخبز الذي يتناوله عباد مترا في ذلك العشاء، يصنع على شكل الصليب، وقد أسف يوستن مارتر في سنة ١٤٠ لهذه المشابهة، وعدَّها مكيدة شيطانية لتضليل المؤمنين»[4]، وما أعظم هذه المكيدة التي صنعها إبليس قبل مجيء المسيح!.

---

(١) ص ١٧٧ - ١٧٨ المسيحية.

(٢) ص١٥٣ الله.

(٣) ص٢٧٦ ج١١ قصة الحضارة.

(٤) ص١٥٤ الله.

أما محاكمة «بعل» إله البابليين، على أيدي الأشرار هي نفسها قصة المسيح. فقد كان معه مجرم، ولكن الشعب طالب بالعفو عنه، وبإنزال عقوبة الموت بالإله، وعندما مات الإله، عمَّ على الكون الظلام، ودوى الرعد، واضطرب الناس، ثم قام من قبره، وصعد إلى السماء، تماماً كما حدث ليسوع ابن الله. وما أعظم مكائد الشيطان وأكثرها!!.

البابليون نظموا آلهتهم على شكل مجموعات ثلاثية، كمجموعة إله السماء، وإله الأرض، وإله البحر، وكمجموعة إله القمر والشمس والعدالة. و«البرهميون - أيضاً- يعتقدون أن كرشنا وهو الإله فيشنو، قد خلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه، ويصورون فيشنو مصلوباً مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً، ويعتقد البوذيون مثل ذلك في بوذا، حتى أنهم ليسمونه المسيح والمولود الوحيد ومخلص العالم، ويقولون أنه إله كامل تجسَّد بالناسوت، وأنه قدَّم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر»[1]. وتباً للشياطين.

أما من الناحية الفكرية أو الفلسفية، فمن المعلوم أن «أفلوطين زعيم مدرسة الإسكندرية.. ولد سنة ٢٠٥ وتوفي ٢٧٠م، كان يرى فيما يتعلق بالكون ومنشئه، أن الله هو منشىء الأشياء.. يفيض على كل الأشياء نعمة الوجود. وأول شيء صدر عن هذا المنشىء، هو العقل، وقد صدر عنه كأنه يتولد منه، ولهذا العقل قوة الانتاج، ولكن ليس كمن يولد عنه، ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح، ومن هذا الثالوث يصدر كل شيء، ومنه يتولد كل شيء.. وإذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشراً ومعروفاً قبل مجمع نيقية بأمد طويل، وإنه كان المذهب الفلسفي لمدرسة الإسكندرية وأن بطريرك الإسكندرية الذي نشأ في البيئة التي ساد فيها هذا المذهب، كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث في مجمع نيقيه وفي المجمع القسطنطيني الأول»[2]. وإلى اثناسيوس - هذا البطريرك - يرجع الفضل في جعل التثليث عقيدة رسمية من عقائد الكنيسة.

---

(١) ص١١٤ الأسفار المقدسة.

(٢) ص١١٣ الأسفار المقدسة.

أما عندما فشلت المسيحية في الهرب من مصادرها، وعندما رفضت الشيطان، قالت على لسان القديس «جوستن»: «**كل الحقائق اليونانية هي حقائق مسيحية، كذلك هيراقليطس واحد منا، وسقراط ينتمي إلينا.. والرواقيون أتباعنا**»[١]. وبذلك أصبح المتبوع تابعاً، وأصبحت المسيحية هي المعيار، وعاد مكر الشيطان إلى نحره، وإنه لنصر مبين، ولكن بولس يروي لنا تجربته، مع البيئة التي عاصرته، والتي منها نستطيع إدراك مصطلحات المسيحية، فـ«سيمون» الساحر يأتي بالعجائب «وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير، قائلين **هذا هو قوة الله العظيمة**»[٢] وعندما نشبت الأفعى في يد بولس في جزيرة مليطة، ولما لم يتضرر أو دون أن تؤذيه، فإن سكانها «**قالوا هو إله**»[٣] أو إله تشبَّه بالبشر، وعندما شفى المُقعد «فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم بلغة ليكأونية **قائلين إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا**»[٤]. واستنكر بولس وبرنابا قولهم فمزقا ثيابهما إمعاناً في الإنكار.

فالبيئة الثقافية التي تحيط بالدعاة إذن، كانت تطلق لقباً إلهياً على كل من كانت تصدر عنه حوادث عجيبة دونما تمييز، والمسيح كان بلا أب ومعجزاته وصلت إلى كل ذي أذن، فليس من الغريب أن يتم ربطه بنسب إلهي، أو قل إن ربطه هذا، كان ضرورياً لملاءمة تلك البيئة أو لاصطيادها، خاصة أن التمييز بين ما يكون عن الله، وما يكون عن الساحر أو الشيطان، كان هشاً إن لم يكن غير موجود، وحتى أن إنتصار بولس على الساحر «بار يشوع»[٥] لا يعني شيئاً، بما أن السحرة أيضاً ينتصر بعضهم على بعض.

لقد كان سكان «لسترة»، يقولون بإيمانيات تقر بوجود الآلهة التي تتشبّه بالبشر، ومن أجل اصطيادهم كان بولس متسامحاً مع ما يؤمنون به، ولذا قال

---

(١) ص٤٤ روح الفلسفة المسيحية.
(٢) أعمال الرسل ٨ :١٠.
(٣) أعمال الرسل ٢٨ :٦.
(٤) أعمال الرسل ١٤ :١١.
(٥) أعمال الرسل ١٣: ٦- ١١.

لهم: «**في الأجيال الماضية ترك جميع الأمم يسلكون في طرقهم**»[١] إلا أنه لم يقف عند الذي مضى فحسب، بل ورضي أيضاً على «زفس» و«هرمس» وجعل عبادتهما في رضى الإله ومن إرادته.

وإذا أردنا الوضوح في النظر إلى طبيعة ما فعله الصياد، فعلينا أن نقرأ بإمعان قضية الصراع حول الختان، وقصة انطلاق المسيح بعد موته نحو الأمم، وفي الحقيقة أن القضيتين بالأصل قضية واحدة، مدارها التساؤل عما إذا كان المسيح مرسلاً إلى اليهود خاصة، أم إلى كل الأمم، وكان الصراع عنيفاً حول هذه النقطة. فالمسيح حسبما يقول «متى»، مرسل لليهود خاصة، وغايته جمع شعب أورشليم كفراخ دجاجة[٢]. وخاطب كل التلاميذ في ذلك «**هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل أذهبوا بالحري إلى خراف بيت اسرائيل الضالة**»[٣].

أما بولس فقد جعل من نفسه رسولاً للمسيح بعد موته لكل الأمم، وعند تبشيره أدرك انزعاج الغرباء من الختان، فخاطبهم قائلا: «**إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس**»[٤]. فالحق برأيه لا وجود له عند الذين يقومون بالإزعاج، واعلموا أن الختان وحفظ الناموس والشريعة، ليسا من الشروط الضرورية للإيمان، وكل ما يزعجكم فاحذفوه، ومن ثم راح يؤوِّل الختان بطرقٍ عجيبة غريبة، ليصرفه عما يعنيه ختان المسيح قائلاً: «وأقول أن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله **حيث يثبت مواعيد الآباء**»[٥]. ومن ثم سوى بين الختان والغرلة بسفسطة بهلوانية وهو يقول: «**فإن الختان ينفع إن عملت بالناموس ولكن إن**

---

(١) أعمال الرسل ١٤ :١٦.

(٢) متى ٢٣ :٢٧.

(٣) متى ١٠ :٥- ٦.

(٤) أعمال الرسل ١٥ :٢٤.

(٥) رومية ١٥ :٨.

كنت متعدياً الناموس فقد صار ختانك غرلة، إذاً إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس إنما تحسب غرلته ختاناً»[1] وفي نهاية الأمر قرر أن «ليس الختان ينفع شيئاً»[2]. وفي مجمع الختان، الذي عقده الدعاة في أورشليم سنة ٥٠ م برئاسة يعقوب الرسول، لنقاش هذا الأمر، تقرر رسمياً إزالة تلك العقبة، فهزم الختان، وأصبح الطريق معبداً أمام الأمم للدخول في المسيحية، وهم مطمئنون على غرلتهم مصانة من الأذى والازعاج.

واصطدم بولس عندما كان يبشر الأمم بانزعاجهم من عنصرية اليهود، الذين كانوا يشمخون على جيرانهم، بالنسب الشريف، وبالكتاب الذي بين أيديهم، وبالإله الذي خلق السموات والأرض، ولكن المسيح الذي راح يبشرهم به بولس من اليهود، ولابد من تدبر الأمر، ولهذا انطلق ينحت للأغراب نسباً يلحقه بإبراهيم، ليجعلهم سواسية مع اليهود في فخر النسب، وما أبرعه حين قال: «**فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم**»[3] وبعد أن دلَّهم إلى نسبهم، راح يحط من قيمة الكتاب الذي يتفاخر به اليهود، بل راح يفضِّل من هم بلا كتاب، على الذين لهم الكتاب فقال: «**فإن الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس**»[4]، فـ«الخطية لا تحسب إن لم يكن ناموس»[5]. «وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية»[6] ثم قال في نهاية الأمر: «**لم أعرف الخطية إلا بالناموس**»[7] وأيهما هو الأفضل: أصحاب الكتاب هؤلاء، أم أنتم، فما عليكم إلا أن تؤمنوا بالمسيح «لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة هكذا أيضاً بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون

---

(١) رومية ٢ :٢٥- ٢٦.

(٢) غلاطية ٦ :١٥.

(٣) غلاطية ٣ :٢٩.

(٤) رومية ٦ :١٤.

(٥) رومية ٥ :١٣.

(٦) رومية ٥ :٢٠.

(٧) رومية ٧ :٧.

أبراراً»[1]. ولكن اليهود المسيحيون، الذين ظلوا يهوداً مخلصين، فإنهم يعتبرون بولس كخائن، وتصفه وثائق يهودية - مسيحية بالعدو، وتتهمه بتواطؤ تكتيكي»[2].

واصطدم بولس برؤساء الأمم، فتحاشى غضبهم ووقف إلى جانبهم، ومالأهم ضد العبيد والخدم الذين لا قدرة لهم على ايذائه، وأصبحت تعاليمه تقول: «**والعبيد يجب أن يخضعوا لسادتهم ويرضوهم في كل شيء غير مناقضين**»[3]. وليس الخضوع مشروطاً بالسادة الظرفاء فحسب، فعلى العبيد أن يخضعوا حتى للسادة الشرسين[4]. فلا يجوز التقصير على العبيد، وها هو البشير بولس يصرخ في وجوههم قائلاً: «**فأعطوا الجميع حقوقهم الجزية لمن له الجزية الجباية لمن له الجباية والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام**»[5]. فالسلطة مقدسة، والسلطان ذو نسب إلهي، وفي ذلك يقول: «**لتخضع كل نفس للسلاطينٌ الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتّبة من الله. حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة**»[6].

من كل ما مضى، نجد أن بولس رجل منهج في دعوته وأغراضه، وقد أصبح هذا المنهج سنة تتبع فقد «تساهلت كنسية روما لتجذب لها الجرمان واللادينيين فأحلّت أكل الدم المخنوق وأباحت للرهبان أكل دهن الخنزير وغير ذلك مما لم تقبله الكنائس الشرقية»[7].

---

(١) رومية ٥ :١٩.

(٢) ص٧١ دراسة الكتب المقدسة.

(٣) تيطس ٢ :٩، ٣ :١، كولوسي ٣ :٢٢.

(٤) بطرس الرسول الأول ٢ :١٨.

(٥) رومية ١٣ :١٧.

(٦) رومية ١٣ :١- ٢.

(٧) ص٢٣٩ المسيحية.

- الدين والملائم:

وهل يعقل أن يكون الموافق والملائم معياراً للتبشير بالدين وصنع الإيمان؟ نعم، فقد قال المسيح لبطرس عندما شهد له بأنه أبن الله الحي: «أنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات **فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات**»(١) كما قال أيضاً: «الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء. وأقول لكم أيضاً **إن اتفق إثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قِبَل أبي الذي في السموات**، لأنه حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم»(٢).

السماء خاضعة للأرض، والتشريع تحكمه الأهواء، والشرط الوحيد لصواب الشرع، هو اجتماع الرأي ولو عند اثنين فقط، وأياً كان الرأي فهو مقدس ومبارك من الرب، ولذا فإنه لا غرابة في أن أصبحت الفرق المسيحية عبر تاريخها تزيد على الألف عداً، وكل فرقة يجب أن تكون مقدسة، حتى عند المعارضين لها، وهذا ما لم يحدث في الحقيقة قط.

لقد أدرك بولس كل المعاني التي ترافق تشريع الرأي، فانطلق يشارك الله والمسيح، فجعل من نفسه مصدراً من مصادر التشريع، مثلهما بالضبط، وها هو يشرح المسألة ويفصلها قائلاً: «**وأما المتزوجو ن فأوصيهم لا أنا بل الرب**»(٣) فالرب مصدر التشريع هنا. ثم يقول: «**وأما الباقون فأقول لهم أنا لا الرب**»(٤) فبولس هنا مصدر التشريع، ولكن القرارات النابعة من إرادته،

---

(١) متى ١٦ : ١٨- ١٩.
(٢) متى ١٨ :١٨- ٢٠.
(٣) كورنثوس١ ٧ :١٠.
(٤) كورنثوس١ ٧ :١٢.

تتخذ صيغة الأوامر وفي ذلك يقول: «**هكذا أنا آمر في جميع الكنائس**»[١]، وإنها لنعمة عظيمة يحسده عليها كل أمر اختلفوا فيه من أوامر الرب.

الموافق هو المشروع، والملاءمة هي المشرِّع، وبولس يقول: «**كل الأشياء تحل لي لكن ليس كل الأشياء توافق**»[٢] وعندما أدرك أن الملائم أو الموافق، ليس شاملاً على كل إنسان من ناحية الإلزام قال: **فإذاً كل واحد منا سيعطي عن نفسه حساباً لله. فلا نحاكم أيضاً بعضاً بعضاً**»[٣] وبذلك يضمن لآرائه العصمة في حومة صراعه مع الذين يشرون بغير أسسه. فله الحق حينئذ، وله مطلق الحرية في صياغة العقيدة التي لا يأنفها الأغراب، دون خشية من أحد.

وقياساً على تلك الأفكار أصبحت المجامع الكنسية عماد الدين كله، فيها يقرِّر رجال الكنيسة ما شاء لهم التشريع، حسب الملائم الذي لابد متغيِّر على الدوام. ففي مجمع نيقية سنة ٣٥٥م، تقرَّر أن عيسى هو ابن الله بشكل رسمي، وفي مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١م تقرر أن روح القدس هو الأقنوم الثالث في الإله، وفي مجمع ٣٨٦م تقررت الرهبنة، وفي مجمع رومة ١٢٢٥م منحوا الكنيسة قدرة الغفران، أو إعطاء هذه القدرة لمن تشاء، وفي مجمع ١٨٦٩م تقرر أن البابا معصوم عن الخطأ والزلل. وبنفس الأسلوب تمَّ إلغاء الكثير من أحكام الشريعة أو الأصول، فـ«البابا استيفن – على سبيل المثال – ٢٥٤ –٢٥٧ قرّر أن لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة»[٤]، إنه الموافق!! و«في عام ١٥٦٨ أصدر الديوان –أو المجمع– حكمه بإدانة جميع سكان الأراضي الواطئة والحكم عليهم بالإعدام»[٥].

لقد تكلمنا كثيراً عن بولس، وأظن أنه قد آن الأوان لنراه عن كثب، إنه الشخصية الأهم، ورسائله هي النواة التي التفّت حولها كل الشعائر المسيحية، بل هي المرجح الذي استخدم في اختيار هذه الأناجيل بين أيدينا.

---

(١) كورنثوس١ ٧ :١٧.

(٢) كورنثوس١ ٦ :١٢، ١٠ :٢٣، رومية ١٤ :١٤.

(٣) رومية ١٤ :١٢– ١٣.

(٤) ص٣١٨ ج١١ قصة الحضارة.

(٥) ص٧٥ المسيحية.

بولس هو الأصغر سناً إذا ما قورن بتلاميذ المسيح، بل أنه لم يرَ المسيح في حياته قط، وعلى الرغم من ذلك فقد أصبح الشخصية الأهم، على طول العهد الجديد وعرضه. إنه من سكان «طرسوس»، وقد «كان في طرسوس كما كان في معظم المدن اليونانية، أتباع للأورفية وغيرها من العقائد الخفية، يعتقدون أن الله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم، ثم قام من قبره»(١). ولكنه يهودي، بل ومن رجال اللاهوت، فقد كان حاخاماً يلتهب بالحماس لاضطهاد المسيحيين الأوائل. «**فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلّمهم إلى السجن**»(٢) إلا أن اليهودية مغلقة، وذات أسس وأصول يصعب على المرء تحطيمها بيسر، ولم يبق أمامه إلا التجربة مع الدين الجديد فربما يستطيع تحقيق طموحه وأحلامه، ولذلك زعم أن المسيح ظهر له في طريقه إلى دمشق، وكلمه بصوت مسموع، إلا أن التناقض فاضح، فتارة تقول الأنباء «وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين **يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً**»(٣). وتارة أخرى يقول بولس: «**والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني**»(٤). وهل يعني التناقض إلا نسف الخبرين معاً، خاصة أننا لم نعد نملك المرجح في أيهما هو الصادق على الحقيقة، أما التأويل فإني أنصح مستخدميه أن يبتعدوا به عن قضايا الإدراك التي ترتبط بالوقائع، فلا محل له هنا.

تلاميذ المسيح يقولون أن المسيح لم يكن مرسلاً إلا لليهود، وتلك عقبة لابد من إذلالها تحت أقدام الطموح والأحلام، وكانت مزاعم بولس القائلة، بأن المسيح كلفه بالرسالة إلى كل الأمم، عندما تراءى له على طريق دمشق، وعزّز هذا الزعم بشهادة من «حنانيا»، الذي حضر إليه يسوع هو الآخر في

(١) ص٢٤٩ ج١١ قصة الحضارة.
(٢) أعمال الرسل ٨ :٣.
(٣) أعمال الرسل ٩ :٧.
(٤) أعمال الرسل ٢٢ :٩.

المنام ليخبره، بأن بولس أصبح إناءً له ورسوله إلى كل البشر[1]. أما الشاهد الآخر فهو «برنابا» الذي زكاه أمام رجال اورشليم، كما زكى صحة اختيار المسيح لبولس[2]. وعلى ما يبدو أن بولس، لم يذهب إلى دمشق، إلا للتفاوض مع «حنانيا»، أو اكراهه على تلك الشهادة، أما عن شهادة «برنابا»، فربما أن «برنابا» أراد اصطياد بولس للمسيحية التي كانت ضعيفة، أو لاتقاء شرّه على الأقل، حتى زكاه وشهد له.

أما الذين شكوا في بولس من التلاميذ فكثر، أولئك الذين لم يوافقوا على صحة مزاعمه، بل وشكوا في صدق إيمانه ونواياه. وعندما يئس منهم، زعم أن المسيح أتاه إلى الهيكل وهو في غيبوبة تارة أخرى، ليحذّره من أصحابه الذين شكوا فيه، وأكد عليه بحمل الرسالة إلى الأمم وبعيداً عن تلك الظنون الفاسدة[3].

بولس في كفّة وكل الحواريون في كفة أخرى، فقد اختاره المسيح وفضله عليهم جميعاً، وهل لهم بعد ذلك من حجة، وما ذنب بولس إذا كان أصحاب المسيح بعد موته، أعظم مكانة عند المسيح نفسه من أصحابه لما كان حياً!! إنه منطق الأحلام الذي عقلنه اليهود بضربهم لبولس وإهانته في الهيكل[4]. وبذلك ساعدوه على اكتساب ثقة بعض المسيحيين، كما شحنوا عزيمته للفرار نحو الأمم.

واستمرَّت تجربة الحلم عند بولس سلاحاً انطلق به أنّى استقرَّ ورحل، وبمنطقها صارع الخصوم، وبيقينها شهد لآرائه بالعصمة، فهو لا يتكلم ولا يسكت إلا بأوامر الرب، التي تأتيه في الرؤيا أو الأحلام[5] فالمسيح يظهر له في النوم ليأمره بالذهاب إلى «مكدونية» لتبشير أهلها[6]، فبولس رسول فوق

---

(١) أعمال الرسل ٩ :١٥.

(٢) أعمال الرسل ٩ :٢٧.

(٣) أعمال الرسل ٢٢ :١٧- ٢١.

(٤) أعمال الرسل ٢٦ :٢١.

(٥) أعمال الرسل ١٨ :٩.

(٦) أعمال الرسل ١٦ :٩- ١٠.

العادة «**بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الأب**»[١] فقد اختاره الله منذ الأزل[٢] إنه مرسل ليعلّم بسرِّ الأنجيل[٣] أنه يعرف سر المشيئة الإلهية[٤] وهل يبالغ كثيراً إذا ما زعم أنه سيكون من الجماعة الذين سيجلسون مع يسوع يمين الرب[٥]، وهل هو صادق حقاً؟ لا، بل هو الصدق نفسه! وها هو يقول: «أقول الصدق في المسيح لا أكذب **وضميري شاهد لي** بالروح القدس»[٦] وهل لأحد أن يحكم عليه بمعايير الصدق والكذب؟ لا، فهو إنسان فوق المعايير ليس كالبشر، إنه إنسان روحي «**وأما الروحي فيحكم في كل شيء وهو لا يُحْكَم فيه من أحد**»[٧] فليس لبشر عليه من سلطان وفي ذلك قال: «**الذي يحكم فيَّ هو الرب، إذاً لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب**»[٨]. وعليه فلا كرازة بالمسيح مشروعة إلا له فقط دون سائر الرسل والمبشرين[٩].

وهل كثيراً إذا ما جعل من نفسه بعد ذلك أميراً على التشريع ومصدراً له؟ لا، فهذا من حقه، في رأي نفسه على الأقل، فكل حركة أو قول يصدر عنه فهو دين يُتَّبع، وها هو يقول: «**وما تعلمتموه وتسلمتموه وسمعتموه ورأيتموه فيَّ فهذا افعلوا وإله السلام يكون معكم**»[١٠]. وحتى رأيه فهو مقدس لأنه ببساطة يساوي تشريع الأب أو الابن[١١]. والمعجزات تشهد له، تلك التي بذَّ بها المسيح نفسه، اعتباراً من شفاء المرضى نهاية باحياء الموتى،

---

(١) غلاطية ١ :١.

(٢) تيموثاوس٢ ١ :٩.

(٣) أفسس ١ :٢٠.

(٤) أفسس ١ :٩.

(٥) أفسس ٢ :٧.

(٦) رومية ٩ :١.

(٧) كورنثوس١ ٢ :١٥.

(٨) كورنثوس١ ٤ :٤-٥.

(٩) تيطس ١ :٣.

(١٠) فيلبي ٤ :٩.

(١١) كورنثوس١ ٧ :٢٥- ٢٦، ٧ :٤٠.

فمعجزاته غير عادية، لقد تجاوزت المألوف، والمألوف لابد أن يشمل يسوع تحت لوائه، نعم، «**وكان الله يصنع على يدي بولس قوات غير المعتادة**»[1].

بولس إذن رسول لا من الناس، بل من الله أو ابنه، وهذا يعني تحلله مما في أيدي الناس، مما في أيدي التلاميذ، فليس ملزماً بإنجيلهم، أو بما لديهم من تشريع، وكيف ذلك إذا كانت نفسه الزكية مصدراً للتشريع، إن لديه رسالة، والمعجزات تشهد على صدق مزاعمه، ولكن من هو النبي على الحقيقة؟ فهل كان بولس ينشد النبوة؟ إلا أنه لا بشائر في العهد القديم إلا تلك التي تحكم بقتله، ولا المسيح عند أصحابه إلا لليهود، فهل بقي لديه إلا الفرار نحو الأمم، ومن تلك الشكوك مجتمعة اعتبر بولس «خائناً لفكر المسيح كما وصفته بذلك أسرة المسيح والحواريين الذين بقوا بالقدس حول جاك»[2].

وفي الختام يجب أن نذّكر بما قلناه عن البشائر والمبشرين، لنضيف إليها عنصراً آخر، وهو الأغراض أو المطامح، لأنه مسؤول أيضاً عن صياغة المسيح و المسيحية بشكل مباشر.

- بولس وانجيل يسوع:

لقد انطلق بولس إلى الأمم، وجرَّ وراءه تلاميذ يسوع يقاومونه في كل مكان، وكان كثيراً ما يهرب منهم، أو من الأسس التي يبشرون بها، وبولس نفسه يعترف بالهرب، كما يعترف باختلاف الأسس، واختلاف الأسس ذو معنى كبير عندما قال: «**ولكن كنت محترصاً أن أبشِّر هكذا. ليس حيث سمي المسيح لئلا أبني على أساس لآخر**»[3].

المعركة عنيفة، والأسس في صراع، والحرب دائرة بين الحق والباطل، وأعداء بولس من المبشرين كانوا يمنعونه من التبشير[4] ويألبون الناس عليه،

---

(١) أعمال الرسل ١٩ :١١.

(٢) ص٧٣ دراسة الكتب المقدسة.

(٣) رومية ١٥ :٢٠.

(٤) رومية ١ :١٣.

حتى ارتد عنه جميع أهالي «آسيا»[١]. وكثيراً ما كان يجلس مع أحزانه، يئن تحت الجراح ليشكو آلامه وهمومه إلى أصحابه، ولكن، هاهو يقول: «**في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي بل الجميع تركوني**»[٢] وأصبح الرعب رفيقه الدائم، من الأصدقاء والأعداء على حد سواء، «**من خارج خصومات من داخل مخاوف**»[٣] وعندما تسلل اليأس إلى قلبه راح يلعن الجميع ويشتمهم، أما أعداؤه فهم «**غاشين كلمة الله**»[٤] و«**رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح**»[٥]، يخدعون الناس بالكلام الملق[٦] ذوي حسد وخصام[٧]، مراءون[٨]، فاسدون في الذهن والإيمان[٩]، «فجار»[١٠]، إنهم «**كالحيوانات غير الناطقة**»[١١] «**تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين**»[١٢] وبعدها طالب بإبعادهم عن طريقه أو هلاك أجسادهم وتسليمهم إلى الشيطان أو الموت[١٣].

أما أصحابه الذين ارتدوا عنه فهم أغبياء، وأغبياء بالجملة[١٤] والذين لم يرتدوا عنه عاملهم كأغبياء، فحظَّر عليهم مخالطة أي مبشِّر يقول بغير أسسه[١٥]. فقد كان يخشى حجة خصومه التي قد تكون دامغة، وعندما كثر المرتدون راح يعزي

---

(١) «تيموثاوس٢» ١ :١٥.

(٢) «تيموثاوس٢» ٤ :١٦.

(٣) «كورنشوس٢» ٧ :٥.

(٤) «كورنثوس٢» ٢ :١٧.

(٥) «كورنشوس٢» ١١ :١٣.

(٦) كولوسي ٢ :٤.

(٧) فيلبي ١ :١٥.

(٨) غلاطية ٢ :١٣.

(٩) تيموثاوس٢ ٣ :٨.

(١٠) رسالة يهوذا- ٤.

(١١) رسالة يهوذا- ١٠.

(١٢) تيموثارس ٤ :١٠.

(١٣) كورنثوس١ ٥ :١- ٥.

(١٤) غلاطية ٣ :١، ٣.

(١٥) رومية ١٦ :١٧، «تسالونيكي٢» ٣ :٦، تيطس ٣ :٩.

نفسه بالبشائر قائلاً: «**ولكن الروح يقول صريحاً أنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين**»[١].

وعندما تململ مريدوه من منطقه الغيبي الذي تميز به، راح يدافع عن منهجه، على طريقة أصحاب الذوق، الذين قالوا بالهوة التي لا تُعبر بين الإدراك والتعبير، فاتهم نفسه بالغباء واختلال العقل قائلاً: «**أقول كمختل العقل**»[٢]، «**قد صرت غبياً**»[٣] إلا أن ما يرمي إليه من هذه الأقوال، هو اتهام أصحابه بالقصور والبلادة عن معرفة ما يريده بالضبط، ولذلك قال: «ليتكم تحتملون غباوتي قليلاً»[٤] كما قال: «**لا يظن أحد أني غبي وإلا فاقبلوني ولو كغبي**»[٥] وكيف يكون غبياً من لا كلام له إلا بالحق؟ إنه لا يتكلم إلا بحق وهو غير مسؤول عن عجز إدراكهم، فليس الذنب ذنب منهجه الغيبي، وإنما هم المقصرون، هم الأغبياء أو المحجوبون، وإذا ما عرفوا هذه الحقيقة، فليس لهم إلا التسليم بحقائقه وأسسه بلا نقاش، ولو اضطرهم الأمر إلى قذف عقولهم، لأن البراهين غاية الحمقى، وما هو العقل إن كان مهاناً بالفساد؟!.

لقد اختلفت الأسس التي اعتمدها المبشرون، أو قل تعددت الأناجيل، مما أدى لاختلاف صياغة المسيح المبشَّر به، وبولس يعترف بذلك في نصائحه إلى مريديه الذين اصطادهم عندما قال: «فإنه إن كان الآتي يكرز **بيسوع آخر** لم نكرز به أو كنتم تأخذون روحاً آخر لم تأخذوه أو **إنجيلاً آخر** لم تقبلوه فحسناً كنتم تحتملون»[٦]، كما يعترف بإنجيله الخاص به، الذي ذكره في مناطق متفرقة من رسائله قائلاً: «**حسب انجيلي**»[٧] «**إنجيلنا**»[٨] كما سماه

(١) تيموثاوس١ ٤ :١.
(٢) كورنثوس٢ ١١ :٢٣.
(٣) كورنثوس٢ ١٢ :١١.
(٤) كورنثوس٢ ١١ :١.
(٥) كورنثوس٢ ١١ :١٦.
(٦) كورنثوس٢ ١١ :٤.
(٧) رومية ١٦ :٢٥، تيموثاوس٢ ٢:٨.
(٨) كورنثوس٢ ٤:٣.

بـ«**إنجيل مجد الله المبارك**»[1] فله إذن طريقة خاصة في المسـيح[2]. ولكـن من أين له هذا الإنجيل؟

المنطق الغيبي، أو منطق الأحلام، يجيب على لسـان بولـس، انـه ليـس عـن إنسان، ولا عن استقراء لما في أيدي الحواريين، أو الذيـن أدركـوا المسـيح، بـل من المسيح نفسه، وفي ذلك قال: «الإنجيل الذي بشرت بـه **أنه ليـس بحسب إنسان**، لأني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته **بل بإعلان يسوع المسيح**»[3].

فالمسيح الميت أملاه عليه، وتلك هي مزاعم الوسطاء من الروحيين وأصحاب التصوف على الدوام، ومـا ذلـك إلا رغبـة في التحـرر مـن المعايير، وبولـس إن تمَّ تصديق مزاعمه فقد أصبح إنساناً فوق النقد، وأصحاب المسيح أو آراؤهـم ليسـوا بحجة عليه، وكيف يكونون حجة إذا أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، بينما هو آخـذ علمه عن الحي الذي لا يموت، وشتان بين الطريقين.

وعندما فرغ بولس مـن تدويـن إنجيلـه المعلـن مـن يسـوع خشـي افتضـاح أسسه، ومن أجل اختبار مدى ردود الفعل التي سـيحدثها بالنـاس، قـام بتلـك التجربة التي يقول عنها: «وعرضت عليهم الإنجيل أكرز بـه بـين الأمـم **ولكـن بالانفراد على المعتبرين** لئـلا أكـون أسـعى أو قـد سـعيت بـاطلاً»[4]. ولكـن أليس غريباً أن يشك بولس في صدق الوحي، في صـدق وأمانـة المسـيح الـذي أملاه عليه حتى جعل من الناس أو إنجيل التجربة حكماً على إنجيل الوحي؟

وبعدها انطلق بولس بإنجيله هذا إلى الأمم وهو يقول: «لست أسـتحي بـإنجيل المسيح»[5] الذي أوحاه إلي، «فإن الله الذي اعبده بروحـي في إنجيـل ابنـه»[6] لا

---

(١) تيموثاوس١ ١ :١١.

(٢) كورنثوس١ ٤ :١٧.

(٣) غلاطية ١ :١١- ١٢.

(٤) غلاطية ٢:٢.

(٥) رومية ١ :١٦.

(٦) رومية ١ :٩.

في سواه، وهكذا كانت قصة ما بشرٌ به الأمم، وهكذا كانت السعادة بين يديه عندما قال: «قد أكملت التبشير بإنجيل المسيح»(١).

وزيادة في إيضاح الفرق بين المنهج الذي يخضع للصدق والكذب، وبين المنهج الاستشرافي الذي يحاول العلو على المعايير والأحكام، وإحقاقاً للحق، نرى لزاماً علينا أن نستمع إلى «لوقا»، وتجربته التي دوّن من خلالها إنجيله الذي بين أيدينا وهو يقول: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا. كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة. رأيت أنا أيضاً **إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفليس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به**»(٢). وليس مما يعنينا الآن أن «لوقا» هذا هو «لوقا الحواري» الذي رأى المسيح أم لا بقدر ما يعنينا أن تجربته خلت من المنطق الغيبي واقتصرت على تجربة الوصول إلى إدراك الخبر الصحيح دون الزعم بوحي أو عصمة.

ولكن أليس للمسيح كتاب أو إنجيل خاص به، يستطيع السيطرة على نيران تلك الحرب الدائرة حوله أو حول تعاليمه؟

لقد قال بعض النقاد: بلى، واعتمدوا لتحرير هذا الرأي، على أقوال بولس التي ذكرناها قبل، تلك التي ربطت بين الإنجيل والمسيح كقوله: «بإنجيل المسيح»(٣). «إنجيل ابنه»(٤)، **ولكن من الواضح أن هذا الرأي، يغض النظر عن قصة الإنجيل الذي أوحاه يسوع بعد موته إلى بولس**، وحتماً بل ومن البديهي أن يطلق بولس على هذا الإنجيل اسم إنجيل المسيح. أما الإشارة الحقيقية التي تشير إلى إنجيل المسيح الذي تركه قبل الموت، نجدها عند «مرقص» الذي يقول على لسان المسيح: «**قد كمل الزمن واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل**»(٥) لأنه من غير

---

(١) رومية ١٥ :١٩.

(٢) لوقا ١ :١- ٤.

(٣) رومية ١ :١٦، ١٥ :١٩.

(٤) رومية ١ :٩.

(٥) مرقص ١ :١٥.

المعقول أن يطالب المسيح بالإيمان لما لم يوجد بعد، فالإنجيل المغني بهذا القول، هو إنجيل موجود بين يديه قطعاً، لأن الآية تربط الموضوع ما بين فكرة ﴿**قد أكملت لكم دينكم**﴾ وما بين الكتاب الذي اعتبره مصدر الإيمان الصحيح. ولكن الحرب لا ترحم، وتوارى ذلك الإنجيل وراء النيران والدخان، وربما أنه ينتظر يداً تنتشله من بين التراب والمخابىء، حتى تكون العودة الثانية إلى حقيقة المسيح بكل ما تعنيه الكلمة في مساواة النزول والصعود، ومن المعلوم أن «آيسلر» عثر «في ترجمة سلافية لـ«يوسف» على وصف يسوع»[(١)]. يختلف اختلافاً كلياً عن هذه الشخصية التي ترسمها لنا مهارة الفنانين، والله أعلم بالأمر أولاً وآخراً، أما الذي نعلمه فيقول: إنه إذا وجد إنجيل المخابىء وإذا ما تمَّ الإقرار بإنجيل المسيح الذي كان في حياته فهذا معناه حذف كل الإيمانيات التي رافقت الموت أو ما بعده وعندها يجب أن تنفصل المتراسية عن المسيحية بكل تأكيد.

الحرب لا ترحم، وحتى إنجيل بولس أصبح مكتوماً في الهالكين، أما عن الأناجيل التي كانت موجودة قبل مؤتمر نيقية فكثيرة جداً و«ربما كان ما حذف مائة إنجيل»[(٢)]. فعلى سبيل المثال كان هنالك «إنجيل ينسب لمتى غير إنجيله السابق ذِكْرُه في الأناجيل الأربعة، وإنجيل ينسب لبرنابا، وإنجيل ينسب للحواري يعقوب، وإنجيل ينسب للحواري توماس، وإنجيل ينسب للقديس نيكوديم، وإنجيل يقال له إنجيل السبعين وينسب إلى تيلامس، وإنجيل يقال له إنجيل الأثنى عشر، وإنجيل اشتهر بأسم التذكرة، وإنجيل كان يسمى إنجيل العبريين أو الناصريين، وإنجيل كان يسمى إنجيل المصريين، وكان لكل من أتباع ديصان وأتباع مرقيون أو مرسيون وأتباع أبسيون إنجيل يختلف عن إنجيل من عداهم»[(٣)]. وهنالك إنجيل يسمى إنجيل «الصبورة»[(٤)] وإنجيل آخر «يسمى بالإنجيل الاغنطسي، طمست رسومه وعفت آثاره، يبتدىء بمقدمة تندد بالقديس بولس»[(٥)].

---

(١) ص ٢٢١ فلاسفة انسانيون.

(٢) ص٩٩ دراسة الكتب المقدسة.

(٣) ص٩٣ الأسفار المقدسة.

(٤) ص٤٠٧ قصص الأنبياء.

(٥) ص٤٠٥ نفسه.

الأناجيل كثيرة، والآراء متضاربة، وبما أن الصراع الأعظم كان حول قضايا ميتافيزيقية تندّ عن الحسم، لذا كان مؤتمر نيقية سنة ٣٢٠م الذي تم فيه الغلبة والانتصار، إلى الرأي الذي يقول بألوهية المسيح، وكان من مقرراته، انتخاب هذه الرسائل والأناجيل الأربعة التي بين أيدينا، كما تم إحراق كل ما سوى ذلك، وكذلك تم التهديد بالإعدام وفقد الأملاك، لكل من توجد لديه أشياء من تلك الأناجيل الممنوعة التي تقول ببشرية المسيح عليه السلام.

لقد انتصرت بيئة نيقية، لقد انتصرت الإسكندرية، وانتصر «اثناسيوس» وانتصرت بيئة طرسوس، وبقيت الأناجيل الأربعة تصور لنا المحارب الوحيد، الذي لا نرى غيره في حومة الوغى وحلبة الصراع، إلا أنه يتلوى ألماً في كل خطوة وسطر، من أعدائه ذوي البأس والشكيمة.

أما عن تاريخ هذه الأناجيل حسبما يقول النقاد، فـ«ترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدوا أنها كتبت بين عامي ٦٠، ١٥٠م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان، لأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود، يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها»[١].

- ابن الله بين التأويل والحقيقة:

وإذا أردنا التعرف على إرادة الاختيار التي هيمنت على مؤتمر نيقية، فيجب النظر في تعبير «ابن الله» بين كفتي التأويل والمرجح، وبادىء ذي بدء نقول: أن اليهودية اهتزت وربت وأنبتت العديد من الآراء المتناقضة في الألوهية، إلا أن المستقرّ اعتمد على مستودع التأويل، فأوّلوا قضية زواج أبناء الله ببنات الناس، قائلين أن ابناء الله هم «الشرفاء أو أرباب الرتب العالية، وقيل أنهم أبناء شيث الأقوياء، وأن بنات الناس هن بنات قايين»[٢]. كما أوّلوا العبارات

---

(١) ص٢٠٧ ج١١ قصة الحضارة.

(٢) ص٩٠ سلاسل المناظرة.

التي تشير إلى تعدد الآلهة، بأن قالوا أن لفظة الله تطلق على المَلَكْ، كما تطلق على القاضي الشرعي أو النبي، ولذلك أطلقت على موسى أو سواه، وبالتأويل حازوا على التوحيد في نهاية الأمر.

ولو نظرنا في كل آيات العهد الجديد، لرأيناه يقول بألوهية المسيح تارة، وبعجزه تارة أخرى، أما الإله فقالوا أنه لم يره أحد(١). ولا يجوز عليه الموت(٢) إلا أنه حسبما يقول القديس بولس، يجوز عليه الجهل ويعتريه الضعف(٣).

– المسيح ابن الله: المسيح ابن الله الوحيد، المرسل إلى البشر،(٤) ولقد نادى الله بأعلى صوته بتلك البنوة على الجبل، **وشهد ذلك «يوحنا المعمدان» أو «ايليا» و«موسى» و«التلميذان»** فلا التباس في الأمر، إنه ابن الله، إنه كأبيه، بل إن الدينونة أو حساب البشر بعد البعث تنازل عنه الآب لابنه(٥)، وكما أن الله يحيي الأموات، كذلك المسيح يحيي من يشاء(٦). وإذا ما قال الله «**أنا هو الألف والياء البداية والنهاية**»(٧) فإن المسيح يقول أيضاً: «**وأنا هو الألف والياء الأول والآخر**»(٨) فلا فرق بينهما، وليس غير الابن من خالق للسموات والأرض والحياة والسلاطين(٩) وبعد موته ارتفع إلى السماء، ليجلس على العرش يمين أبيه وقريباً منه(١٠). وأصبح ذلك كله من المُحْكَم الذي لا تأويل له بعد مؤتمر نيقية.

---

(١) يوحنا ١ :١٨، رسالة يوحنا الأولى ٤ :١٢.

(٢) «تيموثوس١» ٦:١٦.

(٣) كورنثوس١ ١ :٢٥.

(٤) متى ٢١ :٣٧، مرقص ١٢ :٦.

(٥) يوحنا ٥ :٢٣.

(٦) يوحنا ٥ :٢١.

(٧) رؤيا ١ :٨.

(٨) رؤيا ١ :١١.

(٩) يوحنا ١ :٣- ٤، رؤيا ٤ :١١، أفسس ٣ :٩، ٢ :١٠.

(١٠) مرقص ١٦ :١٩، لوقا ٢٤ :٥١، أعمال الرسل ١ :٩.

- **المسيح ابن يوسف النجار:**

ولكن ليس من المسلّم به حتى في الأناجيل والرسائل، أن المسيح ابن الله، ففي معرض الحديث بين «فيلبس» و«نثنائيل»، يقول الأول أن «**يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة**»(١) بل وأمه تناديه بابن يوسف النجار(٢) وهذا ما يقوله اليهود أيضاً(٣) وكل الذين عرفوه(٤) يقولون ذلك.

- **المسيح بشر ورسول:**

أما عن صفات العجز التي اتصف بها المسيح فكثيرة، إنه يعلم الغيب، وأحياناً كثيرة يعجز عن ذلك(٥) وكذلك لا يستطيع القيام بالمعجزات متى شاء، أو في أي مكان شاء(٦)، وما يريده أو يرغب فيه، لم يكن دائماً كما يريد(٧) فعندما حاول الاختفاء عن أعدائه لم يكن له ذلك(٨) وكثيراً ما كان التعب يعتريه، وكثيراً ما نشد الراحة(٩)، وها هو يجوع، ويكره الجوع، حتى أنه يبّس التينة التي لم يجد فيها رجاءه من الثمار(١٠)، لقد نعته اليهود بالأكول(١١) وأسره الشيطان وسار به كيفما شاء، ليجربه(١٢)، وعندما اعتقله اليهود كان خائفاً، حتى احتاج إلى من يقوي عزيمته(١٣)، وعلى الصليب أصبح خائر القوى، جزعاً أمام رهبة الموت، فاتهم إلهه بالخذلان، حتى «**صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً ايلي ايلي لما شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني**»(١٤).

---

(١) يوحنا ١ :٤٥.
(٢) لوقا ٢ :٤٨.
(٣) يوحنا ٦ :٤٢.
(٤) لوقا ٣ :٢٣، ٤ :٢٢.
(٥) متى ٢٤ :٣٦، مرقص ٦ :٣٨، * ٨ :٥.
(٦) مرقص ٧ :٢٤.
(٧) لوقا ١٣ :١٤.
(٨) مرقص ٧ :٢٤.
(٩) يوحنا ٤ :٦.
(١٠) مرقص ١١ :١٢- ١٣.
(١١) متى ١١ :١٩.
(١٢) متى ٤ :١، ٥، ٨.
(١٣) لوقا ٢٢ :٤٣.
(١٤) متى ٢٧ :٤٦.

الآيات كثيرة تلك التي تؤكد أن المسيح ليس إلا رسولاً فقط، أرسله الله إلى البشر(١). كما تؤكد الآيات، أن المعجزات التي جرت بين يديه لم تكن بفعله، وإنما من الله لتشهد له بصدق الرسالة، فمن الله يستمد العون(٢).

أما ذكر البنوة فلم يقترن بالمسيح فقط دون سواه، فقد أطلقت على المؤمنين، بصيغة «أباكم» و«أبيكم» «أبانا»، كما ورد ذكر لفظة «أبي» و«أبيكم» في آية واحدة(٣) وكذلك ورد ذكر الأبوة التي تشمل الجميع(٤) و«**كل من يحب فقد ولد من الله**(٥)، والمطيعون أولاده(٦)، والذين لا يخطئون(٧)، والذين يصنعون البر(٨) هم أولاده أيضاً. والمسيح نفسه يعترف بأنه نبي وإنسان(٩) كما يقول: «**وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله**»(١٠)، كما أنكر كل نسب للمشاركة، ولو بأدنى معانيها عندما قال: «لماذا تدعونني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله»(١١)، فلا شريك لله الواحد، ولا إله إلا الله.

ألوهية المسيح وبشريته إذن متساويتان أمام الآيات، أما الذي اختلف فهو المرجح، والذين قالوا بالألوهية، هم الذين جعلوا البيئة حكماً في إيجاد وتقرير المحكم، ومن أجل تأويل الآيات التي تخص البشرية، قالوا بالتمييز بين اللاهوت والناسوت في طبيعة المسيح، وازداد الأمر تعقيداً بما لا طائل من ورائه ولا يقين، شأن كل القضايا التي تخلو من المعايير.

---

(١) متى ١٠ :٤٠، يوحنا ١٣ :٢٠، لوقا ١٠ :١٦.

(٢) يوحنا ١٠ :٢٥.

(٣) يوحنا ٢٠ :١٧.

(٤) متى ٢٣ :٩- ١٠.

(٥) يوحنا الأول ٧ :٤.

(٦) رومية ٨ :١٤.

(٧) يوحنا الأول ٥ :١٨.

(٨) يوحنا الأول ٢ :٢٩.

(٩) متى ١٣ :٥٧، لوقا ٢٤ :١٩.

(١٠) يوحنا ٨ :٤٠.

(١١) متى ١٩ :١٧، مرقص ١٠ :١٨، لوقا ١٨ :١٩.

أما لو ذهبنا نسأل المسيح نفسه في هذه المسألة، لرأيناه يقول أن المحكم هي الآيات التي تقرّ بالبشرية، أما الآيات التي تشير إلى ألوهيته فهي التي تحتاج إلى التأويل، لقد أعلن أنه ابن الله، هذا صحيح، فاتهمه اليهود بالتجديف والمروق، فردَّ عليهم قائلاً: «**أليس مكتوباً في ناموسكم أنا «قلت أنكم آلهة». أن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن يُنقض المكتوب. فالذي قدسه الأب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدّف لأني قلت إني ابن الله**»(1). أما الآية التي أوّلها المسيح، فموجودة في المزمور «٨٢ :٦» والقائلة: «**أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي كلكم**». وليس هذا فحسب بل نراه وقد لعن الشيطان، لأنه نادى بمبدأ تعدد الآلهة،(2) كما قرّر التوحيد، ونفى التعدد(3).

ولكن لم يُكتب النصر لرأي المسيح هذا، لذا قلنا أن النصوص لم تكن هي المعيار والحَكَمْ في تحديد المتشابه من المُحْكَمْ، والقرآن يقول: ﴿**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل**﴾(4)، وهكذا كانت فلسفة الملائم والموافق، ميزانهم في التأويل، وفي صياغة المسيح والمسيحية.

أما إذا كان المرجح في التأويل لاعتباره ابن الله هو ولادته من عذراء، أي بلا أب من البشر، فإن التجربة لا تقرّ تلك الولادة، إلا إذا نسبنا كل مجهول إلى الله، ولهذه المسألة أمام المعرفة تاريخ طويل، فقد كان البدائي يجهل أسباب الحمل، حتى نسبه إلى ألوان من الأطعمة تأكلها المرأة، و إلى الأشباح التي تدخل جوفها، فليس النكاح شرطاً ضرورياً لحدوث الحمل في تجربته، و«جمهور النصارى قالت لم تحمل به - أي أمه مريم - ولكن دخل من أذنها، وخرج من فرجها»(5). حتى أن الحمل العذري الناتج عن التلامس دون

---

(1) يوحنا ١٠ :٣٤- ٣٦.

(2) متى ٤ :١٠.

(3) مرقص ١٢ :٢٨- ٣٤، لوقا ٤ :٨.

(4) التوبة ٣٠.

(5) ص٣٥ ج٢ الملل والنحل.

النكاح، لم يكن معروفاً عند البشر إلا حديثاً، ومريم كانت مخطوبة إلى يوسف النجار، وهما معاً في الحل والترحال، بل وورد ذكر نَسَبٍ ونداء مابين يوسف ويسوع من أفواه كثيرين، فهل هو ابن ليوسف النجار على الحقيقة، أم أن الأمر معجزة من العلي القدير؟ **القرآن يقول أن معجزة الكلام في المهد أمام اليهود، هي التي برأت مريم عليها السلام من كل شك حام حول شرفها**[1]. إنها المعجزة إذن، وليس الجهل بالأسباب، أما المسيحية التي بين أيدينا فلا اهتمام لها في دحر الجهل، بما أن حديث أبناء الخالة من بطن إلى بطن، بقي بعيداً ومنعزلاً عن تلك المهمة، لأنه بعيد عن **شهادة الجميع، وشهادة الأختين قد تُطعن بالتواطؤ لأن شرفهما واحد.**

العقل لا يستطيع اقتراح قانون يقول: بأن كل مجهول الأب فهو ابن الله، كما لا يستطيع إدراك زواج الله بالنساء، ولا أظنه حلاً عندما جعلوا روح القدس أقنوماً ثالثاً في الله، وإذا ما تقطّعت تلك السبل، فلا شيء أمامنا غير القرآن، فمن أجل العذراء وشرفها يجب على النصارى أن يقدسوه، ويجب أن يقدسوه لأنه الأمل الوحيد لإثبات وجود المسيح في التاريخ.

- المسيحية بين الأخلاق والقانون:

القانون من بعض الوجوه يعني الشريعة التي تحافظ على المجتمع، والملحد يصادر على المجتمع السليم، ويعتبره معياراً لابد منه في نقاش قضايا الإيمان، ولما كان القانون بلا أخلاق لا قيام له، ولما كان لا قيام لمجتمع بلا قانون، فلابد إذن من النظر في شريعة المسيح. إلا أن المسيح لم يشرِّع، بل بالعكس فقد ألغى القانون، وأخذ بالأخلاق فقط، إن صح التعبير، وكأنه وقف على ساق واحدة، فقد ألغى الأحكام والحدود بكل أصنافها، وأجَّل الحكم لما بعد الموت، إلى يوم الدينونة - وفي ذلك يقول: «**سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن**

---

(١) آل عمران ٤٦، مريم ٢٩ -٣٣.

فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا»[١]. كما يقول: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم»[٢] كما عفى عن الزانية،[٣] فهو لا يحاكم أحداً، بل ورفض تقسيم الميراث للأخوة الذين اختلفوا عليه،[٤] كما نهى عن الاهتمام بالحياة وهو يقول: «لذلك أقول لكم **لا تهتموا لحياتكم** بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون»[٥] «**فلا تهتموا للغد**»[٦].

وطلب من المؤمنين أن يهجروا الأموال(لوقا ١٤ :٣٣)، فلا يحق لهم اقتناء الذهب والفضة والنحاس[٧]، وأخيراً ضرب العداء بين الله والأموال، وخيرَّ المؤمنين بينهما، بين الجنة أو النار[٨] فليس للأغنياء نصيب في الجنة، كما حبَّبَ لأصحابه أن يكونوا خصياناً[٩] وأمر الإنسان بكره نفسه.[١٠] أما القديس بولس فيقول: «**فحسن للرجل أن لا يمس امرأة**»[١١] كما نهى عن أي أهتمام بالعمل إلا الصلاة والدعاء[١٢] بل «**إن محبة العالم عداوة لله فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله**»[١٣]. وإذا ما كان هنالك أعداء

---

(١) متى ٥ :٣٨- ٤٠.

(٢) متى ٥:٢١ - ٢٢.

(٣) يوحنا ٨ :٢-١١.

(٤) لوقا ١٢ :١٣- ١٤.

(٥) متى ٦ :٢٥.

(٦) متى ٦ :٣٤.

(٧) متى ١٠ :٩.

(٨) لوقا ١٦ :١٣.

(٩) متى ١٩ :١٢.

(١٠) لوقا ١٤ :٢٦.

(١١) كورنثوس١ ٧ :١.

(١٢) فيلبي ٤ :٦.

(١٣) يعقوب ٤ :٤.

خطرون، فلا يجب الاستعداد لهم بالسلاح، بل بالدعاء والصلاة ففيهما الكفاية، «**إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية بل قادرة با لله على هدم حصون**»[1]، وبذلك كله كان انعزال المسيحية عن الحياة، عن المجتمع، عن إيجاد المجتمع السليم.

المسيح لم يشرِّع، ولا أمر أصحابه بتدبير شئونهم، ولابد من التعليل، بما أنه لم يقصد إلى فناء المجتمع وسحق الإنسان، **والتعليل الصحيح نراه ذو شقين: الأول: رسالته التي لم تكن إلا لليهود** المميزين بالجشع ووجود القانون، فإذا حلَّت الأخلاق محل الجشع، فهو الإمكان والرسالة لايجاد المجتمع الصحيح، وهو ما كان يرمي إليه بالفعل، حتى أنه بدون، اليهودية وما تميزت به طبيعة اليهود، يصعب على العقل فهم المسيحية على الحقيقة، أو التعرف عليها.

أما السبب الثاني: فيعود إلى هيمنة فكرة قيام الساعة القريب، على عقلية المسيح، أو بتعبير أصح، على عقلية كتبة الأناجيل، وإلا فما الذي يعنيه القديس بولس بقوله: «**الوقت منذ الآن مقصرٌ لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم**»؟[2] إن الذي يعنيه، أن الساعة قريبة، ولذلك فالصبر عن النساء ليس صعباً، فضحَّوا بالقليل من أجل الكثير، حتى تربحوا الأبد، وإلا فأي عاقل ينادي بالقضاء على النسل، وأين الحكمة عندها؟.

المسيح يستخدم لفظة الجيل كوحدة زمنية، عند تحديده لقيام الساعة وخراب العالم، والجيل قريب، وفي ذلك يقول: «وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه، ونجوم السماء تتساقط والقوات التي في السموات تتزعزع، وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد. **الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله، وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد** ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب. انظروا اسهروا وصلوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت»[3]. ويقول

---

(١) كورنثوس٢ ١٠ :٤.

(٢) كورنثوس١ ٧ :٢٩.

(٣) مرقص ١٣ :٢٤- ٢٧، ٣٠، ٣٢، ٣٣.

في إنجيل متى: «**الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله**»[١] فمجيء الملكوت لا يتجاوز تحديد الجيل[٢] بل وكان أوضح ما يكون في تحديد لفظة الجيل عندما قال: «**الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته**»[٣].

وهنالك تحديد آخر، قاله للتلاميذ الذين أرسلهم للتبشير في مدن اسرائيل، هو قوله: «فإني الحق أقول لكم **لا تكلمون مدن اسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان**»[٤].

الكثيرون جلسوا ينتظرون قيام الساعة ومجيء الملكوت، بما أنه أقرب من السواد إلى البياض، وعندما يئس القوم وملوُّا الانتظار، قال البعض مأولين: إن القيامة قامت، ولابد، بما أن الجيل مضى أو كاد. ولكن بولس شتم هذا الرأي قائلاً: «**هيميناس وفيليتس – اللذان زاغا عن الحق قائلين أن القيامة قد صارت**»[٥] وأخيراً مرَّ الجيل، وأصبح المحكم في خطر، فارتأى الكتبة تأجيل الحدث، وكانت لهم الطرق التي يتجاوزون بها المأزق الحرج، حتى زرعوا العراقيل الكثيرة، قائلين: «**أيها الأحباء إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة** وألف سنة كيوم واحد»[٦]، كما اشترطوا على الحدث وجود ضد ليسوع، له الكثير من المعجزات الكاذبة»[٧]. ولكن «يوحنا» البشير يقول «أيها الأولاد هي الساعة الأخيرة وكما سمعتم إن هذا المسيح يأتي **قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة**»[٨]. وعندما أراد القديس بولس، رفع التحديد الزمني عن خراب العالم وقيام الساعة قال: «**إن يوم الرب كلص في الليل هكذا**

---

(١) متى ٢٤/٣٤.
(٢) لوقا ٢١ :٥- ٢٩، ٣٢.
(٣) متى ١٦ :٢٨، لوقا ٩ :٢٧، مرقص ٨ :٣٨.
(٤) متى ١٠ :٢٣.
(٥) تيموثاوس٢ ٢ :١٧- ١٨.
(٦) بطرس الثانية ٣ :٨.
(٧) تسالونيكي ٢ :٣- ١١.
(٨) يوحنا الأولى ٢ :١٨.

يجيء»(١)، فهكذا إذن سيجيء الرب كلص، فلا زمن له، ولكن أصحاب الحكمة الذين فضلُّوا الأدب على العلم كثر، ونرجوا الله أن يسامح القديس ويغفر له.

ولكن لو أمعنا النظر في تلك العقبات والعراقيل التي وضعوها أمام خراب العالم القريب، لما وجدناها تستطيع تجاوز التحديد بالحياة، أو التحديد بالمهام، ناهيك عن أن التحديد كان على لسان المسيح، ولا كذلك تلك العقبات، وهو الذي ألغى القانون وليس سواه، وبقيت المسيحية منفصله عن الحياة عن المجتمع عن القانون، لا كرهاً بالحياة ولا كرهاً بالمجتمع ولا خروجاً عن اليهودية، بل لأن مجيء الرب وخراب العالم قريب جداً.

- المسيح والصليب:

وإذا ما أردنا الآن، نموذجاً يضُم كل الذي قلناه في كيان واحد، فليس لنا أفضل من قصة الصلب، التي تعكس طبيعة الفكر المكوِّن للمسيحية. ففيها التناقض، وفيها البشائر، وفيها مؤثرات البيئة، وفيها الإيمان المتسلط على العقل، وفيها أغراض المبشرين وأساليبهم.

الأناجيل الأربعة برأي الكنيسة أمينة بشكل مطلق، ومعصومة عن الخطأ في كل ما روته وقالت به، هذا ما قرَّره المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني، في دستوره العقائدي المعد فيما بين ١٩٦٢ و١٩٦٥ عندما قال: إن الأناجيل الأربعة «تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدي وإلى أن رفع إلى السماء»(٢). ولكن ما الذي يعنيه التناقض إن وجد، خاصة إذا كان كل الكتبة قد أدركوا نفس الحدث؟ في أبسط الأحوال يمكننا القول: أنه من غير المعقول أن يكون كل الكتبة عندها صادقين، أما من منهم بالتحديد، هو الصادق أو الكاذب، فلا جواب مطلق،

---

(١) تسالونيكي ٥ :٢.

(٢) ص٧٨ دراسة الكتب المقدسة.

لأن الصواب المطلق، يخيِّرنا بالفعل ما بين نفي الواقعة موضوع الإدراك عن الوجود، أو نفي إدرك الكتبة، أو بعضهم لتلك الأحداث، ما دمنا لا نريد الشك في أمانة أي واحد منهم. فكثيراً ما حدَّث المسيح تلاميذه قائلاً: إنه سوف يُسلَّم إلى أعدائه ليقوم بعد الموت من القبر، ولكن هذا الكلام كما يزعمون لا يُدرك معناه، وربما قصدوا التنويه، إلى انه من كثرة أحاديث المسيح بالأمثال، أصبح التلاميذ عاجزين عن التمييز بين الظاهر والباطن، حتى عطّلوا عقولهم، وشكوا في حواسهم، ولنسمع على كل حال إلى ما لا يمكن أن يكون مفهوماً، يقول لوقا: «وأخذ الاثنى عشر وقال لهم ها نحن صاعدون إلى أورشليم **وسيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان**. لأنه يُسلَّم إلى الأمم ويُستهزأ به ويُشتم ويُتفل عليه. ويجلدونه ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم. **وأما هم فلم يفهموا** من ذلك شيئاً وكان هذا الأمر مُخفى عنهم ولم يعلموا ما قيل»[١] «وخافوا أن يسألوه عن هذا القول»[٢].

فالكلام واضح، إلا إذا افترضنا أن الله سلب منهم العقل والوعي، وهذا الذي قالوه، ولو تأملنا جيداً في الآيات السالفة الذكر، لرأينا أن لفظة «يُسلَّم»، هي المحور المميز إلى وجود الفهم أو عدمه، ولكنهم علموا معناها، عندما قال المسيح «**ولكن هو ذا يد الذي يسلمني هي معي** على المائدة. وابن الإنسان ماض كما هو محتوم ولكن ويل لذلك الإنسان الذي يسلمه. **فابتدأوا يتساءلون فيما بينهم من ترى منهم هو المزمع أن يفعل هذا**»[٣]. وهل كان لهم هذا التساؤل لولا إدراكهم لما تعنيه لفظة «يُسلَّم».

«يهوذا» هو الخائن للمسيح، فقد اتفق مع الجند أن يدلهم عليه، ويسلّمهم إياه بقبلة، حسبما يقول «متى» و«مرقص»، «وكان مسلّمه قد أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبِّله هو هو امسكوه»[٤]. أما «يوحنا» فلا يقول بالقبلة،

---

(١) لوقا ١٧ :٣١- ٣٤.

(٢) لوقا ٩ :٤٥.

(٣) لوقا ٢٢ :٢١- ٢٣.

(٤) متى ٢٦ :٢٨، مرقص ١٤ :٤٤.

فالمسيح هو الذي عرَّفهم بنفسه: «**فأخذ يهوذا الجند** وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح. فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون؟ أجابوه يسوع الناصري، قال لهم **يسوع أنا هو وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم**. فلما قال لهم إني هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، فسألهم أيضاً من تطلبون؟ فقالوا يسوع الناصري، أجاب يسوع قد قلت لكم إني أنا هو فإن كنتم تطلبوني فدعوا هؤلاء يذهبون، **ليتم القول** الذي قاله إن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحد»(١).

الخبران في تناقض يستحيل التوفيق بينهما، إلا أنهما اتفقا على أن يهوذا قد خان المسيح، ولكن أليس من المعقول أن يكون يهوذا، خصماً عنيداً لبولس ومدرسته التبشيرية، حتى كانت له هذه التهمة العظيمة؟!

أما «لوقا» فيقول: أن المسيح حرَّض أصحابه قبل الاعتقال على حمل السلاح، قائلاً: «**ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفاً**»(٢). بل وكانوا مسلحين بالفعل، والدليل **قطع أحدهم لأذن العسكري بالسيف**(٣)، وعلى الرغم من ذلك فـ«حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا»(٤) بعد أن شكُّوا فيه «وقال لهم يسوع إن كلكم تشكون فيَّ هذه الليلة **لأنه مكتوب** أني أضرب الراعي فتبدَّد الخراف»(٥).

التلاميذ لم يستعدوا لمقاومة الاعتقال، فيهوذا خانه، والآخرون قد شكوا فيه، وبطرس انكره ثلاث مرات(٦)، والجميع هربوا أمام الآتين لاعتقاله، ولكن أليس هذا كله مجتمعاً هو التخاذل؟ الكتبة لا يوافقون على كلمة التخاذل، أو على اللفظة، لأنهم امتصوا معناها، ولذا قالوا: أنه لو فهم التلاميذ أقوال

---

(١) يوحنا ١٨ :٣- ٩.
(٢) لوقا ٢٢ :٣٦.
(٣) متى ٦ :٥١.
(٤) متى ٢٦ :٥٦.
(٥) مرقص ١٤ :٢٧، متى ٢٦ :٣١.
(٦) متى ٦ :٥١.

المسيح، لاستعدوا للحدث، فنصف المرضى والمجانين الذين شفاهم المسيح على الأقل، كان فيهم الكفايه لاحتلال أورشليم، وتحطيم كل ما فيها من القوات، دون أن يحتاجوا إلى قطعة واحدة من السلاح!.

امَّا أنهم، أي التلاميذ، **أنكروه وشكُّوا فيه، وهربوا دونه، فتلك تعود إلى جبرية البشائر**(١)، فهل تريدون أن ننزع عنه النبوة بإنكارنا لها؟! أليست المقاومة هي الإنكار، أليست البشائر على لسان المسيح نفسه تقول بنجاة التلاميذ؟(٢). ثم أليس المسيح قد ردَّ أذن العسكري المقطوعة إلى مكانها وشفاه(٣) وأمر صاحب السيف-أن يرده إلى غمده(٤) وعليه فلا تخاذل.

المسيح يدرك كل ذلك جيداً، بل وأشار إلى من خذله، أليس هو القائل على الصليب: «ايلي ايلي لم شبقتني»، فالتلاميذ لم يخذلوه - وتعالى الله عما يصفون - بل الله خذله!

فالمسيح عندهم هو الإبن الوحيد للآب، وليس معقولاً أن يعجز الله عن نجدته، لقد خذله من أجلنا، إنه «**الذي لم يشفق على ابنه**»(٥) «**صالحنا لنفسه بيسوع المسيح**»(٦)، **صُولحنا مع الله بموت ابنه**»(٧) «**لكي يفدينا من كل إثم**»(٨).

والحقيقة إن عقيدة الخطيئة، لم تبرز عند الكُتّاب، إلا للملاءمة بين انتصار اعداء المسيح بقتلهم إياه، وبين الله القادر على كل شيء، أو بتعبير آخر لامتصاص الحجة التي تقول: إذا كان المسيح ابن الله على الحقيقة، فواجب الأبوة يقتضي أن ينصر ابنه، وإذا كان الله، هو الله القادر على كل شيء على

---

(١) مرقص ١٤ :٢٧، متى ٤٦ :٣١.
(٢) يوحنا ١٨ :٩.
(٣) لوقا ٢٢ :٥٠- ٥١.
(٤) متى ٢٦ :٥٢.
(٥) رومية ٨ : ٣٢.
(٦) كورنثوس٢ ٥ :١٨.
(٧) رومية ٥ :١٠.
(٨) تيطس ٢ :١٤.

الحقيقة، فيجب أن يكون النصر له لا لأعداء ولده الظلمة، خاصة **أن ابنه لم يعرف خطية قط.**(١) وهل ينصر الله غير العدل؟ ولكن المسيح، هذا البريء، لا ناقة له ولا جمل، بما حدث بين آدم وأبيه، إنه الضحية المظلومة، ولكن **الغريب في الأمر، أن الله هو الذي يخسر من أجل المصالحة، فقد خسر ابنه، وكأنه هو المذنب لا آدم**، وإذا ما أدرك المسيح وهو على الصليب، أنه مغدور به حقاً، فحق له أن يصرخ: «ايلي، ايلي، لم شبقتني».

التلاميذ لم يخذلوا نبيهم - والعياذ بالله - والأمر لا يحتاج إلى هذا الظن، فبالموت يتحرر اللاهوت من سجن الناسوت - أو الجسد المادي -، فقد اشتاق الرب لابنه بعد هذا الفراق الطويل، فكان ما لابد منه، إنه الموت الذي صعد المسيح بعده، ليعيش مع أبيه وعلى يمينه(٢) وبذلك اجتمع الشمل تارة أخرى، أم تريدون أن تكونوا أعداء الله؟ فتحبّون ما يكره وتكرهون ما يحب، ولو قاوم التلاميذ جند الاعتقال، لكانوا مقاومين ما يريده الله على الحقيقة، لأنهم عندها يسعون لدوام الفرقة بين الآب والابن.

ولكن من هو المصلوب حقيقة؟ لقد كانت العادة، تقضي على المحكوم عليه بالإعدام، أن يحمل صليبه بنفسه، وهذا ما قال به يوحنا وحده: «**فخرج وهو حامل صليبه** إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة»(٣) أما «متى» والآخرون فيقول: «وفيما هم خارجون **وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان فسخّروه ليحمل صليبه**»(٤) والمسيح يمشي أمامه. ولنفترض أنه لم يهرب، نعم، فقد أتوا به إلى «بيلاطس»، الذي كان مسؤولاً عن تنفيذ حكم الإعدام، لينظر في أمره، **فلم يجد لديه ما يستحق الموت**(٥)، ولم يجد فيه شراً،(٦) واتهم

---

(١) كورنثوس٢ ٥ :٢١، بطرس الأولى ٢ :٢٢.
(٢) مرقص ١٦ :١٩، لوقا ٢٤ :٥١، أعمال الرسل ١ :٩.
(٣) يوحنا ١٩ :١٧.
(٤) متى ٢٧ :٣٢، لوقا ٢٣، ٢٦، مرقص ١٥ :٢١.
(٥) يوحنا ١٨ :٣٨، لوقا ٢٣ :١٥.
(٦) مرقص ١٥ :١٤.

كهنة اليهود بصياغة هذه المكيدة، حسداً وضغينة[1]، وأخيراً غسل يديه أمام الجميع، **معلناً براءته من دم المسيح إن قتلوه.**[2].

أما زوجة «بيلاطس»، فقد استوصت بالمسيح خيراً، ونعتته بالبار، وتوعدَّت زوجها شراً إن حصل له مكروه، و«متى» يقول: «**أرسلت إليه أمرأته قائلة إياك وذلك البار** لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم **من أجله**»[3]، إنها مؤمنة به أو بنبوته بلا شك، أو متعاطفة معه بدرجة عظيمة، وإلا لما انسلَّ اهتمامها إلى الأحلام، وهل يريد «بيلاطس» أن يخسر زوجه، بعد أن انحدرت القضية إلى منزله، لتكون مشكلة مع أهل بيته؟ ولكن هل تتيح الظروف له إنقاذ البار، الذي لم يجد به جريمة تستحق الموت؟

وسُمِّر المسيح على الصليب، وتساءل «ول ديورانت» قائلاً: «ترى هل مات حقاً؟ لقد كان اللصان اللذان إلى جانبه، لا يزالان على قيد الحياة، ولقد كسر الجنود ساقيهما، حتى تتحمل أيديهما ثقل جسمهما، فيؤثر ذلك في حركة الدم ويقف القلب بعد قليل، غير أن هذا لم يحدث في حالة عيسى»[4] «**فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات**»[5]، ومات غير المكسور قبل المكسور؟! وإنها لعجيبة، أم أنه تظاهر بالموت؟ والأرجح أن يكون الأمر كذلك، لأنه لا خروج للدم من الميت إذا ما جُرح أو خُدش، أما «يوحنا» فيقول: أن جندياً طعن المسيح بعد موته، فخرجت منه الدماء والماء: «**لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء**»[6]، ولو نظرنا ملياً في قصة الماء لرأيناها تقول: أن المسيح زُوِّد وراء ظهره، أو عند جنبه وهو على الصليب، بأكياس مُلئت بالدماء، أو قل بماء صُبغ باللون الأحمر، وهو الأرجح، وإذا ما كان الأمر حدث على عجل، خاصة في مثل هذه

---

(١) مرقص ١٥ :١٠، متى ٢٧ :١٨.
(٢) متى ٢٧ :٢٤.
(٣) متى ٢٧ :١٩.
(٤) ص٢٣٩ ج١١ قصة الحضارة.
(٥) يوحنا ١٩ :٣٣.
(٦) يوحنا ١٩ :٣٤.

الأمور، فربما أن أحدها، لم يكن مصبوغاً، حتى خرج الماء بلونه الطبيعي، وهو ما رآه يوحنا.

وبعد الموت المُفترض للمسيح، برزت في الأحداث شخصية غريبة عجيبة، إنه يوسف الذي من الرامة، رجل غني وبار، وغير موافق على فعلة اليهود في إعدام يسوع[1] لقد كان تلميذاً للمسيح[2] تلميذاً سرياً، أو في السر[3]، جاء إلى «بيلاطس» ليأخذ جثة المسيح[4]، ووافق بيلاطس سريعاً ودون معارضة، وعندما استغرب الموت السريع لابن الله، طمأنه قائد المئة المسؤول مباشرة، عن تنفيذ الإعدام[5]. ولكن ما رأي هذا القائد في المسيح؟ يقول لوقا: أنه شهد ليسوع بالبر الحقيقي[6]. وبعد ذلك «**أخذ يوسف الجسد ولفَّه بكتان نقي. ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخر ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى**»[7]. أما يوحنا فيقول: أن القبر الذي وضعت به الجثة، لم يكن جديداً، بل مستعملاً، إنه لليهود المنشغلين في الاستعداد للعيد، ولما كان قريباً وجاهزاً، وضعوا فيه المسيح[8] دون متاعب أو معارضة من أحد.

وبعد دفنه نزل ملاك الرب بزلزلة ودحرج الحجر عن القبر[9] أما «مريم المجدلية» التي رأت ذلك فتقول: «**أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه**»[10]، وشعر كهنة اليهود بمرور المؤامرة، ولكن لا دليل يدحض انتساب الأمر إلى ملاك الرب «فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا واعطوا

(١) لوقا ٢٣ :٥٠- ٥١.

(٢) متى ٢٧ :٥٧.

(٣) يوحنا ١٩ :٣٨.

(٤) يوحنا ١٩ :٣٨.

(٥) مرقص ١٥ :٤٤- ٤٥.

(٦) لوقا ٢٣ :١.

(٧) متى ٢٧ :٥٩- ٦٠.

(٨) يوحنا ١٩ :٤١- ٤٢.

(٩) متى ٢٨ :٢.

(١٠) يوحنا ٢٠ :٢.

العسكر فضة كثيرة، قائلين **قولوا أن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام»**[1] ولكن جنود قائد المئة، أنكروا وجود يد انتشلت الجثة من القبر، **أو ربما أن** مؤامرة انتشاله، كانت مُحكمة ودقيقة، لدرجة تثير الإعجاب.

إن خروج المسيح من القبر كان على عجل وبسرعة فـ**«الأكفان موضوعة والمنديل الذي كان على رأسه ليس موضوعاً مع الأكفان بل ملفوفاً في موضع وحده»**[2]، فقد تبعثرت أشياءه هنا وهناك، وهذا طبيعي، ثم تنكّر بزي من الأزياء حتى أن «مريم المجدلية» لم تعرفه عندما نظرت إليه، فقد **«التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع»**[3] بل أن اثنان من أصحابه، لم يعرفاه وهو يمشي بينهما، إلا باتضاح معالمه عندما كسر الخبز وأطعمهما[4]، والتلاميذ شكّوا في حقيقة وجوده، حتى **أكد لهم وجوده الجسمي، وميزه عن الوجود الروحي**[5]، ولكن لو كان الأمر روحياً، فما حاجته إلى دحرجة الحجر وفتح القبر، أو إلى قذف المنديل والأكفان، وما حاجة الروح للجثة التي لم تعد موجودة بالقبر.

لقد قال الكتبة أن المسيح حدَّد بالبشائر والتنبؤ، ان قيامته من باطن الأرض ستكون بعد ثلاث أيام وثلاث ليال،[6] وهل استقام لهم ذلك؟ إن «متى ومعه لوقا ومرقس، يحددون موت ودفن المسيح بما قبل السبت بيوم، وهذا بالتأكيد يجعل من المكوث بالأرض ثلاث أيام، ولكن هذه الفترة الزمنية لا يمكن أن تحتوي إلا على ليليتين، وليس ثلاث ليال»[7] وعلى كلٍ يمكن تدبِّر الأمر، لضمان تنفس المسيح على الأقل كل هذه المدة، أياً كانت منهما، بما أن المؤامرة ذات أقطاب أقوياء وهو المهم.

---

(١) متى ٢٨ :١٣.

(٢) يوحنا ٢٠ :٦- ٧، لوقا ٢٤ :١٢.

(٣) يوحنا ٢٠ :١٦.

(٤) لوقا ٢٤ :١٥- ١٦.

(٥) لوقا ٢٤ :٣٩.

(٦) متى ١٢ :٤٠.

(٧) ص٨٣ دراسة الكتب المقدسة.

أما عن عدد المرات، التي ظهر بها المسيح، بعد خروجه من القبر، ففيه خلاف كبير، فـ«لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته، أما يوحنا فيقول أنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت القدس، ثم في المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة.. بالجليل. وأما متى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل.. وكل هذه الأمو ر تتناقض مع الاشارات إلى ظهور المسيح المحتواة في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس «١٥ :٥-٧» إذ يقول أنه ظهر لأكثر من خمسمائة في وقت واحد، ولجاك ولكل الحواريين، ودون أن ينسى نفسه»[١].

لقد صعد المسيح إلى السماء، إلا أن الخبر غامض ويناقض غيره، ولم يذكره سوى لوقا[٢] ومرقص [٣] وأقسما بأغلظ الأيمان، أن ذلك كله جرى أمام كل التلاميذ الاحدى عشر، وهل نسي «متى» و«يوحنا» مثل هذا الحدث الجلل؟ أو ربما نسيا «أخنوخ واشعيا واليشع» وفق منطق البشائر، وهو برأيي الأصوب.

الشك كثير، نعم، والتناقض أكثر، فبيلاطس لا يرى في المسيح ذنباً، كما عانى من ضغوط عائلية من أجله، يسوع لم تُكسر ساقاه وفق القانون، ومات سريعاً، يوسف تلميذ في السر، غني وبار، وكل ذلك يساعد في نجاح خطة النجاة، قائد المئة يشهد بصحة الموت السريع، كما يشهد ببر المسيح، القبر يُفتح، والمسيح يخرج، أما أكفانه وأغراضه فمبعثرة، مريم المجدلية لم تعرفه بعد خروجه من القبر، ولا التلاميذ، فقد كان متنكراً، ولكنه ظهر للتلاميذ، وعرفهم بنفسه، وآراهم ثقوب المسامير، ثم اختفى عنهم وترك اليهود وشأنهم.

أما إذا أخذنا بكل ذلك مجتمعاً، وانطلقنا به لتفسير آيات القرآن التي تعرضَّت لحدث القتل أو الصلب، لرأينا أن التفسير يقول: ﴿وقولهم – اي

---

(١) ص١٢١ دراسة الكتب المقدسة.

(٢) لوقا ٢٤ :٥٠- ٥١.

(٣) مرقص ١٦ :١٩.

اليهود - **إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** - هو خبر كاذب - **وما قتلوه** - يقيناً- **وما صلبوه** -حتى الموت- **ولكن شُبِّه لهم** - أي ظنوا أنه مات أو قتل على الصليب - **وإن الذين اختلفوا فيه** - أي حول خبر القتل - **لفي شك منه** - فلا يقين لهم بالخبر - **ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً** - أي لقد ظهر لهم أنه قُتل - **بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[1].

- المسيحية والعقل:

ولكن أي عقل هذا الذي يقبل اليقين المُغلَّف بالشك، المحاط بالظنون، المعاند للعلم؟ أم أن الإيمان والعقل لا يجتمعان عند الإنسان؟

المسيح ربط بين العقل والفعل، أو الإيمان والعقل، من خلال العمل أو الفعل، والفعل يعني الحس والمحسوس والمعيارية، وهو الصواب الذي لا قبله ولا بعده، وبه سيتم اتصال كل الإنسان في كل العقل، وفي ذلك قال: «**فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهّه برجل عاقل بنى بيته على الصخر**»[2] كما يقول: «**وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يُشَبَّه برجل بنى بيته على الرمل**»[3].

أما عندما أصبحت أغلب العقائد المسيحية، كائنة بعد موت المسيح ومن غير أقواله، فمن البدهي عندها، توقُّع انفصال الإيمان عن العقل، وهذا ما يعترف به بولس، الذي أصبحت أقواله نداً لأقوال المسيح عندما قال: «**لأنكم بالنعمة مُخلَّصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله. ليس من أعمال**»[4] و«يعقوب» الرسول يقول أيضاً: أنه ليس «الإيمان بدون أعمال ميت»[5].

---

(١) النساء ١٥٧-١٥٨.

(٢) متى ٧ :٢٤.

(٣) متى ٧ :٢٦.

(٤) أفسس ٢ :٨- ٩.

(٥) يعقوب ٢ :٢.

إن الإيمانيات التي وجدت ما بعد موت المسيح، هـي المسؤوله في الأغلب على طمس معالم العقل، وها هو القديس بولس يقـول: «وأما البر بالإيمان فيقول هكذا لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء»(١). **«فإن كلمة الصليب في الهالكين جهالة وأما عندنا نحـن المخلصين فهي قوة الله. لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء. أين الحكيم أين الكاتب أين مباحث هذا الدهر ألم يجهِّل الله حكمة هذا العالم»**(٢).

لقد تمَّ إعلان الحرب إذن على الحس والمحسوس، وفَصَلَ القديس الإيمان عن العالم، حتى حقَّ له أن يقول: **«بالإيمان نسلك لا بالعيان»**(٣) **«ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى بل إلى التي لا تُرى»**(٤)، **«اهتموا بما فوق لا بما على الأرض»**(٥) **«لا تَمَسَّ ولا تذق ولا تَجُسَّ»**(٦)، كما حارب الفلسفة والعلم بقوله: «أنظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح»(٧) وعندما أراد محاربة البرهان والحكمة قال: **«وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع»**(٨) **«وأيضاً الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة»**(٩). وأخيراً قال: **«وكل ماليس من الإيمان هو خطية»**(١٠)، لا فرق في ذلك، بين فلسفة وعلم وحكمة. «لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً»(١١) هو الذي يملك المعرفة لا غير.

---

(١) رومية ١٠ :٦.

(٢) كورنثوس١ ١ :١٨- ١٩.

(٣) كورنثوس٢ ٥ :٧.

(٤) كورنثوس٢ ٤ :١٨.

(٥) كولوسي ٣ :٢.

(٦) كولوسي ٢ :٢١.

(٧) كولوسي ٢ :٨.

(٨) كورنثوس١ ٢ :٤.

(٩) كورنثوس١ ٣ :٢٠.

(١٠) رومية ١٤ :٢٣.

(١١) رومية ١١ :١٤.

وهل بقي له بعد ذلك كله إلا الجهل؟ لقد جعل القديس بولس، من الجهل قيمة يسعى إليها المؤمن، فقال: «**نحن جهَّال من أجل المسيح**»[١] «**إن صرنا مختلين فلله**»[٢]. لقد «**اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء**»[٣]، وأخيراً أوصى أصحابه بالجهل كل الخير، فليتفانوا إخلاصاً له، حفاظاً على إيمانهم، وفي ذلك يقول: «**لا يخدعنَّ أحد نفسه إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصر جاهلاً**»[٤]، وبعد بولس بقرون مديدة، جاء أوغسطين ليقرر ضرورة الجهل تارة أخرى، من أجل الإيمان، حتى قال لصديقه: «لا تعارض بحجج قوية هائجة فيما لايزال عسير الفهم عليك، أو فيما يبدو لك في الكتاب المقدس من تباين وتناقض، بل أجِّل في وداعة اليوم الذي تفهمه فيه، إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم، لا تحاول أن تفهم لكي تؤمن، بل آمن لكي تفهم»[٥].

- الأمراض والمنطق الغامض:

وكان هذا الأسلوب في عداء العقل، السمة الرئيسية التي تميِّز الكتبة، حتى كان لهم المنطق الخاص بهم، ويتجلى ذلك واضحاً، في استخدامهم لمعجزات الشفاء، أو للمعجزات بشكل عام، فبالمعجزة يتم التعرفُ على المؤمن الصادق، لا بسواها كالعمل الصالح وغير ذلك. فمن كان يملك من الإيمان ولو بمقدار حبة خردل، فله القدرة على نقل الجبال[٦] أو اقتلاع الجميز وقذفه بالبحر[٧]، والمسيح يقول: «**إن كنت تستطيع أن تؤمن كل شيء مستطاع للمؤمن**»[٨].

---

(١) كورنثوس١ ٤ :١٠.

(٢) كورنثوس٢ ٥ :١٣.

(٣) كورنثوس١ ١ :٢٧.

(٤) كورنثوس١ ٣ :١٨.

(٥) ص١٤٢ ج١٢ قصة الحضارة.

(٦) متى ١٧ :٢، مرقص ١١ :٢٣.

(٧) لوقا ١٧ :٦.

(٨) مرقص ٩ :٢٣.

فمن مميزات المؤمن الإتيان بالمعجزات والآيات «وهذه الآيات تجعل المؤمنين يخرجون الشياطين بأسمي ويتكلمون بألسنة جديدة يحملون حيَّات وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون»(١) ومن لا يستطيع ذلك فلا حظ له، ولكن التلاميذ أو الحواريون رسبوا في هذا الامتحان، لقد اعتراهم الخوف عندما اضطرب البحر، فوبخهم يسوع «فقال لهم ما بالكم خائفين يا قليلي الإيمان»(٢) وعندما لم يستطع بطرس المشي فوق الماء قال له: «يا قليل الإيمان لماذا شككت»(٣).

وماذا لو كانت هذه الطريقة-هي المعتمدة لاختيار أعلى منصب كهنوتي؟!

أما بولس فتدبرَّ جانباً من المسألة، عندما ربط الخوارق بالاستعداد، فليس من الضروري أن يكون المؤمن قادراً على كل شيء، فحسب مواهبه يكون له، فهذا للترجمة وذاك للشفاء، والآخر للحيات والسموم، فالأمر اختصاص، ومواهبهم هي المسؤولة(٤).

وبالمعجزة يتم تقرير ما أراده الكتبة من الآراء، وما أعظم المبالغة في شفاء المسيح للمرضى، إنجيل «متى» وحده، وعلى الرغم من تواضعه الواضح، يستعرض حوالي ١٧ حالة شفاء، على العميان، والمجانين، والبرص، والنزيف، وإحياء الموتى، والشلل والخرس، وبالإجمال حالة شفاء لكل حالة مرضية عرفوا اسمها يومئذ، ومن أجل ذلك راجع في «متى» «٨ :٣، ١٣، ١٥، ٢٨-٣٤» «٩ :٦- ٧، ٢٠ -٢١، ٢٥، ٣٠، ٣٢- ٣٣» «١٥ :١٣، ٢٢» «١٥ :٢٨» «١٧ :١٨» «٢٠ :٣٤». مع العلم أن هذه الحالات فردية أو مزدوجة، أما عن معالجة المرضى بشكل جماعي، فلنستمع إلى هذه العينة، ففي الجليل كان يشفي من كل مرض **«فذاع خبره في جميع سورية فاحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين**

---

(١) مرقص ١٦ :١٧- ١٨.

(٢) متى ٨ :٢٦، مرقص ٤ :٤٠.

(٣) متى ١٤ :٣١.

(٤) كورنثوس١ ٧ :٧، ١٢ :٧- ١٠.

فشفاهم»[١] **«وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع وضعوا المرضى في الأسواق وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هدب ثوبه وكل من لمسه شفي»**[٢].

ومن أجل التعرف على أمثال هذه المجموعات، راجع إن شئت في «متى» فقط «٨ :١٦، ٩ :٣٥، ١٢ :١٥-١٦، ١٤ :١٤، ٣٥ :٣٩، ٢١ :١٤، ٩ :٢» وإنها لمغالاة عجيبة، وكأنه لا رسالة للمسيح إلا أن يكون مشفى جوالة لا غير، ولكن البشير «متى»، يفصح عن حقيقة الأمر بقوله: «**لكي يتم ما قيل باشعيا النبي القائل هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا**»[٣]. فهل كان ذلك الغلو وسيلة من الكتبة في إقحام اليهود؟ فشفاء الأمراض إذن، حجة تعتمد على البشائر، وإلا لكان المؤمنون كُثُراً عندما كان المسيح حياً، ولكن «**لم يؤمن بالمسيح في حياته إلا مائه وعشرون رجلاً فقط**»[٤]. فأين العميان الذين أبصروا النور، وأين العقول التي أصبحت عند المجانين، وأين أين، وأين العقل؟!

معجزات الشفاء تستخدم لربط رسالة المسيح باليهود دون غيرهم «وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داوود ابنتي مجنونة جداً، فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب **وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة**»[٥]، ولكنها عندما اعترفت له، معلنة بأن غير اليهود، ليسوا إلا كالكلاب، شفى ابنتها[٦].

معجزات الشفاء تُستخدم لنقض التشريع، وللغلبة في صراع الآراء، وإذا بحثنا عن أسباب إحياء المسيح لابنة رئيس المجمع،[٧] لوجدناها ليست إلا

---

(١) متى ٤ :٢٤.
(٢) مرقص ٦ :٥٦.
(٣) متى ٨ :١٧.
(٤) ص٤ ج٢ الملل والنحل.
(٥) متى ١٥ :٢١- ٢٤.
(٦) متى ١٥ :٢٦- ٢٧.
(٧) متى ٩ :١٨.

تأكيداً لشرعية رفض تلاميذ المسيح للصوم، ودحضاً لتلاميذ يوحنا الذين احتجوا عليه[1].

وإذا أراد المسيح تغيير التزامات السبت التي يؤمن بها اليهود، فإن معجزات الشفاء هي البرهان والفيصل، ومن أجل ذلك، وحسماً للنقاش قال لنا «متى» و«مرقص»: بأن المسيح شفى الرجل صاحب اليد اليابسة في يوم السبت[2].

وبعد موعظة الجبل، التي وعد المسيح بموجبها ألا ينقض شيئاً من الناموس، ولكن عندما نقضه، احتاج الأمر إلى البرهان الذي يقول: أنه عند نزوله من الجبل شفى الأبرص[3]. وليس هذا فقط، بل تلتها ثلاث حالات أخرى من الشفاء[4].

وعند مساواة «ايليا» بـ«يوحنا المعمدان»[5]، ولجعل عيسى هو ابن الله بشهادة موسى وايليا وبطرس ويعقوب ويوحنا، كانت الحجة الملموسة على ذلك كله تقول: بأن المسيح قام بشفاء المصروع[6].

والأحلام التي تتصل بالمسيح، هي الأخرى يستخدمها عقل الكتبة كحجج لا نقيض لها، أو لا تُدحض، وقد رأينا ذلك عند بولس فيما مضى، أما الآن فلزاماً علينا أن ننظر في رؤيا «يوحنا»، لقد كثر المرتدون، ويئس يوحنا من أصحابه حتى شك في أغلبهم، وعندما عجز عن إيجاد المرجح المعقول، زعم أنه رأى المسيح هو الآخر، فأعطاه الأوامر إلى رؤساء الكنائس السبعة قبل أن يبتلعها الضياع.

يسوع بعد موته يرسل الاعلانات،[7] من الله، فقد سمع يوحنا صوتاً عظيماً كصوت البوق[8]. أما الرؤيا فيقول: «ولما التفت رأيت سبع منابر من

(١) متى ٩ :١٤.
(٢) متى ١٢ :١٠- ١٣، مرقص ٣ :١- ٥.
(٣) متى ٨ :١- ٣.
(٤) متى ٨ :١٣، ١٥- ١٦.
(٥) متى ١٧ :١٣.
(٦) متى ١٧ :١٨.
(٧) رؤيا يوحنا ١ :١.
(٨) رؤيا يوحنا ١ :١٠.

ذهب، وفي وسط السبع المنابر شبه ابن إنسان»[١]. وتأويل ما رأى يقول: «**السبعة الكواكب هي ملائكة السبع الكنائس والمنابر السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس**»[٢]. أما الأوامر فلا أراها بحاجة إلى التعليق.

فإلى صاحب كنيسة «أفسس» يقول: «**فاذكر من أين سقطت وتب** واعمل الأعمال الأولى وإلا فإني آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتب»[٣].

وإلى صاحب كنيسة «سميرنا» يقول: «**كن أميناً إلى الموت** فسأعطيك أكليل الحياة»[٤].

وإلى صاحب كنيسة «برغامس» يقول: «هكذا عندك أنت أيضاً قوم متمسكون بتعاليم النقولاويين الذي ابغضه، فتب **وإلا فإني آتيك سريعاً**»[٥].

وإلى كنيسة «ثياتيرا» يقول: «وإنما **الذي عندكم تمسكوا به** إلى أن اجيء، ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم»[٦].

وإلى صاحب كنيسة «ساردیس» يقول: «**تب** فإني إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك»[٧].

وإلى صاحب كنيسة «اللاودكيين» يقول: «**فكن غيوراً وتب**»[٨].

ولكن هل صدَّق رؤساء الكنائس انتساب هذه الأوامر إلى الله مروراً بالمسيح؟ لسنا ملزمين بالإجابة عنهم، أما نحن فقد أصبحنا لا نصدِّق مزاعم القائل: أن الأرض بساط ذو زوايا أربعة، ويوحنا في رؤياه هذه يقول

---

(١) رؤيا يوحنا ١ :١٢- ١٣.

(٢) رؤيا يوحنا ١ :٢٠.

(٣) رؤيا يوحنا ٢ :٥.

(٤) رؤيا ٢ :١٠.

(٥) رؤيا يوحنا ٢ :١٥- ١٦.

(٦) رؤيا يوحنا ٢ :٢٥- ٢٦.

(٧) رؤيا يوحنا ٣ :١١-١٢.

(٨) رؤيا يوحنا ٣ :١٩.

بـ«**أربع زوايا للأرض**»[١] كما أنه عندما **أراد** تفسير حدوث الزلازل والبرق والرعد، قال: أنها ناتجة عن إلقاء المبخرة المملوءة من نار المذبح على الأرض[٢]. أما «التنين» الذي رآه، «**ذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض**»[٣]، وإنه لتنين عظيم ولا شك، ولابد أن جسمه أكبر من تلك النجوم التي جرها بذنبه، ولكم كانت الأرض كبيرة أيام «يوحنا» حتى اتسعت إلى ثلث نجوم السماء، وليس هذا فحسب، بل أن التنين أيضاً وبكل عظمته «**طُرح إلى الأرض**»[٤] فليت شعري.

وهل تكلم «يوحنا» إلا من بوق بيئته وأغراضه، وهكذا كانت رؤيا تلك الثقافة.

وأخيراً تمَّ إبعاد العقل ذو المعايير عن الإنسان، من أجل المسيح، كما تمَّ إبعاده عن الكتاب المقدس، وتأكيداً لذلك «أصدر مجلس ديني عقد في تولوز عام ١٢٢٩ قرار يقضي بألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب التراتيل والأدعية ومعظمها مزامير»[٥] **وليس هذا فحسب**، بل ومن الواجب على العقل، ألا يقرأ أي كتاب له رأي خاص بالكتاب المقدس، وما أكثر الكتب التي منعتها الكنيسة! و«بناء على قرار الفاتيكان الصادر ١٩٢٩ والذي لا يزال معمولاً به.: تصل الكتب المحظور قراءتها على الكاثوليك إلى خمسة آلاف كتاب»[٦].

وما هي حاجة الناس لأن يُعملوا عقولهم بمغامرات غير مأمونة؟ فها هي الكنيسة، وها هم رجال الدين وعلى رأسهم البابا، أليس في «مجمع رومة سنة ١٨٦٩ تقرر فيه أن البابا معصوم»[٧].

---

(١) رؤيا يوحنا ٧ :١.

(٢) رؤيا يوحنا ٨ :٥.

(٣) رؤيا يوحنا ١٢ :٤.

(٤) رؤيا يوحنا ١٢ :١٣.

(٥) ص٤٥١ قصة الديانات.

(٦) ص٧٩ المسيحية – الحاشية.

(٧) ص١٩٧ المسيحية.

الكنيسة ورجالها معصومون عن الخطأ، وهل لهم من عمل إلا التأمل في الدروب التي تؤدي إلى الحقائق، أم أنه محظر عليهم الدفاع عن مكانتهم؟ أليس بولس هو القائل: «هكذا أيضاً أمر الرب أن الذين ينادون بالإنجيل من الإنجيل يعيشون»[1].

ولكن ليس من حقنا الزعم، أنه من أجل الطعام كان استمرار المسيحية، لا، ولا بإزاحة العقل والتشكيك فيه، فليس من أجل الطعام يمنع المسيحي عن الكتاب المقدس، ولا من أجله يُردُّ عن الكتب المعارضة، لا، ولا من أجله يكون الجهل ضالته المنشودة، بل من أجل المحبة والسلام يكون المسيحي مؤمناً، ولكن بما أن المحبة لعلة، فلها شأن آخر، شأن كل قضية في الأخلاق، وبما أن العقل والعلة سيان، فلابد إذن من الخيار بين المحبة أو العقل، وكانت المحبة جوهرة المسيح التي التفّت حولها ديانته، إلا أن المسيح أو يسوع كما تقول الأناجيل، جاء من أجل السيف كما صرح ذات مرة، والقديس بولس يقول بالمحبة إلى حين تُتاح له فرصة الانتقام[2]. بل وقال: «**فإن جاء عدوك فاطعمه وإن عطش فاسقه لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه**»[3]. وأي حجة أعظم من ذلك؟ أما متى تكون المحبة والسلام على الحقيقة، أو متى يكون السيف؟ فهذا ما لا نعلمه، بما أننا لا نعلم الموافق الذي يستخدم كمرجح لما سوف يكون!.

---

(١) كورنثوس١ ٩ :١٤.

(٢) كورنثوس٢ ١٠ :٦.

(٣) رومية ١٢ :٢٠.

- خاتمة:

المسيح في نظر المؤرخين اسطورة، فلا برهان على وجوده في الزمن، وإذا قلنا بوجوده، فلا بد أن نعترف بوجود إنجيله الذي بشَّر به، كما يقول الكتبة، ولكنه ضاع أو اختفى، وبذلك كله، يكون المسيح قد ارتفع عن الحكم الفصل، فيما له أو عليه بشكل موضوعي.

وإذا افترضنا أن كتبة الأناجيل هم من التلاميذ، فإن اختلافهم حول الأغراض وتناقضهم في إدراك الحدث الواحد، سيخلع الإفتراض عن صوابه، إن لم يقذفه بعيداً عن الفراش الوثير. وإذا ما كان لنا الإصرار، الذي ينسبهم للمسيح، فسوف يكون إصرارهم على صياغة المسيح، كنموذج لتلك البيئة الثقافية، وجعله وسيلة في اصطياد الأمم، وهيولى لتحقيق كل ما ظنوه من البشائر، هذا هو الذي دفع المسيح بعيداً عنهم بما أن العقل عاجز عن ذلك.

إلا أن الملحد يقول: العقل أولاً ثم الإيمان، وإن لم يكن ذلك فلا حاجة لنا بشيء نؤمن به، فهل كان لنا من الإيمان إلا تقديس الظلم، إلا الاضطهاد، إلا تقديس التناقض، إلا تقديس الأهواء والأغراض، إلا صراع العلم، إلا العودة إلى الخلف، إلا خراب المجتمع، فليسقط الساحر والشامان والكاهن وكل اللاعقل، وكل رمز يؤدي إلى اضمحلال الإنسان وانهيار العقل، فلا حقيقة مع مثل هذه الأديان، لأنها إرادة المشعوذين والظلمة، إنها الممثل لتجاوز التجربة بالمنهج المغلوط. فهي الجهل بكل معانيه، إنها الظلم، ظلم العقل بجور الجهل، وظلم الإنسان بجور أخيه، فالدين والظلام سيان، وكل الأديان سواء.

ولكن هل تمّت تجربتنا مع الإيمان، حتى كان للملحد هذا التعميم؟ وما أنا بالملحد، أليس من الواجب أن يتريث قليلاً؟ نعم، فالتعميم المطلق ليس من حقه بعد، بما أنه لا يمكن حذف الإسلام عن الوجود، ولابد من قراءته، ليتم لنا الاستقراء الذي يسمح بضم العقل إلى التعميم، ولكن يجب التعرف في البدء

إلى رأي القرآن بالمسيحية، بما أننا مانزال في ضيافة المسيح، وبما أن المسيحية هي الأقرب إليه على حبل الزمن.

القرآن يقول: أن عيسى رسول الله إلى اليهود خاصة،(١) وليس فيه شيئاً من الألوهية، ولا هو شريكاً فيها،(٢) لأنه وأمه كانا يأكلان الطعام، وإلا فكل البشر يحق لهم هذا الزعم الغير معقول(٣).

القرآن ينوِّه إلى أن ألوهية المسيح وفكرة التثليث، لم يكونا إلا بعد وفاته أو رفعه، وهذا يعني تكذيب العلاقة المزعومة بين بولس والمسيح بعد موته(٤).

القرآن يقرر أن عيسى، ليس له من الدينونة والحساب والخلق أي شيء، لأنه مسؤول كغيره عن أعماله وأقواله أمام الله، كما أنه لم يقل أي عيسى بإيمان لم يُؤمر به(٥).

القرآن يقول: بأن للمسيح كتاباً منزلاً من الله، كان بين يديه، اسمه الانجيل(٦). أما بالنسبة للأناجيل التي بين أيدينا، فالقرآن يشكك في نسبتها إلى الحواريين، أو يدعو للشك في بقاء ما كتبوه سليماً من التحريف، لأن الكتبة، كتبة الأناجيل الحالية، يقولون بألوهية المسيح، وهم الذين كفَّرهم القرآن، بالمقارنة مع الحواريين الذين نعتهم بأنصار الله(٧).

---

(١) الصف ٦، آل عمران ٤٩، المائدة ٧٢.

(٢) الأنعام ١٠١.

(٣) المائدة ٧٥.

(٤) المائدة ١١٦ - ١١٧.

(٥) المائدة ١١٦ - ١١٧.

(٦) آل عمران ٣، ٦٥، الأعراف ١٥٧، الحديد ٢٧.

(٧) المائدة ١١١، الصف ١٤، آل عمران ٥٢.

الجزء السادس

الإسلام بين العقل والإلحاد

ܬܫܡܫܬܐ ܕܢܝ̈ܚܐ

ܢܝ̈ܫܐ ܘܟܘܫܦܐ
ܘܨܠܘ̈ܬܐ ܕܥܢܝ̈ܕܐ

- الرسول والبيئة الثقافية:

- **مكة والأصنام:** لقد انحدرت تجربة العرب الإيمانية، نحو عبادة الأصنام والأوثان، فقد «كانوا يؤمنون بقوة سحرية تلازم الأشياء»[1] أو توجد فيها، وأصبحوا عبيداً للحجارة، أو الأصنام وغير ذلك، فتسمُّوا «عبد مناة» و«عبد اللاة» و«عبد العزى»، كما عبدوا الجان وخافوهم، وتسمُّوا بهم، حتى أصبحنا نسمع بـ«بني السعلاة» و«بني يربوع» وهكذا، كما عبدوا ظواهر الطبيعة، اعتباراً من الشجر نهاية بالكواكب، وتلك هي سمات التجربة البدائية، التي تعتمد الجهل والأغراض مصدراً لعقائدها، والمسلمون نعتوا تلك البيئة بالجاهلية.

مكة «تقع في أجدب بقاع بلاد لعرب»[2]، فلا زراعة، ولا محاصيل، إنها بوادٍ غير ذي زرع، وعلى الرغم من ذلك، كانت تعج بالرخاء والأثرياء، فقد مهر سكانها بالتجارة، فامتدت قوافلهم إلى بلاد فارس والشام ومصر والحبشة والعراق، دون أن تخشى شيئاً مما كان يحدث للآخرين، والفضل في ذلك يعود إلى الكعبة، التي أصبحت بيتاً لكل صنم معبود، وإنها لحنكة سياسية، عندما استطاع سكان مكة، أن يأسروا كل مقدس عند العرب، رهينة لضمان قوافلهم من كل سوء، وبذلك كانت لهم سبل المجد والثراء.

الأغراض تصنع الإيمان، فلا دين مطلق، ولقد قال السدنة أو رجال الإيمان: بالنسيء، لضمان حريتهم في ربط المنفعة بالشعائر، وليس هذا فحسب، فهنالك أيضاً موارد كثيرة لا تنقطع، فإذا أراد العرب كما يقول «الأزرقي» مثلاً «أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً، أو شكُّوا في نسب أحد، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح»[3]. ومن ذلك وأمثاله، لم

(١) ص٩٣ علم الأديان.

(٢) ص٥٩ تاريخ الكعتبة.

(٣) ص١٤٤ الميثولوجيا عند العرب.

يعد غريباً أن نسمع بتلك الحروب الطاحنة، التي دارت بين القبائل العربية، كالجرهميين والخزاعيين والقرشيين، لتولي شؤون ذلك البيت، بيت الأصنام.

ولكن الغريب في الأمر، أنهم إلى جانب الأصنام، كانوا يعتقدون بوجود الله الخالق للسموات والأرض، دون أن ينسبوا تلك الصفة لصنم من الأصنام، بل قالوا أن عبادتهم للملائكة والجن والأوثان، لم تكن إلا تقرباً من الله. فهؤلاء هم وسائل، وليسوا هم كل شيء، وشاعرهم «أوس بن حجر» يقول:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر[1]

«وكانت تلبية نزار تقول في إهلالها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك»[2]. كما كانوا يدبجون رسائلهم، بتعبير «باسمك اللهم». فمن أين أتوا بهذا الاسم؟ اسم الله.

من المعلوم أن حنفاء البيئة المكية كانوا ينادون بإبعاد الأصنام عن الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام، إنهم الذين «احتفظوا بدين إبراهيم من الجاهليين، فلم يشركوا بربهم أحداً، ولم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية، كما نبذوا الوثنية»[3]، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى قصة «أبو قيس بن أبي أنس»[4] وأشعار «زيد بن نفيل الحنيفي»[5]. وها هو «شحنة بن خلف الجرهمي» يؤنب «عمرو بن لحي»، لوضعه الأوثان في الكعبة قائلاً:

يا عمرو إنك أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا[6]

الشعر هو المؤرخ، أو لسان التأريخ عند الأمة الأمية، وإنها لأشعار كثيرة تنتمي لما قبل الإسلام، ربطت بين الكعبة وإبراهيم وولده اسماعيل جد العرب،

---

(١) ص١٩٣ أديان العرب قبل الإسلام- عن كتاب الأصنام.
(٢) ص٧٢ مختصر السيرة.
(٣) ص١٢٥ تاريخ الكعبة.
(٤) ص٥١٠ القسم الأول سيرة ابن هشام.
(٥) ص ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠ القسم الأول سيرة أبن هشام.
(٦) ص٣١ تاريخ الكعبة- عن مروج الذهب.

بل أن العرب «وفقاً لتقاليد التوراة يتحدرون من إبراهيم، فعرب الشمال من إسماعيل، وعرب الجنوب من قحطان، وإلى هذا التقليد، تعود فعلاً قسمة العرب إلى قبائل شمالية- النزاريون أو المعديون -، وجنوبية - اليمنيون -»[(١)].

وأخيراً فإن التواتر، يشير إلى وجود صورة لإبراهيم واسماعيل عليهما السلام في الكعبة، فعندما دخل محمد صلى الله عليه وسلم الكعبة عام الفتح «رأى صورة إبراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام»[(٢)]. فأمر بمسح الصور فمسحت.

وإذا قمنا بجمع انتساب الكعبة إلى إبراهيم، إلى نسب العرب، إلى ما يقوله الحنفاء، إلى ما قاله الشعر في عمرو، إلى ما تقوله ذاكرة المجتمع من خلال الصور، فسوف نجد أن إبراهيم هو مصدر اسم الله الذي قال به العرب كخالق للسموات والأرض، وما الأصنام إلا بدعة علقت بالكعبة.

(الله) لم يكن أسماً لصنم، والشعر لم يذكر ذلك قط، ولا كل معلوم عن تلك البيئة يقول بوجود تلك الصلة، بل بالعكس فإن النصارى واليهود في جزيرة العرب استخدموا لفظة «الله» دون حرج، ولو كانت ذات علاقة بالأصنام لأنفوها حتماً.

أما الإلحاد الحديث فقد هبَّ على ما يبدو، متكئاً على عناده، ليجعل منه مصدرالربط(الله) بالأوثان أو الأصنام، ودون الالتفات إلى العقل وما يحتاجه من تبرير أو تعليل، و«بروكلمان» مثلاً يشتق لفظة الله من اللات بتخريج عجيب وغريب قائلا: «**اللات أي للالاهة**»[(٣)]. ودون الإعتماد على أي برهان مادي أو منطقي.

فالبيئة التي تحيط بالرسول بيئة وثنية، استخدمت الإيمان للمنفعة، شأنها شأن كل العقائد التي كان العقل مصدرها، بما أنه وسيلتنا في البقاء مذ وجد الإنسان، فهل للنبي الجديد القدرة على تحطيم الصلة بين الإيمان والمنفعة؟.

---

(١) ص٢٥ الإسلام.

(٢) ص٢٢١ مختصر السيرة.

(٣) ص٢٦ تاريخ الشعوب الإسلامية.

- تجربة الأمين:

إن صانع العقيدة، ومن خلال كل ما مرَّ معنا وما رأيناه ، لم يستطع الربط مابين المنبىء عما وراء الطبيعة وما بين العقل، وبقيت تلك الأخبار التي قال بها، معللة بالخيال والأحلام والظن والأغراض أو العقل المنزلق والتحريف، فلا وجود لتجربة الأمين، لا عند الساحر وما شاكل، ولا عند رجل العلم، الذي لم يعترف بما يجهل، ولا عند البرهمي الذي لا أمانة له إلا لأغراضه، ولا عند أنبياء اليهود، الذين لم يجتمعوا من خلال كتابهم المقدس مع الأخلاق قط، ولا عند كتبة العهد الجديد، الذين ضاعت أمانتهم بين التبشير والبشائر، ولم يعد أمامنا إلا النظر في نبوة محمد «ص»، لنرى القدرة على نقلنا ونحن مطمئنون إلى ما فوق الطبيعة أم لا؟.

- **الأمين والحجر الأسود:** تصدَّعت الكعبة قبل بعثته(ص)، «ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيات موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحالفوا وتحاوزوا، واعدوا للقتال، فقرَّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت، وادخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا لَعقَة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسة، ثم انهم اجتمعوا في المجلس وتشاوروا وتناصفوا.. وبعدها قال أبا أمية بن المغيرة: يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم: هلم إلي ثوباً فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه»[1].

---

(١) ص١٩٦- ١٩٧ القسم الأول سيرة ابن هشام.

وقال الشعر المؤرخ على لسان «هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

فلما رأينا الأمر قد جدَّ جده ... ولم يبق شيء غير سل المهند

رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجيء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمد[1]

خديجة بنت خويلد «امرأة حازمة شريفة لبيبة»،[2]. ذات مكانة وثراء، ولها تجربة ومعشر مع الرجال، فقد تزوجت برجلين قبل الرسول(ص)، ثم تعرفت على أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم عن كثب، فقد تاجر بأموالها، وإنها لتجربة كافية للتعرف على معدت الرجان بحق، أضف إلى ذلك أنها أكبر منه سناً، لقد اختارته عن سواه لا بحماس غير مسؤول، وهاهي الأسباب تقول على لسانها: «يابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها»[3].

زيد ابن حارثة عبد أعتقه محمد صلى الله عليه وسلم وتبناه، وعندما جاء أبوه وعمه لافتدائه، خيَّره بين البقاء معه أو العودة معهم، وكانت المفأجاة، «فقال ما أنا بالذي اختار عليك أحداً، أنت مني مكان أبي وعمي، فقالا ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئا ماأنا بالذي أختار عليه أحداً أبدا»[4].

عندما صرَّح الرسول إلى زوجه خديجة بالروح الذي ظهر له، قامت تلك التي تثق بأمانته وصدقه بامتحان معدن هذا الروح، بعد أن علمها ابن عمها «ورقة بن نوفل» الذي تنصر بالذي يجب أن تفعله، وكانت أحكامها قائلة: إن جبريل ليس وحياً شيطانياً ولا هو حديث نفس ورؤى داخلية وأوهام أو خيالات، لأنه «ذات» تظهر وتختفي، إنه شيء آخر، ليس من محمد، وعندما أطمأنت إلى تجربتها قالت: «**يابن عم أثبت وابشر فو الله إنه لملك وما هذا**

---

(١) ص١٩٧ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص١٨٩ نفسه.

(٣) ص١٨٩ نفسه.

(٤) ص٨٢ مختصر السيرة.

بشيطان»[1]. وعند قراءة ورقة لتلك النتائج قال: إنه الناموس الذي أنزل على موسى وعيس من قبل، وما محمد إلا النبي المبشير به في العهدين.

وعند بعثته عليه السلام، حثّ قومه على التجربة التي لابد لها من العقل، والأمانة هي المحور، **«فلما نزل عليه قوله تعالى: ٣٦:٢١٤» وأنذر عشيرتك الأقربين صعد الصفا فنادى: واصباحاه، فلما اجتمعوا إليه قال: لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج عليكم من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[2].

وحتى المستشرقون اعترفوا بأمانته وصدقه في نهاية الأمر، فقال «جيب»: «يُعتبر - محمد - رائد الإيمان الحقيقي ماثلاً في السجية وفي الأعمال»[3]، و«هنري ماسيه» يقول: «إن تقواه الصادقة.. جعلته ينتهي إلى فرض نفسه على المحيطين به»[4]، ولكن هل لهم الإخلاص للاستنتاج بأن ا لله **﴿أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[5]؟.

لقد شهد القوم أو البيئة أمانة محمد سراً وعلانية، ولكن كذبوا أحكامهم، فالأنا بكل ما تعنيه هي التي حركت إرادتهم وعقولهم، ومن الصعب على الإنسان التنازل عن الجاه والمنفعة، وهل كانت لهم تلك المكانة بغير الأصنام التي ناصبها محمد(ص) العداء؟ لذلك ناصبوه العداء، قذفوه برحم الشاة وهو قائم في الصلاة، كما طرحوا قدور طعامه إلى الأرض، ونثروا على رأسه التراب[6]. وهمواُ لضربه، بل وضربوه في الطائف،[7] كما تفلوا في وجهه،[8]

(١) ص٢٣٩ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص٨٤ مختصر السيرة.

(٣) ص١١٢ علم الأديان.

(٤) ص٥٤ الإسلام.

(٥) الأنعام ١٢٤.

(٦) ص٤١٦ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٧) ص٤٢٠ نفس.

(٨) ٣٦١ نفسه.

وتآمروا على قتله مرات ومرات، كما قتلوا الكثيرين من أصحابه، وبقي مُصِّراً على دعوته، وبقي العقل حائراً فيما يريده هذا الرجل! فإن كان العقل يهتف نحو المنفعة بالتأكيد فلابد لمحمد من اختيار ما يحتاج إليه، بما أنه واحداً من البشر على الأقل. فعرضوا عليه ما رأوه قائلين: «فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك، أو نُعذر فيك، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: مابي ما تقولون ما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيرا»(١). وقال لعمه أبي طالب: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه**»(٢).

وهل يحق لعاقل رفض المنفعة وذلك الإغراء؟ لا، ولكن لو كان محمداً صلى الله عليه وسلم مجنوناً، لما عرضوا عليه، السيادة عليهم، والملك، لقد عرضوا عليه كل ذلك، ثمناً لتكذيب نفسه وإتهامها بالجنون، وبقي محمد أميناً مع ربه، وتلك هي القفزة الأخرى في تجربة الأمانة.

الأمانة مع الله تبرهن على وجود الإيمان وقضاياه، فمن يسلك طريق الجنة يبرهن على وجودها، ومن يطع الله يبرهن على وجوده، بما أن الفاعل عقلاً لابد أن يكون ذا وجود، ولو في الإرادة على ابسط الوجوه، وعلى المؤمن أن يعبد الله كأنما يراه.

محمد(ص) يشاور أصحابه فيما لا وحي فيه، وصولاً إلى أفضل الرأي وأحسنه، والأمثله كثيرة، وفي قصة التأبير قال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، وكذلك نزل عند رأي «الحباب بن المنذر بن الجموع» في تحديد مكان موقعة

---

(١) ص٢٩٥ -٢٩٦ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص٩٦ مختصر السيرة.

بدر[١]. أما الوحي فلا رأي فيه، ولو كان معارضاً، من خلال المنظور القريب، لاستنتاجات العقل أو التجربة، والحوادث التي تعلقت بهذا الأمر تثبت أن الوحي آت من لدن عليم خبير، وهل كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تلك الأمانة التي تستطيع ربط إرادته بالإيمان الذي يقول بوجود الله العليم؟

لقد كان محمد(ص) في منعةٍ من أعدائه، ولكنه وافق على صلح الحديبية بتلك الشروط التي ترضاها قريش ولا يرضاها أصحابه، حتى أن عمر بن الخطاب، صاحب العبقرية التي تابعت تحطيم الفرس والروم، ناقشه في ذلك الصلح، إلا أن الأمانة للأمر تمثلت في قوله صلى الله عليه وسلم: «**أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني**»[٢]. وبالفعل فإن هذا الصلح قد قلب فيما بعد موازين القوى لصالح المسلمين بما لا مرية فيه، فهل هي العبقرية التي تستطيع القفز فوق حدود الزمان والمكان؟!

لقد فشل محمد(ص) في دعوته لأهل الطائف، فأهانوه وطردوه، فعاد إلى مكة بعد أن تكفَّل بحمايته «المطعم بن عدي»، ومات جناحي قوته: عمه أبو طالب، وزوجه خديجة، ولم يبق له إلا ثلة من أصحابه. وجاء خبر الإسراء، ويا له من أمر عظيم، فقد حدث الإسراء والمعراج في الليل، وعند الصباح حدَّث الرسول زوجه أم هانىء بالأمر، وعندما جمعت الهمة إلى العقل والرأي قالت له: «**يا نبي الله لا تحدِّث الناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: والله لاحدثنهموه**»[٣].

وتلك هي أمانة الإيمان، لقد حدَّث القوم، فشك فيه أصحابه قبل أعدائه، وكاد أن يخسر كل شيء، حتى كان خبر العير،[٤] وتجربة الأقصى المعروف عند أبي بكر[٥] ومن أمانته بما هو مدرك سلموا له بصدق الخبر عما هو غير مُدرك.

---

(١) ص ٦٢٠ القسم الأول سيرة ابن هشام.
(٢) ص٣١٧ القسم الثاني سيرة ابن هشام.
(٣) ص٤٠٢ القسم الأول سيرة ابن هشام.
(٤) ص٤٠٣ نفسه.
(٥) ص٣٩٨ - ٣٩٩ نفسه.

لقد انتصر المظلوم على الظالم، لقد انتصر محمد(ص)، ودخل مكة فاتحاً، وهل يرحم الإنسان أعداءه الذين طردوه وآذوه في كل شيء، انه بشر ولابد من الانتقام. ولكن لا شيء من ذلك حدث، وكان تعبير «**الطلقاء**»[1]، إنه الله، ﴿**وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا**﴾[2]، ولولا أمانته مع ما يؤمر به لأزهق أرواحهم شأن كل منتصر من البشر، فليست أهواؤه مصدر ما يقول به من الأخبار، ولا هو بالمفكر النظري الذي يسرح مع خيالاته وظنونه ليقرر هذا الإيمان أو ذاك، ولا هو بالذي يسعى للأنصار أو المريدين بشتى الوسائل والحيل.

محمد صلى الله عليه وسلم أمين بين الناس، أمين بتنفيذ ما يؤمر به، كل ذلك صحيح، ولكن كيف لنا ربط الخبر بالله يقيناً، بما ان محمد(ص) هو الشاهد الوحيد في تجربة الإيمان، أو الخبر عما وراء العالم، فليس له من شركاء حتى نقارن ما يقولون به، ولو كان ذلك، لكان لنا اليقين الذي لا شك فيه أمام محكمة العقل، أم أنهم قلة أولئك الذين يقولون رأياً ويخلصون له بكل جوارحهم؟ ولكن الذي يقرأ القرآن الكريم ويتصفح سيرة الرسول، سيدرك أن محمداً ليس هو الشاهد الوحيد قطعاً، بل إن الله هو الطرف الآخر، وإذا ما كانت لنا تلك الثنائية، فلابد من الحكم حينئذ على المسألة التي حدودها ما بين الله والعبقرية أو العقل.

وفي غمرة الصراع والعداء بين محمد(ص) وقريش، تعاقدت قريش وفق بنود صحيفة عُلّقت على الكعبة، لمقاطعة الرسول وصحبه، وحصارهم في الشعب حتى الهلاك، وعندما طلب أبو طالب من محمد صلى الله عليه وسلم الخضوع لواقع الأمر، الذي أصبح لا يطاق، أجابه: «يا عم إن ربي الله قد سلّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان. فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم. قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي

---

(١) ص٢٢٢ مختصر السيرة.

(٢) الفتح ٢٤.

أخبرني بكذا و كذا، فهلم صحيفتكم فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي. فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١). ولو نظرنا في هذه التجربة، لرأينا أن الله موجود، وقد اشارت الأرضة إلى قدرته ووجوده، فليس محمداً صلى الله عليه وسلم وحده، ولو كان كذلك، لما رضي أن تكون حياته – على الأقل – ثمناً في مغامرة غير مأمونة الجانب.

والأمثلة على هذا النموذج كثيرة، فها خبرياته عن شهداء مؤتة أمام كل أصحابه، يعتبر امتحان صدقها ليس ببعيد عنهم، إنها أيام قلائل!(٢) وكذلك أخباره لـ«**باذان**» عن موت كسرى(٣)، ووعده لأصحابه بأن قريشاً لن تغزوهم بعد الخندق أبداً(٤). وهل يجهل محمد صلى الله عليه وسلم ما سوف تسفر عنه نتائج النبوءات الكاذبة؟

القرآن يحدثنا عن نبوءة مدارها، حدوث حرب بين الروم أو بني الأصفر والفرس، قبل حدوثها ببضع سنين، كما حددت المنتصر بيهما(٥)، وقال «**بروكلمان**» في هذا الخصوص «لم يخطىء النبي الحساب»(٦).

وفي زعمه أن العبقرية قادرة على ذلك، ولكن هل من العبقرية أن يغامر صاحبها بأخبار لابد خاضعة للصدق أو الكذب، أن يغامر بدمه ودعوته، أن يرهن نفسه للمجهول، فكيف يرضى العبقري السكن في ميزان كفتيه بين الريح والزوابع، ولك إن شئت المقارنة بين محمد صلى الله عليه وسلم وزعماء الأحزاب والمنظمات لترى الفرق بينهما، وها هم الوسطاء أو الروحيون بين ظهرانينا يتسكعون في أصقاع الأرض فهل لأحدهم أن يختار بين الموت أو صدق النبوءة؟! لا، فالفرق واسع بين الأمانة والرهان.

---

(١) ص٣٧٧ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص٣٨٠ القسم الثاني سيرة ابن هشام.

(٣) ص٦٩ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٤) ص٢٥٤ القسم الثاني سيرة ابن هشام.

(٥) الروم ٢ -٤.

(٦) ص٤٠ تاريخ الشعوب الإسلامية.

العبقرية نعت للاستخدام الأمثل للعقل، هذا صحيح، والمنفعة أو إدراكها من سماته، وقد مرَّ معنا كيف كانت المنفعة تحرك الإيمان وتصنعه، فهل كان محمد(ص) على تلك السُنّة، أم أن للمسألة وجهاً يتعلق بوجود الله عزَّ وجل؟

ومن أجل الإجابة، يجب أن نتمعن جيداً في بعض الأحداث، فمن المعروف أنه «عَظُم شأن الإسلام وانتشر، وكبر سلطان محمد، باعتباره الرئيس الديني والرئيس السياسي، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه، فقد ظلَّ يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويأكل مع الخادم»[1]، ومن المعلوم أنه مات ودرعه مرهون عند رجل من اليهود، لقاء قوت عياله، أما عن ذويه فقد قال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وأقاربه فإن «كان وضع حداً لما قد يقال على جلب النفع، فقد قال قبل موته: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس من موتاهم، وبرهن على أنه هو ليس لأهله، وإنما للمسلمين جميعاً»[2]. وبذلك كله افترق عن غيره من صناع العقائد - إن صح التعبير -، ليس بالدرجة وإنما بالطبيعة، رغم أن الإنسان ذو طبيعة لم تتغير، فكما كانت لم تزل، والمتغير هو الأنفع الذي يتجاوز المنفعة.

- القرآن والعبقرية:

لقد ترك محمد(ص) لبني البشر ديناً حيَّر الألباب، إنه الإسلام، إنه «ديانة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا، صورت لنا الله تعالى في علاه، وصورت لنا جنته وناره، وأبرزت معالم الخير والشر، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم، بنظم رائعة في الميراث والسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والوصية والهبة والسلم والحرب وكل حاجات الإنسان»[3] فقد بذَّ القرآن

(١) ص٥٣ الإسلام - مقارنة الأديان-.

(٢) ص٥٨ الإسلام - مقارنته الأديان-.

(٣) ص٣٥ الإسلام - مقارنة الأديان-.

المختصين في كل تلك الشؤون، ومن أجل ذلك كله، يسعى الإلحاد إلى قذف محمد صلى الله عليه وسلم برداء العبقرية، وإن لزم الأمر سيقولون أنها عبقرية فائقة، فإذا ما نظروا في شؤون بناء الدولة السليمة يقولون على لسان «بروكلمان»: «أنه رجل دولة موهوب»[1] وإذا ما نظروا إلى الناحية الدينية أو السياسية يقولون على لسان «ماسيبيه»: إنها «عبقرية محمد الدينية والسياسية»[2]، وهكذا حتى يمرون على كل شيء في ديانة الإسلام، التي مصدرها برأيهم عبقرية محمد الفائقة!!. ولكن لو قمنا نربط العقل أو التجربة بالعقل الباطن، لنصل إلى تحديد الإلهام والوحي على هذا الأساس، فسوف نصطدم بغابة من العثرات التي تقف أمام طريقنا، فبيئة محمد(ص) الثقافية أو ظروفه الاجتماعية والمعرفية، لا تستطيع أن تؤدي إلى تلك العبقرية التي نلمسها نحن والآن على الأقل، لأنه من المحال على عبقرية رجل مهما تكن، أن تتجاوز بيئتها على أعمدة من الفراغ، فوحي العقل الباطن مشروط بتجربة كافية، وإن لم تكن فلا وحي ولا إلهام من العبقرية، لأنها لا يمكن أن تكون بذاتها مصدر العلم والمعرفة، فلو كان «اينشتين» مثلاً واحداً من الرعاة، لما استطاعت عبقريته الصارخة أن تتجاوز تجربته المحدودة بالغنم والمرعى وإلى ما هنالك، أما تاريخه مع العلم، وإدراكه لما يحيط به، سمح لعبقريته أن تمتد على أجنحة تلك الثقافة لاقتناص أعظم القوانين. أما محمد صلى الله عليه وسلم، فليس لديه تلك البذور التي يجب أن تنمو، وأعني بها المؤثرات التي تحرر العبقرية من الامكان إلى الفعل، فليس لأبيه تأثير على فكره، لأنه هلك ومحمد(ص) مايزال في بطن أمه[3] ولا لفكر «حليمة السعدية» مرضعته، التي رعى عندها الغنم مع ولدها[4] ذلك التأثير، ولا لأمه «آمنة» التي توفيت وعمره ست سنين،[5] ولا

---

(١) ص٦٨ تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٢) ص٥٥ الإسلام.

(٣) ص١٥٨ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٤) ص١٦٦- ١٦٧ نفسه.

(٥) ص١٦٨ نفسه.

لجده «عبد المطلب» الذي مات وعمره ثمان سنين[1]، ولا لفكر عمه «أبو طالب» الذي لم يعلن استجابته للشهادتين، وليس هذا فحسب، بل تزوج من النساء ما يكفي لإتلاف أي عبقرية ممكنة، وإن لم تصدق فانظر في سير العباقرة، وتأمل حرصهم في الابتعاد عن كل ما يشغل الذهن، هاهو «سقراط» لا، بل أغلبهم تواصوا في البعد عن النساء والأعمال، وها هو «بروكلمان» ينسى قضية العبقرية، لصالح حقد آخر وعندما لم يدرك اتصالهما أملى علينا شهادة ليست في ذاتها حق، وإنما الحق أن الزوجات الكثر يحتجن إلى الرعاية والجهد الكبير، وكيف بهن إن كن سبباً في الموت المبكر لمحمد(ص) كما يزعم؟ وهل لمن «يبيت عند كل منهن ليلة»[2]. كما يقول أن يخلو للعبقرية؟ وليس هذا فحسب، فـ«ماسييه» يرى أن محمداً(ص) «أتعب رجاله بالغزوات»[3]، إنه رجل دولة، وهل يكون في راحة ذلك القائد الذي يُتعب رجاله بالغزوات؟ وعلى ما يبدو أنه نسي هو الآخر قصة العبقرية حتى قال ما قال!

وماذال لو اقترحنا لمحمد صلى الله عليه وسلم ثقافة لا تعتمد إلا على جهده بالذات تكون مصدراً لما أتى به؟ ولكن ليس أمامنا إلا الكتاب، لأنه السند الأعظم لكل عبقرية وجدت في الزمان، ولكن «هنري ماسييه» يقول: أنه «إذا فهمنا بمجموع أعماله نجد أولاً مزاجاً قلقاً ونفساً كثيرة العواصف»[4]، وهل يستطيع القراءة من لا صبر له؟ وهل من حكمة لمن يتعامل مع الكتب بنزق وتوتر وقلق؟ علماً أن الذي يقرأ القرآن يرى أن تأليفه يحتاج إلى مصادر كثيرة وعديدة التنوع، ولكن هل لمن لا يجيد القراءة أو الكتابة كتب يقرأ فيها؟ لا، فإن محمد(ص) كما هو ثابت في التاريخ والخبر رجل أمي[5]، ولكن

---

(١) ص١٦٩ نفسه.

(٢) ص٦٧ تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٣) ص٥١ الإسلام.

(٤) ص٥٤ الإسلام.

(٥) الأعراف ١٥٧ - ١٥٨، العنكبوت ٤٨.

الملحد يصرُّ بعناد على أن الأمية لا تعيق تأليف الكتب، فالقرآن من تأليف محمد حسبما يقول، وليكن له هذا الفرض الذي يجب امتحانه حتى يكون حقيقة أو يتم رفضه.

محمد صلى الله عليه وسلم ألف القرآن كما يزعمون، ولكن الغريب أنه لا يرمي من وراء هذا الجهد أجراً ولا منفعة، كسائر البشر الذين أدركنا تجاربهم فيما مضى على الأقل، بل على العكس، فقد نفى حتى وجود الجهد الذي يستحق الأجر: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين»(١)، أما إذا كان كتابه ليس عن طريق المتكلفين، فلابد أن محمداً(ص) ليس كسائر البشر، وهو كذلك بالفعل إن لم ننس قوله: «إنما يوحى إلي»، أو سيترتب على الملحد البرهنة على اختلاف طبيعته، إلا أن العقل ليس بقادر على هكذا برهان، إن رمنا استخدامه الصحيح.

والمتصفح للقرآن يجد فيه آيات كثيرة فيها عتاب لمحمد(ص)، ومن هو الكاتب الذي يلوم نفسه في كتابه دائماً؟ أمام الصغير والكبير، أمام الرجال والنساء، على مرِّ الزمن ما دام القرآن يتلى من الجميع إلى دهر الدهور، وقصة الأعمى «ابن أم مكتوم» على سبيل المثال مشهورة، فآيات «عبس» نزلت فيها، وابن هشام يفسرها قائلاً: «**أي إنما بعثك بشيراً ونذيراً لم أخص بك أحداً دون أحد فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصدين به لمن يريده**»(٢)، ومن هو ابن هشام حتى كان له هذا القول على صاحب القرآن؟!.

من المعلوم أن القادر على التأليف لا يعجز عنه عندما يحتاج إليه، بل بالعكس فالحاجة أم الاختراع كما يقولون، ولكن لمحمد(ص) شأن آخر، ولنقرأ ما يلي: لقد أرسلت قريش «**النضر بن الحارث**» و«**عتبة بن أبي معيط**» إلى اليهود ليستعينوا بهم على محمد عليه الصلاة والسلام، وكانت الأسئلة الثلاث المشهورة التي طُرحت عليه، وعندما وعدهم الإجابة في الغد،

---

(١) ص٨٦.

(٢) ص٣٦٤ القسم الأول سيرة ابن هشام.

وإذ بخمسة عشر يوماً ولا جواب حتى «أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمسة عشر ليلة أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه»[1].

أما في حديث الإفك فالمسألة أعظم، فالألسنة مختلفة على تقييم شرف زوجه «**عائشة**» رضي الله عنها، وهو صامت أمام كل الأراجيف، وبعد شهر برأها بالآيات! ومن ذلك الذي يحتمل أحاديث الناس في عرضه وشرفه كل هذه الأيام الطوال، إذا كان تأليف سطر أو بضع كلمات يحقق له كل ما يريد طلاقاً كان أو تبرئة، ومن ذاك الذي يعرف الإجابة سلفاً ويترك الآخرين يتهمونه بالعجز خمسة عشر يوماً، وكل المطلوب شيء قليل لا يحتاج إلى هذا الزمن الطويل؟ إنها الأمانة، ومن أجل الأمانة نقول: إن الناقد أو القارىء لمحمد صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يفهمه كواحد من البشر الذين نعرف سلوكهم، إلا إذا قال بوحي لا يأتيه من لدن نفسه.

ولكن تعالوا لنتعرَّف إلى القرآن بالذات، ولننظر في بلاغته التي هزَّت أعماق العرب حتى كان حجة عليهم. ولكن كيف كان حجة عليهم وبين ظهرانيهم فطاحل الشعراء وعظماؤهم؟.

الشعر قمة ما وصلت إليه عبقرية العرب، إنه اعظم نتاج لتجربتهم الثقافية، ولا شيء مثله في التعامل مع اللغة، وما كان لهم ذلك كله لولا إتصال خبرة القرون المديدة، فليس الشعر طفرة بلا مبرر أو بلا تاريخ، أما القرآن فلا تاريخ له في الوجود إلا مع محمد(ص)، وعلى الرغم من ذلك فقد بذّ الشعراء في استخدامه لتلك الألفاظ المدركة من قبل الجميع، كما بذّهم في أسلوبه وروحه، فالأسلوب مختلف وهو الأعظم، والروح مختلفة وهي الأعمق، والشعراء اعترفوا بذلك، وها هو «**عتبة بن ربيعة**» يقول: «إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة»[2]. و«الوليد بن المغيرة» قال مثل ذلك أيضاً[3] وغيرهما كثر. ولكن كيف يجتمع

---

(١) ص٣٠١ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص٢٩٤ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٣) ص٢٧٠ نفسه.

التاريخ كله في رجل واحد، وهل لإنسان إيجاد ما عجزت عنه تجربة القرون؟ أما بالنسبة للروح فعمر بن الخطاب قد نطق بها بعد سماعه للقرآن عندما قال: «فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي»[1]، «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه»[2]. ثم أسلم. كما قال الشاعر اللبيب «الطفيل بن عمرو الدوسي» في تحديد تلك الروح: «فسمعت كلاماً حسناً»[3]. كما سمعه الكهان فأسلم بعضهم كـ«سواد بن قارب» مثلاً الذي حسن إسلامه.

من المعلوم لكل ذي نظر أن الشعر قد حدَّ نفسه وربطها بـ«الأنا»، ابتداء من الفخر نهاية بالرثاء مروراً بالمديح، والشاعر يسعى لعظمته، فيتطاول على أقرانه شموخاً وعلواً، ولذلك نسب أكثر الشعراء ما نطقوا به إلى قوى فوق طبيعية كالجن أو سوى ذلك، فكان «مسحل» قريناً للأعشى كما يزعم، وكان «لافظ» لأمرىء القيس، وهكذا ارتبط «عبقر» بالشعراء، وهكذا زعم الشاعر علوه على البشر لسمو طبيعته.

أما محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قال بجبريل عن الله مصدراً للقرآن، ولم يزعم فخراً له، ولا سعى لأمجاد يرضعها ذويه من بعده أو أثناء حياته، بل بالعكس فالقرآن أو الإسلام ككل، قد جعل العمل الصالح أو الوصول إليه نواة له، وتلك هي روحه التي أدركها أصحاب البيان، وتلك هي التي عبرت عنها ألفاظ «ما أحسنه»، «ما أكرمه» أو «رق له قلبي»، ولو أردنا وضع القرآن والشعراء في كفتي ميزان، لما وجدنا خيراً من المماثلة بين ما يقوله القرآن، وما قاله «مسيلمة» الذي أراد أن ينطق قرآناً أو ما يماثله، فجمع خبرته في البيان وقدرته على استخدام الألفاظ فكان له الفيل والذنب وسوى ذلك، وليس هذا هو المهم، لأن الأهم هي «الأنا» التي تحرك آياته، ولنستمع إلى رسالته التي وجهها إلى محمد صلى الله عليه وسلم والتي يقول فيها: «أما بعد فإني قد أُشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف

(١) ص٣٤٧ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص٣٤٥ نفسه.

(٣) ص٣٨٢ نقسه.

الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون»[1]. ولتكن له البلاغة والفصاحة، ولكن ما قاله انعزل عن روح القرآن، فقد ارتبطت النبوة عنده بالأغراض والمكاسب مباشرة، ولقد قال «ثمامة بن آثال» عند سماعه أقوال مسيلمة: «والله أنكم لترون هذا ما يخرج من إل»[2]. أي لا يخرج من أصل طيب.

لقد حدثت الردَّة، أو قل الحرب بين «الأنا» وروح الإسلام، فقد ظن المرتدون أن القرآن ليس سوى وسيلة يمتطي بها بعض الناس على البعض الآخر، وهكذا فهموا شعائره وفرائضه حتى قال شاعرهم:

أطعمنا رسول الله ما كان بيننا ... فيالعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك لعمر الله قاصمة الظهر[3]

وعاد كثيرون إلى أصنامهم، عندما رأوا أن النبوة لم ترتبط بالأغراض أو «الأنا»، كالحصول على الخلد وتغيير الطبيعة، فقالوا: «لو كان - محمد - نبياً لما مات»[4]، والبعض رفض الفرائض وتحلل منها، لأنها تساوي بين الجميع، ولأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ذلك المنكر الذي يرغبون فيه.

أما المستشرقون فأمرهم غريب، وها هم يحتجون بلكنتهم على فصاحة القرآن وبلاغته، ويا للعجب إذا سيطر الحقد على صاحبه! يقولون إن القرآن غير جدير بالنصر لأنه مؤلف «من جمل موزونة بشكل غير منتظم»[5]. لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم كما يرون «يوضِّح أفكاره بآيات قصار ذات إيقاع لاهث مميز بالسجع الذي يشبه بعض الشبه بدون أن يكون مطابقاً سجع عرافي الوثنية»[6]، و«بروكلمان» يقول: أن «اسلوب الآيات.. كنفثات

---

(١) ص٦٠٠ القسم الثاني سيرة ابن هشام.

(٢) ص٣١١ مختصر السيرة.

(٣) ص٢٨٦ مختصر السيرة.

(٤) ص٣٦ نفسه.

(٥) ص١٠٤ الإسلام.

(٦) ص٤٤ نفسه.

الكهان الوثنيين»[1]. فقد «ظلت الفاصلة «القافية» - وكثيراً ما كانت ضعيفة - هي علامة الأسلوب القرآني»[2].

أما عند إدراكهم مرغمين لانتصار القرآن على الكهان وأصحاب البيان والشعراء يقولون: هذا صحيح إذا سلمنا بأن بلاغة محمد(ص) آتية من تعامله بالتجارة، فليس النصر لله، بل للتجارة التي عمل بها فقد «كان تاجراً وكان مولعاً في حديثه المجازي بالصور والاستعارات التجارية»[3]، «حيث اصطلاحاتها تركت أثرها في القرآن»[4]. ولكن إذا كانت التجارة مصدر البلاغة التي جعلت محمداً(ص) ينتصر على بيئته، فلابد أن نعترف عندها بأن أعظم الناس تجارة هو أعظمهم بلاغة، إلا أنه لم يقل أحد بأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أعظم التجار في مكة والمدينة، وإذا أردنا تعميم رأيهم لأن القانون والصواب سيان، فيجب أن نقول: أن كل ذي تجارة بليغ وذو بيان، وعندها تنتقل المسألة نحو البحث عن الشعرة التي تفصل اللامعقول عن المعقول، ونتمنى لو كان لهم مقدار شعرة واحدة سوى أهوائهم، وإلا لقالوا ما يميز تجارة النبي عن سواه حتى لا يصطدموا بالتعميم الكاذب على الأقل.

أما الأغرب من ذلك فهو جعلهم الرهبان اللاعرب، مصدراً لما أتى به عليه الصلاة والسلام، ولو نظرت في قصة «نسطور»[5]. و«بحيرى» لما رأيت قبتها تتجاوز الحبة قط، فالمراجع الإسلامية التي لا وجود لغيرها أمام البحث، تقول بخروج محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه «أبو طالب» في تجارته إلى الشام، وفي الطريق تم اللقاء مع الراهب «بحيرى»، الذي تعرَّف على محمد(ص) خلال حفلة الطعام التي أقيمت على شرفه، وبعدها نصح أبا طالب أن يعيد ابن أخيه إلى مكة خشية عليه من اليهود، فأعاده مع بعض غلمانه وانتهى الأمر[6].

---

(١) ص٣٧ تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٢) ص٦٨ نفسه.

(٣) ص٣٣ نفسه.

(٤) ص٣٨ الإسلام.

(٥) ص١٨٨ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٦) ص١٨٠- ١٨٣ القسم الأول سيرة ابن هشام.

ونفخ الملحدون في هذه القصة، حتى أصبحت أوداجهم كالثعابين التي تلتهم عقولهم، فقد جعلوا من بحيرى المعلّم والملقّن لمحمد صلى الله عليه وسلم في كل ما قال به، على الرغم من افتقادهم للمرجّح التاريخي أو العقلي، إلا الزعم اللامعقول، الذي مؤداه أن الجلوس مع الراهب أي راهب ولو إلى ساعة واحدة فقط، ومهما يكن عمر المستمع إليه، فلابد للحكمة عندها أن تتفجرّ من قلبه، وقد كان عمر محمد صلى الله عليه وسلم تسع سنوات حينئذ، وهذه السن برأيهم تكفي لصدق مزاعمهم. أما إذا شككت في عدم كفاية تاريخية هذا الحدث لتلك الاستنتاجات التي تحدد مصادر النبوة، فسوف تراهم لا يتوانون عن تنصير بيئة العرب أو موتاها، لذا نصّروا مشاهير الرجال، ودون أن يأبهوا بآرائهم فقالوا: إن المهلهل أبا الفوارس فارساً مسيحياً، وامرىء القيس كذلك هو واحد من النصارى، وحتى «عنترة العبسي - يقولون - أنه انتمى إلى النصرانية»(1).

القرآن حسب رأيهم إذن مميز بالسجع، ولكنه ليس كسجع العرافين، فقوافيه ضعيفة، وأسلوبه كنغثات الكهان، ومصدره من التجارة والرهبان والفرسان، والحقيقة أنهم ينفّسون عن أحقادهم بهذه العبارات والأفكار ليس إلا، ولكن لا حق لهم بذلك، فليس الذي قالوه إلا الشتائم والسباب، وإلا فما المغزى من «لاهث» و«نفثات» التي قالوا بها، ولنستمع إلى ما يقوله «المعري» صاحب الزمزمات، بما أنه شاعر عملاق تذوق أسرار العربية، ونتمنى لو كان للمستشرقين آذان يسمعون بها، يقول عن القرآن: **«ما حُذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو بالقصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الإرب، وجاء كالشمس اللائحة نوراً للمسرة والبائحة»**(2). ولكن ما هو بالضبط إن حذفنا التعريف بالسلب؟ إنه القرآن الذي لا مثيل له لا من قبل ولا من بعد، وتلك هي عظمته التي تحدى بها الرسول(ص) العرب أجمعين.

---

(1) ص83 أديان العرب قبل الإسلام.

(2) ص110 تاريخ ابن الريوندي الملحد - عن رسالة الغفران.

إن اليقين الناتج عن تجربة الأمانة إن كانت مع الناس أو مع الخبر يبث الإطمئنان عند الإنسان، هذا الإطمئنان الذي لابد منه للولوج في طريق الإيمان، ويقين افتراض ان محمداً صلى الله عليه وسلم ليس إلا كغيره من البشر، أدى إلى تجربة الحصول على الشاهد الآخر، أو إلى إثبات وجود الله، ولكني لا أرى هذا كافياً للملحد الذي يحتج قائلاً: إن ما ذكرتم ليس بحجة إلا على البيئة التي أدركت ذلك كله، أما نحن فليس لنا ذلك الإدراك المباشر، وحتى إذا ما قلنا أن بلاغة القرآن قهرت العرب على افتراض وجود إله، فإن هذه الحجة لا تستطيع أن تمتد نحو العجم «وابن الريوندي» يقول في ذلك: «هب أن باع فصاحته طالت على العرب، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان، وما حجته عليهم»؟[1]. فإن كان هنالك ارتباط بين العدل والبرهان، فيجب على الحجة أن تشملنا خاصة أن القرآن قابل لكل زمان ومكان، وليس بيننا من حكم نرضاه إلا العقل، لأنه الوحيد الذي يجمع العرب والعجم إلى يقين واحد لا نزاع عليه. ولكن هل كانت التجربة مع النبوة محدودة بالعرب دون سواهم؟ لا، فقد خاضها النصارى عرباً كانوا أو عجماً كما خاضها اليهود ايضاً.

- المسيحية وتجربة النبوة:

من المعلوم أن النصارى جعلوا من المحبة روح ديانتهم المقررة، ولابد للتجربة أن تسلك هذا الممر لتوزن الأمور من خلاله، وقصة «عدي بن حاتم» النصراني على سبيل المثال، تعكس تلك الروح، يقول: «فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بي إلى بيته، فوالله أنه لعامد بي إليه إذ لقيته إمرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك. قال: ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إلي فقال: إجلس على هذه. قلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال: بل أنت، فجلست

---

(١) ص١٨٢ تاريخ ابن الريوندي الملحد.

عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. قال: قلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك»[1] ثم أسلم بعد أن تم له إدراك «الفرقليط» المبشر به على الحقيقة.

- اليهود وتجربة النبوة:

أما اليهود فشعب ذو تجربة مديدة بأمور النبوة وامتحان الأنبياء، إنهم ينتظرون نبي «فاران»، فسبقوه إلى المكان المحدد، ولذلك سكنوا «يثرب»، وراحوا يبحثون عن الموعود، حتى أن «الأوس والخزرج كانوا يسمعون من حلفائهم يهود المدينة: أن نبياً يبعث في هذا الزمان فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد، وكانت الأنصار تحج كغيرها من العرب - إلى الكعبة - دون اليهود، فلما رأى الأنصار رسول الله(ص) يدعو الناس إلى الله وتأملوا أحواله، قال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه»[2].

اليهود ينتظرون الموعود بشغف دائم، وموازين الإمتحان جاهزة لديهم، فعندما أرسلت قريش «النضر بن الحارث» و«عتبة بن أبي معيط» إلى أحبار اليهود ليتعرفوا إلى شأن محمد صلى الله عليه وسلم قال لهم الأحبار: «سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فهو رجل متقوّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم.. سلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها.. وسلوه عن الروح ما هي»[3] وأجاب محمد(ص) عن كل تلك الأسئلة الخبرية، و«عبدالله بن سلام» ذلك الحبر اليهودي خاطب اليهود قائلاً: «اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله»[4].

---

(١) ص٥٨٠ القسم الثاني سيرة ابن هشام.

(٢) ص١٢٢ مختصر السيرة، ص٤٢٩ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٣) ص١٠٧ - ١٠٨ مختصر السيرة.

(٤) ص٥١٧ القسم الأول سيرة ابن هشام.

ولو نظرنا في تجربة اليهود بعين تبحث عن المحصلة، لأدركنا أعظم سبب في دخول أهل المدينة إلى الإسلام بذلك الشكل السريع، إذا ما تمت المقارنة بمكة، فليس عداؤهم لأهالي مكة كما يزعم المستشرقون هو العلة في إسلامهم السريع، لأنه عندما حوَّل عليه السلام قبلته عن القدس بإتجاه الكعبة أو مكة كان بين ظهرانيهم، وبقي الإسلام ينتشر بينهم كالنار في الهشيم. لا، ولا الصراع بين الأوس والخزرج هو السبب، لأنه عندما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم إليهم لم يكن له إلا نفر قليل من الرجال، وأي شأن سيكون لهم في صراع فرض على أطرافه حمل السلاح بشكل دائم؟.

اليقين اليهودي هو السبب الأعظم، وجودهم في المدينة، وعيدهم لأعدائهم، بحثهم المستمر عن الموعود، قوالب امتحانهم الجاهزة، إسلام بعض أحبارهم، كل ذلك مجتمعاً يشير إلى انتقال تجربة البشائر إلى أهالي المدينة، الذين أخذوا بيقين اليهود بعد أن عزلوه عن أغراضهم، ولكن ألا يؤكد ذلك كله وجود مشيئة واحدة تمتد عبر آلاف السنين؟ بلى، إنه الله الذي برهن على وجوده، وعلى صدق محمد في دعواه، أنه البرهان المنثور أمام تجربة العقل، لقوم يعقلون الحق دون حجب من الأهواء والأغراض.

- العقل وشمولية الإسلام:

كثيراً ما رأينا أن الإيمان ناتج عن تجربة مُحدَّدة بزمان ما ومكان ما وثقافة خاصة، لذا لم تستطع تلك الإيمانيات تجاوز تجربتها قط، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعث للناس كافة(١)، إنه خاتم الأنبياء والرسل(٢)، وهذا يعني أن ما يقول به يجب أن يلائم كل إنسان أين ومتى كان دون استثناء، أو على الأقل دون أن يؤذيه في شيء.

- القيمة والشمولية:

قيمة الإنسان ليست بالبديهية المُسلَّم بها من كل البشر، وغالباً ما كانت ترافق الأقوى، كما ترافق الطبقة أو الجنس وإلى ما هنالك، فليس من قيمة

---

(١) الفرقان ١، سبأ ٢٨، الأعراف ١٥٧، الأنبياء ١٠٧.

(٢) الأحزاب ٤٠.

شاملة للإنسان بمعناه المجرد، فالشجر وظاهرات الطبيعة، بل والحيوانات هي الأعظم، هذا ما أدّت إليه تجربة الحلم وانزلاقات العقل. أما القرآن فيقول أن خالق السموات والأرض هو الذي كوّن الإنسان بيديه، وخلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفة له، وسخّر له كل شيء أو كل العالم، وفضّله على كثير مما خلق تفضيلا. ومن أجل ذلك كله نهاه عن تقديس الأوهام وظاهرات الطبيعة، أو عبادة الجان والملائكة وغير ذلك، فالأعظم قيمة لا يجب أن يخضع لما هو دونه، والإنسان هو الأعظم، هذا ما قرّره القرآن، ولا أرى ضيراً في ذلك لمن آمن به وقال لا أصنام ولا وثنية في الإسلام.

أما عن قيمة الإنسان بين الناس، فالناس سواسية لا فخر لأحد على أحد، فالكل من آدم وآدم من تراب، فليس من دم ملكي أو إلهي يملكه هذا دون ذاك، فالكل من طبيعة واحدة لا تمييز فيها، وكاذب كل من زعم غير ذلك، لأنه لا إمام له إلا إبليس الذي احتجَّ بسمو طبيعته، بسمو النار على الطين، ولو أدرك أن التقوى هي المحل في التفضيل، لما حلّت عليه اللعنة، بما عقد عليه العزم إلى أبد الآبدين.

لقد قال عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾(١)، فقيمة الإنسان من إرادته إذن، أو في اتفاق إرادته مع ما أمر به الله، وما أراد الله إلا أن يحيينا، فلا ذُلَّ في خضوع الإنسان لخالق السموات والأرض، للذي خلقه، ولو قرأنا تاريخ الإنسان كله لوجدنا أن سموه حقيقة مشروط بخضوعه لله، لأن الله في أبسط الأحوال لا يسمح للإنسان أن يخضع لاي شيء أو كائن سواه، سواء أكان الخضوع خضوع عبادة أو خضوع خوف جهول.

قيمة الإنسان إذن ليست مشروطة بزمان دون زمان، ولا بمكان دون مكان، ولا لطبقة دون أخرى، ولا بذهب أو فضة، ولا بسلطان أو سيادة، فلا عرق ولا لون لها لأنها مشروطة بالإرادة، التي هي الجوهر، والإرادة موجودة مع كل إنسان

---

(١) الحجرات ١٣.

أنّى كان ومتى كان، وبارتباطها با لله يكون ارتباطها بالمطلق الذي يتجاوز كل نسبية محتملة، وكل الناس يسعون لأن تكون قيمتهم مطلقة، لأنهم سئموا الظلم وكرهوا الطغيان، والإسلام هو الفريد بين الأديان الذي نادى برفع الطغيان والظلم على الحقيقة، فلا «برهمي» ولا «لاوي»، ولا كهنة، ولا رجال دين يصنعون الإيمان وفق الملائم أو ما يلائمهم، فكل الناس سواسية، و﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول ا لله وخاتم النبيين**﴾(١).

وخير شاهد عملي على قيمة الإنسان، حتى ولو من غير المسلمين، هو ما نراه من وجود الأقليات النصرانية واليهودية في البيئة الإسلامية رغم الأذى العظيم الذي سبَّبه اليهود لنبي الإسلام والمسلمين، وإن دلَّ وجودهم على شيء فهو يدل على أن الرسول صلى ا لله وعليه وسلم استوصى بأهل الذمة كل الخير، فقد حماهم من كل سوء عندما قال: «**من آذى ذمياً فقد آذاني**» أو «**من آذى ذمياً فأنا حجيجه يوم القيامة**»، ولذلك لم تستطع سيوف المسلمين القوية أن تستأصلهم، ولو كان مانعهم عن ذلك الطمع في الجزية التي يدفعونها، لكان من الواجب انقراضهم في عصور الثراء الإسلامي حتماً، ولو كان دين الإسلام صادراً عن العقل أو التجربة والملائم، لكان زوالهم واستئصالهم بالتأكيد تماماً كإزالة المسلمين من الأندلس.

- الفرائض والشمولية:

كثيراً ما يُتَّهم الدين بأنه لا يهتم بالحياة على الأرض، وقد رأينا فيما سبق إيمانيات كثيرة، تعزِّز هذا الرأي، فلا قانون ولا قضاء عندها، ولا ذهب ولا فضة، ولا جيوش ولا حرب على الشر، فليس علاقة الإنسان بالإنسان، أو علاقة الإنسان بالطبيعة هو ما تهتم به تلك الإيمانيات، التي هربت من عالم الخير والشر إلى ما وراء العالم، أو إلى ما بعد الطبيعة. أما الإسلام فشيء آخر، ويكفينا أن ننظر في قضاياه الإيمانية وارتباطها بالسلوك الاجتماعي، لنرى السعي نحو مساواة الإيمان بالفعل الخلقي أو العمل الصالح من خلال ما تعنيه

(١) الأحزاب ٤٠.

التقوى، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾(البقرة ١٧٧).

وليس هذا فحسب، بل إن إقامة الشعائر أو الفرائض التي هي أسس الدين ومحوره، والتي بها يُعرف المسلم عن سواه، مشروطة بالعلاقة الطيبة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فمن مهام الصلاة مثلاً أنها ﴿**تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾،[1] كما أن النبي محمد(ص) يقول: «من لم تنهه صلاته كمن لا صلاة له»، بل إن الذي يفصل ما بين إقامتها والعمل الصالح، ليس إلا مكذّباً بالدين كله، أو لما جاء من أجله، وهل بعد تكذيب الله ورسوله إنكار، ﴿**أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدُّع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين يراءون ويمنعون الماعون**﴾[2].

الفرائض إن تم عزلها عما تهدف إليه لا معنى لها بالفعل، والإلحاد لا يراها إلا من ذلك العزل، فلا نظر له إلا بعين واحدة، وعبد المسيح الكندي مثلاً يصف الفرائض بقوله: إنها «الذي تستشفعه البهائم وتستقبح فعله»[3]. وابن الريوندي يقول على ذمة «البدوي»: «فما معنى هذه الأوامر الدينية العديدة المفروضة على المسلم من وضوء وصلاة وطواف حول الكعبة وزيارة الأماكن المقدسة؟»[4]. أقول: إن الفرائض أو الطقوس لا معنى لها بالفعل، إن كانت تسعى إلى حركات بذاتها، إلا بما تعنيه الرياضة عند أصحابها فحسب، ولكن

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) سورة الماعون.

(٣) ص١١٢ من تاريخ الإلحاد في الإسلام.

(٤) ص١٠١ نفسه.

لو نظرا إلى الوجه الآخر، لما حكما على كل ما تغنيه باللامعنى أو اللاقيمة، لأن السعي نحو العمل الصالح لم يأنفه إنسان يسعى لايجاد المجتمع السليم، إلا إذا كان حقوداً شقياً أو غير سوي، ولا أظن أن هذه الشمولية التي عجزت عنها يد البشر وعقولهم، إلا من إله غني عن العالمين، وإن شئت المقارنة، فما عليك إلا أن تذكر قصة البقر عند الهندوس، أو المحرقات عند اليهود، والفرق واسع وعظيم بين اقتراح وجود إله ليقرِّر مصالح طبقة ما، وبين إله يبرهن على وجوده بشمولية المنفعة لكل إنسان.

الإيمان والعمل الصالح يلتقيان في الإسلام، ولكن هل فيهما فقط يكون قيام المجتمع؟ لا، فلابد من القانون، ولابد من التشريع، فليس كل الناس سواسية في أخلاقهم، أو في استعمال إرادتهم، وكثيرون أولئك الذين يكرِّسون إرادتهم من أجل «الأنا»، دون أن يروا غيرها، ودون أن يكترثوا بالآخر لا من ناحية الأملاك ولا من ناحية القيمة.

التشريع موجود في الإسلام، أو قل هو الإشارة إلى وجود الإسلام الحي، ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم المنافقون**﴾ أو «**الفاسقون**» أو «**الكافرون**». فللإرث نظام يوزع بموجبه، وللدماء قانون يحكمها، والمال لا يلد فلا ربا ولا ظلم، والأملاك والأعراض مصانة بالعقوبة التي ستحلّ بكل من يتجرأ على اخترام حدود الغير، فمن يقذف المحصنات يجلد، كما يجلد الزناة ويرجمون، ويد السارق تقطع، والقاتل عمداً يقتل «فالسن بالسن والعين بالعين والجروح قصاص»، ولو كان من عند غير الله الذي ساوى بين البشر في القيمة، لصاغوه بما يلائم البعض دون الآخرين، وقوانين حضارتنا الوضعية خير شاهد على ذلك!!.

إن ارتباط مصدر القانون بالله هو العلو عن الظلم، لأنه علو على كل «أنا»، فليس من طبقة يحق لها التشريع لطبقة أخرى، حتى تملي عليها ما تريد، ولا وجود لقانون يخدم الأقوياء ويهرس الضعفاء، ولا وجود لأحد فوق التشريع، وكل ذلك موجود بالفعل، عندما لم يكن لله وجود، وهل من أحد

يكره الإيمان بوجود الله من أجل العدل إلا الظلمة المسعورين ومن يعيشون بتعاسة أحقادهم؟.

القرآن مصدر التشريع الأول، نعم، وهو بذلك الدستور الحقيقي في دونة الإسلام، إنه الميزان الذي توزن به تصرفات الجميع، قادة كانوا أم رعاة، الكل يقرأونه ويعرفون ما فيه، وتلك هي سلطة الشعب، وتلك هي الإزالة لكل فجوة محتملة بين الحاكم والمحكوم، أو لزوال النفور بين من يصنع القرار ومن يخضع له، فلا استغلال للسلطة، ولا انحدار بها نحو الأهواء والمطامع، فالتشريع من الله، ولا قدرة لأحد على تغيير كلماته، فليس شأنه شأن الدساتير الأخرى التي تتغير وتتبدل وفق مشيئة هذا أو ذاك.

لقد رأينا فيما مضى التحالف الوطيد بين الكهنة والملوك أو الزعماء، فإرادة الملك أو الكاهن هي مصدر الإيمان، فليس للشعب إلا الطاعة، ولا رأي له بقادته لأنهم فوق المعايير، أو هم المعايير، أما أن يضم القرآن الجميع تحت سلطانه، فهذا يعني اختلافه عمن سواه او عمن سبقه، لأنه من الله الذي أراد سيادة العدل والمساواة بين الجميع، وتلك لا يستطيعها الإنسان ما دام لكل منا «أناه» التي ليست لغيره، وكثيرون هم الذين قتلوا أبناءهم أو أباءهم أو إخوانهم وذويهم من أجل الملك والسيادة، والتاريخ حكماً بيننا، فمن شاء التعرف على الإنسان فليقرأه.

- شمولية العلاقة بين العقل والعلم:

لقد أدركنا سابقاً كيف كان العجز التجريبي مصدراً رئيسياً للإيمان، وغالباً ما كان العجز ناتجاً عن انزلاق في تجربة العقل، أما عندما أراد الإسلام تحرير الإنسان من ذلك كله، أعلن في البدء الحرب على التقليد بكل وجوهه وسماته، لأنه في أبسط الأحوال كفٌّ للعقل وتعطيل للإدراك الذي يجب ألا يقف عند حد، فاعتبر المقلدين كالحيوانات، إنهم كالأنعام[1]، ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾[2]،

---

(١) الفرقان ٤٤.

(٢) البقرة ١٧٠.

ولتشجيع استخدام العقل واستمرار التجربة، **أصبح طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**، كما أصبح العلماء ورثة الأنبياء حتى وصلوا أعلى الدرجات **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**(١)، ولذلك أيضاً **أصبح** العلم معيار توزن به المقارنة بين الناس، وسبحان القائل: **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**(٢).

اتجاهان متباينان فيما مضى، أو في أديان ما قبل الإسلام، فإما الإيمان المحلّق إلى ما وراء العالم على أجنحة الظن والخيال، أو الإلحاد الذي ربط العقل أو الإدراك بالحس والمحسوس، فهل تستستمر هذه المعادلة وبطبيعتها هذه نحو الإسلام؟ لا، فقد جمع القرآن بين الإيمان والعقل على حد سواء.

لم يرد ذكر العقل في القرآن بصيغته المجردة، ولا كوجود قائم بذاته، «لم يرد لفظ العقل مصدراً قط، وكل ما ورد هو صيغة الفعل، عقل فعقل يعقل في الماضي والمضارع والمفرد والجمع، وورد مسبوقاً بالحث على الفعل او الإستفهام أو الإستنكار أو النفي، وعدد هذه الألفاظ يقرب من الخمسين، وهذا دليل على الشأن الذي أعطاه القرآن للعقل»(٣).

لقد ورد ذكر العقل بصيغة الفعل، وما الذي يعينه الفعل إن لم يكن كل الإنسان؟ فكل الإنسان من حيث هو فرد، حواسه، قلبه دماغه ورغبته ذو علاقة بالعقل، فلا وجود للإنفصال بين المحسوس والمجرد مثلاً لأنه لا إنفصال بين الدماغ والقلب في أبسط الأحوال.

الإنسان يولد ولا علم له بشيء، وهو ما يعنيه ارتباط العقل بالفعل، وإن كان له علم بعد ذلك فليس إلا الحواس ولا شيء سواها، ومنها يكون أول معقول للعلم **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾**(٤)،

---

(١) المجادلة ١١.

(٢) الزمر ٩.

(٣) ص١٥ العقل في القرآن الكريم.

(٤) الأعراف ١٦٩.

وكل من كفَّ حواسه عن الفعل استحال عليه أن يعقل **﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾**[1].

إن الذي يعنيه تعريف العقل بالفعل هو ربط العقل بالعالم، ومن غير المعقول أن تكون الحواس ولا محسوس، فالعالم كله إذن يجب ان يكون موضوع الإدراك أو المعرفة، بما فيه من سموات وأرضون وكواكب ونجوم، وإلى كل ظاهرة ذات وجود[2]، خاصة إذا لم نُحدّ الإدراك بالزمن أو العجز وغير ذلك.

إن ارتباط العقل بالفعل هو ارتباطه بالمنفعة، وليس لنا منفعة من ظواهر العالم إلا بستخيرها كيفما نشاء، لأنه لا قانون عن الطبيعة إلا وتلك غايته، ولقد قال الله عز وجل أن العالم كله مسخّر لخدمة خليفته: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**[3]، **﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**[4].

إن ربط العقل بكل الإنسان يعني أن المعقول والتجربة صنوان، ولقد حث القرآن الكريم على التجربة بكل أشكالها وألوانها فقال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**، كما حثنا على التجربة حتى تزداد معقولاتنا على الدوام، وما التجربة إلا المسير المستمر نحو الإدراك وهو ما أمرنا به[5].

إن ربط العقل بكل الإنسان هو بيان لعلاقة القلب بالإدراك أو الإدراك الحسي، فالقلب المريض أو المختوم والمطبوع قادر على إلغاء الإدراك وإبعاد الحكم الصحيح، فالأذن تسمع ولا تعي، والعين ترى ولا تدرك، فلا إدراك إلا للأهواء، والهوى ساحر مكانه القلب **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾**[6].

---

(١) الأنفال ٢٢.

(٢) البقرة ١٦٤.

(٣) الجاثية ١٣.

(٤) النحل ١٢.

(٥) الحج ٤٦، يوسف ١٠٩.

(٦) الجاثية ٢٣.

إن ارتباط المعقولات بالحس والمحسوس، يعني أن الحقيقة في الإدراك ذات ارتباط بالاقتطاع، أو هي الإنطباق ما بين المعقول والذي خرج عنه، وبذلك يكون زوال الأهواء عن كونها معياراً للحقيقة، وحدُّ الميتافيزيقيا باليقين فيه الكفاية لتحطيم كل فكر يتخذ من الأوهام والظنون أُسساً له، ولا فرق في ذلك بين كون الخرافة عن الطبيعة أو عما وراءها.

وفي الختام أرى أن هذا العرض السريع عن العقل في القرآن يكفينا للغرض من هذا الكتاب، ومن أراد الإستزادة والتفصيل، فليرجع إلى كتابي «العقل بين الفلسفة والقرآن».

وإذا أمعنا النظر في ذلك كله، فسوف نجد أن المعادلة التقليدية قد تحطمت، فلا قضايا الإيمان ناتجة عن العقل والتجربة، ولا العقل الذي يقول به الإيمان بعيد عن الحس والمحسوس، فالإيمان خبر والعقل تجربة ولن يعيق أحدهما الآخر، وليس شرطاً أن تكون حياة أحدهما مرهونة بموت الآخر، بل على العكس، لأنه لا إيمان لمن لا عقل له، ولا إسلام بلا تجربة، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد صرع «**وكانة**» ثم طوّحه بالشجرة إلى ما وراء العالم، كما كان الإسراء برهاناً رافق المعراج، وتلك تذكرة بالمنهج الصحيح لامتداد التجربة نحو الإيمان، ولا سبيل آخر إلا بالظن والأوهام.

- المتشابه والبرهان:

لقد رأينا أن العجز التجريبي الذي يصنع الإيمان، لا يستطيع الإعتراف بمعياريه نزن بها معقولاتنا، إلا بأوهام ملكية كل العلم والمعرفة، وتلك أعظم عقبة في سيرنا نحو الإدراك الصحيح، أما أن يكون الخبر متحدياً لإدراكنا بصدقه، فتلك قمة البرهان على وجود العليم الخبير، ولذا لابد من النظر في مسألة المتشابه المحكم في نطاق تجربة العقل.

القرآن شريعة وعقيدة لكل زمان ومكان، هذا خبر، وإذا كانت التجربة في البدء ثم الإيمان، وإذا كان التقليد مرفوضاً في الإسلام، فيجب عندها أن يحمل

القرآن برهانه إلى كل ذي عقل في أي زمان وأي مكان، ولقد وعد الله عز وجل بذلك عندما قال: ﴿**سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾(١). كما قال ﴿**ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون**﴾(٢)، والأمثال من تلك الآيات، ومن نفس الطبيعة، ولنفس الغرض يقول العليم عز وجل: ﴿**ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل**﴾(٣)، فلكل اختصاص من العلوم الصحيحة مثل خاص به، يبرهن على انتساب القرآن الكريم إلى الله عز وجل وهو القائل: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾(٤). فالعلماء إذن وأصحاب المعقول الراسخ، هم الذين يدركون الحجة الكائنة عن انطباق الخبر مع معقولهم التجريبي، الناتج عن نفس الموضوع المعني بالخبر، وهل من برهان أو حجة أبلغ من ذلك؟ لا، ﴿**قل فلله الحجة البالغة**﴾(٥). ولكن إذا كان القرآن موجوداً في الزمان، وإذا انقطع بموت الرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف له التعبير عن حقيقة قد تكون متحققة بعد آلاف السنين، وهو في نفس الوقت خطاب موَّجه لكل ذي أذن في تلك البيئة التي أُنزل فيها؟ وربما أن الحقيقة التي تقبع في المستقبل والتي هي موضوع الخبر، تعارض المعروف في بيئة الحاضر أو الماضي وثقافته، فكيف للغة أن ترضي الطرفين دون أن يحطِّم أحدهما الآخر أو يكذبه؟ من أجل ذلك قال تعالى أن آيات القرآن منها ما هو محكم، ومنها ما هو متشابه ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات**﴾(٦). والمتشابه هو ما لا يُدرك معناه، إنه ما لا يُدرك إلا على معياريه العلماء، أي أن إحكامه مشروط بوجود ظاهرة مشتركة، وبالتطابق بين الخبر والمعقول عن التجربة، عندها يكون إحكام المتشابه، أو تحوُّل المتشابه إلى المحكم وهو ما يسمى بالتأويل.

---

(١) فصلت ٥٣.

(٢) غافر ٨١.

(٣) الكهف ٥٤* الإسراء ٨٩، الزمر ٢٧.

(٤) العنكبوت ٤٣.

(٥) الأنعام ١٤٩.

(٦) آل عمران ٧.

- **إستحالة إحكام كل المتشابه:**

وبما أن التأويل أو إحكام المتشابه مرتبط بالإدراك المشروط باليقين، فإنه عندها من المحال أن يتم تأويل كل المتشابه في مرحلة زمنية واحدة، لأنه ليس لعصر كل العلم ومهما تكن العبقرية التي يتمتع بها، ومن يقرأ القرآن يدرك أن المتشابه ليس بخبر عن عالم المادة، أو عن هذه الحياة فحسب، وإنما يشمل بعض الأخبار التي تتعلق بتجربة ما بعد الموت نهاية إلى يوم الفصل والقرار، ولا أظن أحداً يقول أن الإستواء على العرش مثلاً مُحكم بما ندركه من تجاربنا في هذا العالم؟ إلا أنه من الغريب أن يزعم إنسان القدرة على تأويل كل المتشابه على الإطلاق، وما أكذب من يدعي علم كل شيء أو كل العلم، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في أمتي قوماً يقرأون القرآن ينثرونه نثر الدقل ويتأولونه على غير تأويله». حتى لم يعد المحكم عندهم شيئاً إلا أغراضهم التي جعلوها معايير كل تأويل يقومون به، وهذا ديدن الباطنية جميعاً، ابتداء من «**ابن عربي**» الذي لقبوه بالأكبر، هذا الذي جعل «وحدة الوجود» معياراً لكل متشابه ومحكم في القرآن، نهاية بالقرامطة وما شاكلهم من الذين جعلوا تبرير الأغراض السياسية ذلك المعيار حتى أولوا «**التين**» و«**الزيتون**» بأسماء أشخاص، والسموات بقادة الأحزاب الذين يرغبون بهم، وهكذا دون قيد أو حد، والفيلسوف «أبو يعقوب السجستاني» مثلاً يؤوّل قائلاً: «**الذي خلق سبع سموات طباقاً**» يعني أقام النطقاء السبعة»[1]. ولو نظرت جيداً أيها القارى فيما يريده هذا التأويل وأمثاله، لرأيت أنه يقذفنا تارة أخرى إلى فكرة التحريف من أجل اصطياد البيئة أو الأنصار، ولا شيء بعد ذلك.

لقد قلنا أن التأويل الصحيح مرتبط بإدراك اليقين، بل ومشروط به، وإذا قلنا فرضاً بتوفر تجربة كل الإدراك، وعلى هذه الشروط، ابتداءً من نزول القرآن نهاية بالاستقرار، فإن القرآن عندها كله مُحكم بلاريب، ولقد قال عز وجل: ﴿**الر كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت**﴾.

---

(١) ص٢٧ كتاب اثبات النبوؤات.

أما من ناحية «**أم الكتاب**» فلا تأويل للعقيدة ولا للأمر تكليفاً أو قضاءً، ما دام السامع قد فهم المراد، وأدرك ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وقاله، وإذا كان العمل الصالح على شروط القرآن جوهر الإسلام وروحه، فلابد عندها أن يُحكَمَ كل آية من آيات القرآن، بما أنه لا خبر فيه إلا وذو صلة مباشرة في إيجاد السلوك الأفضل، وما يستفاد من خبر المتشابه مثلاً من أجل السلوك هو إحكام له، ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وأنزلناه نوراً مبيناً**﴾(١) كما قال: ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾(٢)، فالقرآن «بيِّن» لا شبهة فيه ولا إشكال: «مفصل» بلا غموض، فإذا ما نظرنا إلى علاقته بالسلوك فكله محكم، محكم بالعبرة، أو بالحكمة، أو بالتذكير وإلى ما هنالك. وعليه فالقرآن بالنسبة للإنسان محكم كله في حالتين لا غير: فإما في حضور كل الإدراك، وهذا ما يشجعنا على الاستمرار في العلم دون توقف عند حد، أو أنه محكم من أجل السلوك والعمل الصالح، فلا تأويل إذن لكل القرآن في مرحلة من مراحل الزمن إلا لمن يزعم الألوهية، كما أنه لا تأويل لمتشابه يتعارض مع الأمر، إلا لمن جعل الخروج عن الإسلام هدفاً له، ولقد قال الله عز وجل: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**﴾(٣).

فأصحاب الزيغ الداعين للإلحاد يفصلون ما بين المتشابه والتأويل، فيأخذون المتشابه لذاته ليزرعوا به الفتنة في عقول المؤمنين، خاصة السذج ليدفعوا بهم بحجة انتفاء الحكمة، إلى الشك والتكذيب «**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تاويله**»، أما الزاعمون للألوهية فهم أولئك الذين يؤولون كل متشابه بمعيارية الأهواء حتى لا يكون لهم من القرآن سواها وهم المعنيون بقوله: «**وابتغاء تأويله**» أي تحريفه لأن التأويل اللامشروط تحريف.

---

(١) النساء ١٧٤.

(٢) الأعراف ٥٢.

(٣) آل عمران ٧.

إن من يملك كل العلم أو كل اليقين في لحظة أو في مرحلة واحدة من الزمن، لابد أنه يزعم الألوهية لأن هذا لن يكون إلا لله وحده، وإذا كان التأويل يساوي العلم، فلا علم لأحد بتأويل كل المتشابه في لحظة واحدة، أو بلا لحظة على الإطلاق إلا الله وهو القائل: ﴿**وما يعلم تاويله إلا الله**﴾(١)، وهذا ليس لبشر قبل انتهاء الإدراك كله.

أما العلماء أصحاب الرسوخ واليقين، أصحاب الرسوخ المرتبط بالإقتطاع، فلهم التأويل بهذا الشرط لا بسواه، فالأرض مثلاً تدور حول الشمس، وهذا معقول راسخ عن اقتطاع يضم المجموعة الشمسية، ولم يعد من المحتمل القول بدوران الشمس حول الأرض على الإطلاق. ولقد قال عز وجل: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾ ولو كان الله وحده هو الذي يعلم التأويل فقط، لما كان هنالك مبرِّر لوجود المتشابه في رسالته إلى البشر، بما أنه يستحيل إدراكه على الاطلاق.

الراسخون في العلم يمكنهم تأويل بعض المتشابه، أما الذي يجهلونه فلن ينكروه، ولسان إيمانهم عندها يقول: كما أن المحكم الذي نفهمه هو من عند الله، وكما أن المتشابه المؤوَّل هو من الله، إذن المتشابه الذي مازال بعيداً عن التأويل هو أيضاً من الله، فالكل من عند ربنا ونحن بذلك مؤمنون ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**﴾(٢).

- المتشابه بين العلم والخبر:

لقد قلنا أن المتشابه خبر من لدن عليم خبير، ليشير إلى يقين يقبع في المستقبل، أو إلى يقين موجود عما مضى، وهو ما يعرف عادة بالإشارة العلمية، ولقد أدرك الملحد خطورة هذا البرهان على عروسه الأمارة بالسوء. فهبَّ كالملسوع ينهش هنا وهناك دون حياء أو كلل، تماماً كالجرو الذي تحدَّث عنه افلاطون، و«العظم» على سبيل المثال يقول: إذا كان الإسلام بالأصل لا يهتم بعلوم الطبيعة، فكيف له أن يقول بإشارات علمية؟ فللمسلمين

---

(١) آل عمران ٧.

(٢) آل عمران ٧.

برأيه نظرة خاصة بالنسبة للعلم يعبِّر عنها بقوله «إن العلم الذي حث على طلبه الإسلام هو في جوهره العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها ويتفرع عنها وليس الفيزيا والكيمياء»[1].

الإسلام يهتم بالعلوم الشرعية وما يتفرع عنها، هذا صحيح، أما أنه لا يهتم بالعلوم المادية أو يكرهها وينهى عن طلبها فهذا كذب، ولو تصفح القرآن على الأقل، لأدرك ما يعنيه ارتباط العقل بالتسخير، ولأدرك ما يعنيه ارتباط العقل بالحواس والمحسوس، لأدرك ما يعنيه ارتباط العقل بالمنفعة، لأدرك ما يعنيه ارتباط العقل بالتجربة، لأدرك بالإجمال ما يعنيه ارتباط العقل بالفعل، وكل ذلك يشير إلى اهتمام الإسلام بالعلم المادي بكل أشكاله، وهذا ما يقوله القرآن.

وهنالك رأي آخر من طرائف العظم يقول فيه: «السنّي الخالص - هو - الذي يرد كل شيء من العلم إلى النبي ويرى في كل تباعد عن عهد النبي تقهقراً في العلم وبالتالي في الحضارة والتقدم والتمدن، وهذا يفسِّر لنا السر في ترتيب العلم ترتيباً تنازلياً من عهد النبي تنازلياً.. وما هذا إلا كنتيجة للصورة التي وصفها أهل السنة للتطور المتقهقر ابتداء من الرسول»[2].

ولكن هل عَلِمَ «العظم» أن المغالطة التي تعتمد على اتهام الخصم بما ليس فيه، بغية أن يلائم اتهاماً جاهز النقد ليس إلا سخافة لا تليق بذوي الرأي. فهل النبوة مصدر كل علم عند المسلمين كما يزعم؟ لا، لم يقل بذلك أحد.

نعم، لقد قال تعالى ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه**﴾، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا**» فهل تعني هذه الأقوال نهياً عن التصنيع والاختراع واستخدام الوسائل الحضارية؟ لا، أم أنه راى النبوة رسالة في الزراعة والصناعة وإلى ما هنالك، ومن أين نأخذ الدين؟

---

(١) ص٢٨ نقد الفكر الديني.

(٢) ص٧ نفسه.

المتشابه من حيث الإدراك نوعان، ولابد لنا لمعرفة خبر المتشابه المختلف عن سواه بطبيعته، من التعرف إلى خبريات الملحد، ومن المعلوم على سبيل المثال أن التساؤل عن مصدر المادة أو الحياة لم يؤد بعد إلى اليقين التجريبي التام، فهذه القضايا وأمثالها ماتزال في عرف العلماء من القضايا الإستشرافية، إنها متشابه لا إحكام فيه، إنها قضايا لا تخضع إلى معايير الصدق أو الكذب، فكل النظريات الناتجة عنها ومهما كان التضارب والتضاد بينها يمكن أن تعتبر صادقة، لأننا لا نستطيع تكذيب أي واحدة منها، كما يمكن أن تكون كلها كاذبة، لأننا لا نستطيع ترجيح واحدة على أخرى، فهي كلها صادقة وكلها كاذبة في نفس الوقت، وليس من مرجّح إلا الأهواء، والأهواء عاجزة عن تفسير الظواهر، ولا تستطيع إلزام الأخرين.

في البدء يقول العظم: «في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا لكل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون»[1]. ولكنه لا يلتزم آداب فضيلة هذا الجهل، ونكاية بالدين ولا مرجّح آخر شأن كل الملاحدة، قال بقدم المادة ليقول أن لا إله خالق للعالم، وذلك في رأيه كل الحق، ولكنه عندما أدرك الفجوة بين الجهل الذي اعترف به والحق الذي زعمه، قبض على المنطق وجعله آلة لتفسير المتشابه، إن لم يكن آلة الإدراك لتلك القضايا، قائلاً: «التبرير الوحيد لصحة النتائج.. هو مدى اتساقها المنطقي»[2]، ولكن كيف إذا كان المنطق لم يكن إلا تابعاً لتجربة الإدراك أن يكون وسيلة لإدراك المجهول؟!، وهل التسلسل المنطقي الصوري له الحق في التفسير، إن لم يُملأ بالمادة؟ لا، لا حق له في ذلك بل إن أسلافنا في البدائية استخدموا المنطق والتسلسل المنطقي، عندما قالوا أن القمر وباقي الكواكب كائنات حية، فهل صدقوا في ذلك؟ لا، ولو كان صاحبنا صادقاً لقال بالاتساق التجريبي الذي يخلو من الفجوات والقفزات، فربما وصل حينئذ إلى شيء من اليقين، وليس شرطاً أن يملك الإنسان كل اليقين في مرحلة واحدة إلا المجنون.

---

(١) ص٢٠ نقد الفكر الديني.

(٢) ص١٦ نفسه.

المادة بزعمه قديمة، هذا خبر، وقد تحقق صدقه بالمنطق، ومن هذا الصدق المزعوم أصبح خبره قادراً على إلغاء كل خبر سواه، فلا إله، ولا شيء بعد المادة، وعندما استطاع العظم بهذه الطريقة، وعلى نفس المنوال ربط نسبه بالقرد، وبعد أن نعت ذلك بالعلم قال: «إذا تنازلنا عن اعتقادنا بآدم وحواء لصالح النظرية العلمية حول أصل الإنسان، لماذا لا نتنازل أيضاً عن الاعتقاد بالجنة والنار علماً بأن كل هذه المعتقدات جزء لا يتجزأ من كلام القرآن المنزل»(١). ومن يستمع إلى سلطة اليقين التي يحملها هذا البرهان يظن أنه صنع معملاً لخلق أو تطوير القردة إلى بشر أو بالعكس، ورحم الله «دارون» و«لامارك».

ولكن أعلى هذا المنوال يكون برهان الأمثال أو الإشارات أو الآيات التي أطلقنا عليها اسم خبر المتشابه في القرآن الكريم؟.

إن كثيرين من أصحاب الفصاحة، وقعوا في ذلك المنهج سامحهم الله، فألفوا الكتب حول الاشارات العلمية، وفضُّوا فيها كل الأسرار إن صح التعبير، وانتهى كل متشابه على أيديهم السحرية، حتى أن بعضهم ساوى بين لفظة «الذرَّة» الواردة في قوله تعالى: ﴿**فمن يعمل مثال ذرَّة خيراً يره**﴾ بالذرَّة التي قال بها العلماء!! وكأن الأمر أمر مشابهة في اللفظ وكفى، فأضحكوا الناس عليهم، حتى أصبحوا تكأة لمن أراد الإلحاد، ومن أجل تلافي هذه الاشاكالات قال بعض المسلمين: بأن ليس في القرآن أية إشارة إلى يقين علمي غير معروف، وها هو واحدٌ من هؤلاء السذَّج، نراه يقول: «ولو كان في القرآن إشارات إلى حقائق تكوينية وكونية لم تكن مكشوفة ومعلومة لكان الله بيَّنها لرسوله ليبينها للناس، ولا يصِّح أن يقال إن الله حجبها عن رسول أو يقال أن رسول الله حجبها عن الناس»(٢). وعلى ما يبدو أن صاحبنا سهواً نسي ما قرره الله من وجود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، أما إذا أقرَّ بوجودهما فعند ذلك يصبح الإحتجاج عليه بنفس الوتيرة المنطقية التي انطلق

---

(١) ص٢٢ نفسه.

(٢) ص٢٢٨ القرآن والملحدون.

منها فيقال: إذا كان المتشابه هو غير المفهوم أو اللامُدْرَك على الاطلاق، فليس من العدل إذن وجوده في القرآن، وإذا نفى وجود المتشابه عند الصحابة والصدر الأول، فليرجع إلى آثارهم، وعندها لا برهان له إلا الذي يدحض رأيه. وهب أن محمداً عليه الصلاة والسلام أراد أن يخبر أصحابه بدوران الأرض حول الشمس، فهل يستطيع أحد أن يصدِّق ما يقوله؟ وكيف ذلك إذا كان الإدراك الحسي وبكل يقينه يقول العكس، ناهيك عن أن الخبر بذاته لا يصح أن يكون برهاناً على خبر آخر، إلا إذا ارتبط أحدهما باليقين المُدرك، ولو ميَّز بين ما يعنيه الدين الذي لا كتمان فيه، وهو ما يخص الجميع، وبين التجربة المستمرة التي لا تعني بيئة النزول لزال الإشكال عنده لأنه ليس من الدين معرفة دوران الأرض حول الشمس، ولكنه برهان هم في غنى عنه، ما دامت تجربتهم مع الرسول الذي بين ظهرانيهم، استطاعت أن تكسبهم يقين البرهان الذي اطمأنوا إليه.

أما الحجة الأخرى في نفي الاشارات العلمية فتعود إلى تغير الحقائق المادية، فالمثلث المعروف عند «**اوقليدس**» مثلاً، هو غيره بالزوايا عند «**ريمان**»، وعند «**لوبتشفسكي**»، وحتى المستقيم لم يعد ذا وجود، بل وكل البديهيات والمبادىء لم تسلم من التجريح، لقد خشي هؤلاء من ارتباط الإشارة العلمية أو تفسيرها بحقيقة مادية قد لا يثبت استمرارها، فلنفي هذه المراهنة قالوا بلزوم نفي فكرة الإشارات، وتلك وسوسة لا مبرر لها إن تم وضع الأمور في نصابها الصحيح.

الحقيقة بمعنى الشمول المطلق على كل العالم لا وجود لها في عالم العقل، أو العالم المادي، لا في المبادىء ولا في سواها، هذا صحيح، أما بالنسبة للاقتطاع المحدد فلا خشية فيه على ضياع الحقيقة، ومن السخف أن تكون «اللاأدرية» هي كل علاقتنا بالعالم، ما دام لكل اقتطاع ميزانه في التعرف على الحقيقة التي تخصه، أو مادام المتشابه مقيد بالاقتطاع المشروط بالإدراك.

الإشارات في القرآن الكريم كثيرة، ما في ذلك ريب، ولنتأمَّل معجزة البصمة لنرى عناصر التأويل التي تكلمنا عنها بشكل ميداني.

يقول الله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوّي بنانه**﴾[1]، ويقول قاموس «المختار من صحاح اللغة»: «البنان وهي أطراف الأصابع»، فأطراف الأصابع إذن هي واحدة من عناصر تحديد الاقتطاع موضوع البحث، أما لمعرفة أن قضية البصمة لا تنتمي إلى معارف بيئة نزول القرآن فيجب أن نستمع إلى رأي المفسرين، و«ابن كثير» يدحض مزاعم «دروزة» التي نسبت الإشارات العلمية كلها إلى ثقافة البيئة بقوله: «بلى قادرين على أن نسوي بنانه، وقال سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس: أن نجعله خفاً أو حافراً، وكذا عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وابن جرير ووجه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿**قادرين**﴾ حال من قوله تعالى ﴿**نجمع**﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بل سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي قدرتنا صالحة لجمعها ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج».

فالمعنى كما هو واضح يدور حول لفظة «**نسوي**» التي فُسِّرت بالتسوية ومسح معالم الأصابع وجمعها إلى بعض حتى يصبح الكف كالخف أو الحافر، ومن الملاحظ أن هذا المعنى لا ينسجم مع كل ما يعنيه الاقتطاع، فالآيات السابقة تخاطب منكر البعث الذي لا يستطع رؤية امكانية العدل المطلق، ذاك القائل: ﴿**إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**﴾[2] والقائل: ﴿**أإذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد**﴾[3] إنها تخاطب الإنسان الذي يريد تبرئة نفسه مما جنت يداه بحجج واهية لا صلة لها إلا بالفجرة ﴿**بل يريد الإنسان ليفجر أمامه**﴾[4]. ولكن لا، لن ينجو المجرم بالموت ولا بالحجج الواهية، سوف يُبعث للحساب العادل ﴿**يومئذ يصير الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم**﴾[5]، عندها ستشهد عليهم أيديهم

---

(١) القيامة ٣ - ٤.

(٢) الانعام ٢٩.

(٣) الرعد ٥.

(٤) القيامة ٥.

(٥) الزلزلة ٦.

وأرجلهـم، بـل ورؤوس **أصـابعهم، سـيرون بصمـاتهم** بكـل وضـوح **﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾**[1] وكل إنسان بما كسب رهين.

التمييز والتحديد الفردي والبرهنة على ارتباط الأعمال بأصحابهـا، ودفعـاً للحجج الكاذبة كل ذلك تم ربطه برؤوس الأنـامل في اقتطـاع واحـد، أمـا إذا فسـرنا «**نسـوي**» بجمـع الأنـامل لتصبـح كـالخف، فعندهـا لا وجـود لكـل الاقتطاع الذي حددتـه الآيـات المرتبطـة بمعنـى لفظـة «**نسـوي**»، والخـازن في تفسيره اقترب بعـض الشـيء مـن المعنـى الصحيـح عندمـا رجَّـح الـرأي الـذي يساوي بين «**نسوي**» والإعادة بقوله: «وقيل معناه أظنَّ الكـافر أن لـن نقـدر على جمع عظامه بلى نقدر على جمع عظامه حتى نعيد السلاميات على صغرها إلى مكانها، ونؤلف بينها حتى تستوي البنـان، فمـن يقـدر علـى جمـع العظـام الصغار فهو على جمع كبارها أقدر، وهذا القول أقرب إلى الصواب».

ومن الملاحظ أن التفسـيرين، أي عنـد ابـن كثـير والخـازن لم يـزل يُحكـم المتشابه بالعبرة ويدور حول معنى القدرة بشـكل عـام دون تحديـد موضوعهـا بالضبط، ولذلك امتد التفسير بلفظة «**عظامه**» إلى «**بنانه**» على الرغـم مـن أن الصواب لا يقول أن أطراف الأصابع هي نهاية العظام، أمـا عندمـا استطاعت تجربة العقل إتخاذ البصمات وسيلة في التحديد الفردي، عندها فقـط تمَّ تكـامل الاقتطاع في كـلٍّ منسجم، كمـا تمَّ التـأويل الصحيـح لمـا كـان مشـكلاً علـى الفهم، حتى صح لصاحبي «الطب في القرآن» القول: «لقد أصبحـت البصمـة دليلاً قاطعاً، ومميزاً لشخصية الإنسان معمولاً به في كـل بـلاد العـالم، ويعتمـد عليه القائمون على تحقيق القضايا الجنائيـة لكشـف المجرمـين، واللصـوص وقـد يكون هذا هو السر الذي خصص تبارك وتعالى من أجله البنان.. وفي هذا بيان كاف لأن يؤمن الإنسان بأن البعث حق»[2]، أمـا «الطنطـاوي» فيقـول: البصمـة «لم يكن يعرفها أحد على عهد محمد ولا في القرون العشرة التي تلـت عهـد محمـد فلابد إذن أن يكون محمد قـد تلقاهـا مـن عنـد الله ولابـد أن يكـون القـرآن كلـه

---

(١) القيامة ١٤.

(٢) ص٢٤ مع الطب في القرآن الكريم.

كلام الله»(1). كما يقول: «تعرفون قصة رئيس قسم تحقيق الشخصية الذي أسلم لمّا سمع قوله تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾(2).

ولو تأملنا في هذا البرهان لرأينا أن طبيعته تعتمد على تحقق الخبر الذي لم يكن معقولاً لبيئة النزول، ومدار الخبر في هذه القضية يتكلم عن علاقة التحديد الفردي في الحياة وما بعد الموت، فالموت عقلاً لا يعني إلا تحلل الشخصية واضمحلالها أو فناءها في الأشياء، إنها تلك العظام النخرة التي أرمت، إنها اللحم الذي أكله الدود، إنها البائدة إلى الأبد، ولكن الله عز وجل يقول: لا، فالعظام ستجمع، لتعود كما كانت، فلا ضياع لشيء مما يميز هذا الإنسان عن سواه، ومهما حدث له، وحتى رؤوس الأصابع ستعود كما كانت له قبل الموت، وهنا سر المسألة أو الخبر، إنه في إعتماد رؤوس الأصابع لمساواة شخصية الحياة بشخصية ما بعد الموت، وهو نفسه الذي يقوم به العلم عند اعتماده البصمات في تحديد الفردية، أو الشخصية بالأثر الذي تتركه.

- الإلحاد وإحكام العبرة:

أما بالنسبة للإحكام بالعبرة فقد رأينا كيف تم تفسير المتشابه بالقدرة التي تستطيع تحقيق العدل المطلق، وهو فهم سليم لا غبار على معناه، أما لو نزعنا ارتباط المتشابه بالعمل الصالح، فلابد حينئذ من عقبات يؤدي الوقوف عندها إلى الإنزلاق نحو زمرة أصحاب الزيغ، فالجنة أو النار مثلاً وصفا بمعان حسية، فقد وصف فيهما طعام ساكنيهما المحدود بالألم واللذة، فكلٌ ما هو لذيذ أو ما يؤدي إلى السعادة فهو لأهل العمل الصالح الذين مأواهم الجنة، وكل ما هو مؤذٍ وبشع، أو ما يؤدي إلى التعاسة فهو لأصحاب العمل السيء الذين مأواهم جهنم وبئس القرار، و«ابن الريوندي» حذف من اعتباره العمل بشقيه ولم يبق له عندها إلا الطعام، وطعام أهل الجنة لم يرق له وفي ذلك يقول: «فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه وهو الحليب ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع - وفيها - العسل ولا

---

(1) ص221 تعريف عام بدين الإسلام - الجزء الأول.

(2) ص221 نفسه.

يطلب صرفاً، والزنجبيل وليس من لذيذ الأشربة، والسندس يفرش ولا يلبس وكذلك الأستبرق وهو الغليظ من الديباج، قال: «من تخايل أنه في الجنة يلبس هذا الغليظ ويشرب الحليب والزنجبيل صار كعروس الأكراد والنبط»[1]، ولكن هل نسي أن فيها أيضاً ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وهل يُعبَّر عن ذلك دون تمثيل من تجربتنا الحية؟ وهب أن تلك الأطعمة لم ترق له، فهل تراه يستسيغ الزقوم والصديد والنيران؟ وما الخيار حينئذ؟.

إن الجنة وما فيها، أو النار وما فيها سيُدْرك كما هو فيما بعد، أما الآن فليس لنا إحكام المتشابه إلا بالعمل، فإن كان خيراً فلصاحبه الجنة أو السعادة أو ما يسرُّه، وإن كان شراً فلصاحبه النار أو الشقاء وكل منغِّص، ولا إشكال عندها فيما يعنينا لهذه الحياة.

وهنالك مثل آخر، يقوم المتشابه فيه بالإشارة إلى أهل الزيغ وتحديدهم، إنه قصة إبليس مع أبينا آدم.

فعندما خلق الله الإنسان بيديه، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس أبى ورفض أمر ربه[2] واحتج بسمو طبيعته على طبيعة الإنسان،[3] ومن أجل ذلك لعنه الله إلى يوم الدين،[4] وناصب بعدها العداء للإنسان، وعقد العزم على غوايته[5]، وكان آدم وزوجه أول ضحاياه، فانتصر عليهما باليمين الكاذب،[6] والوعود الكاذبة،[7]، وخطته الدائمة هي دفع الإنسان لمعاقرة الفحشاء والسلوك السيء[8] وزرع العداوة

---

(١) ص١٦٣ تاريخ ابن الريوندي الملحد.
(٢) الحجر ٣١.
(٣) الأعراف ١٢.
(٤) الحجر ٣٤ -٣٥.
(٥) الحجر ٣٦، ٣٩، الأعراف ٢٤.
(٦) الأعراف ٢٠ -٢١.
(٧) طه ١٢٠.
(٨) البقرة ١٦٨ -١٦٩.

والبغضاء بين البشر[1] ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا﴾[2]، ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾[3] ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾[4].

هذه هي قيم الشيطان وفضائله، فمن الفضيلة عنده رفض الأمر، لأنه جعل من نفسه معياراً لكل يقين، ومن الفضيلة ربط الأفضل بالطبيعة، ومن الفضيلة القسم الكاذب والوعود الكاذبة، ومن الفضيلة زرع الأحقاد والضغائن بين بني الإنسان، ومن الفضيلة دفع الإنسان إلى كل عمل سيء، ومن تبعه في قيمه فهو مثله بل إن شياطين الإنس مقدمون في الترتيب على شياطين الجن![5] بل وبينهما زخرف من القول واتفاق على الأغراض، وها هو العظم قد انتصر لابليس بقوله: أن «**إبليس أول بطل مأساوي في الكون**»[6]، ولا يجوز لإبليس أن يبقى ملعوناً إلى الأبد»[7] ولكن هل إبليس من ناحية السلوك والإدراك عند المسلمين غير قيمه؟ إن قصة إبليس وآدم خبر من لدن العليم الخبير، ووجوده معلوم لنا بالخبر الصادق، وكما شجع المتشابه أو الخبر أصحاب الزيغ للإفصاح عن مكنوناتهم الدفينة التي تسعى لنشر الرذيلة على ما يبدو بين الناس، كذلك شجّع المؤمنين الذين يسعون نحو العمل الصالح أن يقولوا عن الجان أنه «ثبت وجودهم بالدليل القطعي الذي لا احتمال فيه، والدليل هو الخبر الصادق الذي جاء به القرآن بنصوص قاطعة لا إحتمال فيها»[8].

وفي الختام نقول: إن تجربة الشاهد الثاني، أو البرهنة على وجود الله، قد تمت بكل ما يتميز به البرهان من يقين، فتجربة اليهود والنصاري التي ربطت

---

(١) المائدة ٩١.

(٢) النساء ٦٠.

(٣) النور ٢١.

(٤) الإسراء ٦٤.

(٥) الانعام ١١٢.

(٦) ص٨٣ نقد الفكر الديني.

(٧) ص٧٧ نفسه.

(٨) ص٢٧٩ كبرى اليقينيات الكونية.

خبراً من آلاف السنين يصدق على رجل موجود في حاضرهم، تبرهن على أن ذلك لن يكون من بشر قط، إنه خبر من الله. إن مساواة القرآن بين البشر في القيمة، ورفعه من قيمة الإنسان فوق الظواهر وإلى ما هنالك، وجعل العمل الصالح جوهر الدين، وربط العقل بالفعل، وتحقق الحجة التي ترافق الزمن كل ذلك يشير إلى أن القرآن لم يكن عن مصدر بشري قط، خاصة وقد أصبحنا نعلم كيف كانت تجربة الإنسان التي صنعت ماآمن به، وهل هنالك من شيء بعد ذلك كله يكون حجة في أيدي الملاحدة، إلا أنه من أجل الإجابة على هذا السؤال يتوجب علينا النظر في طبيعة الملحد الذي جعل الإسلام أو القرآن موضوعاً له مادامت طبيعة الدين هي التي تصنع وتحدد طبيعة الملحد أو طبيعة منهجه الفكري.

- الالحاد والعناد:

من المعلوم وثائقياً وبالتواتر، أن محمداً عليه الصلاة والسلام حرَّر الكعبة من الأصنام، كما أرسل قواته العسكرية لتحطيم كل صنم ووثن في جزيرة العرب، والنصوص التي تنهى عن تقديس الأحجار والأشجار وإلى ما هنالك يلمسها كل من قرأ القرآن، مهما يكن غبياً ضحل الفكر، ويلمسها أيضاً كل من نظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو ما أوثر عنه، وهل بعد ذلك من وسائل يمكن أن يستخدمها الإنسان للتعبير عما يريد؟ حتماً لا، أما الملحد فيقول: لا، بل أن محمد رجل وثني، ويقسم على ذلك بأغلظ الأيمان، و(بروكلمان) على سبيل المثال يقول: «وعندما بلغ محمد الكعبة طاف بها سبعاً على راحلته لامساً الحجر الأسود بعصاه في كل مرة، وبذلك ضم هذا الطقس الوثني إلى دينه»[1]. ولكن إذا كان الصنم يُقدَّس عند أصحابه لأن له إرادة كما يزعمون، فكيف يقدس محمد صلي الله عليه وسلم الحجر الأسود وهو القائل أنه لا يضر ولا ينفع، فقد «روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم أن

---

(١) ص٦١ تاريخ الشعوب الاسلامية.

الرسول(ص) وقف عند الحجر الأسود فقال إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ثم قبَّله»(١).

لقد قبَّله، نعم، ولكن لا إلى قيمة في ذاته، بل حنيناً إلى الشاهد الذي جسَّد تجربة الأمين، وحنيناً إلى إبراهيم عليه السلام الذي جعله علامة على البدء في الطواف، أم نسي الملحد أن التاريخ لم يرو قط أن الحجر الأسود كان واحداً من الأصنام التي عبدت عند الجاهليين؟.

أمَّا «جرجس دواد» فيقول: لولا تقديس محمد للأشجار تقديس الوثنية، لما جعل بيعة الرضوان تحت الشجرة.(٢). إلا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قطعها! فهل له ذلك لو كان محمد صلي الله عليه وسلم يقدسها؟ أم أنه نسي انتصار العجوز عليه بالمأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد المهور؟ وللملاحدة تفسيرات عجيبة لربط الاسلام بالوثنية، يقول «محمود سليم الحوت» و«جرجس داود» عن بيئة الأوثان «ولا غرابة في تأليههم الثريا» وهي مانحة الغيث، وللغيث شأنه في بلاد العرب «**وجعلنا من الماء كل شيء حي**»(٣). فقد ربطا بين الآية والثريا ليس لشيء، إلا ليربطا بين القرآن وعبادة الكواكب أو البيئة الوثنية.

ولكن هل أراد الملاحدة العناد من أجل العناد، لا، وكيف يرضى الإنسان اتهام نفسه بالجهل، فهل هم يجهلون سيرة الإسلام في صراعه للأصنام والأوثان، لا أظن ذلك، لا، ولا هم يسعون للعناد من أجل العناد، ما دام كل غرضهم على الحقيقة، هو إبعاد قارىء العهد القديم، عن الربط بين البشائر وبين محمد صلى الله عليه وسلم، الذي من علاماته فيها، تحطيمه للأصنام والأوثان، وهذا هو سر المسألة في هذا العناد.

- الإسلام يقول أن للتشريع مصدرين رئيسيين: القرآن والسنة، والمصدران قررا كما هو معلوم تحريم الخمر على المسلم، وبينا أنه لا ناسخ إلا الله، أما

---

(١) ص٢٢ تاريخ الكعبة.

(٢) ص٣٤٩- ٣٥٠ أديان العرب قبل الإسلام.

(٣) ص١٠٠ الميثولوجيا عند العرب، ص٣٤١ أديان العرب قبل الاسلام.

البعض فيرون جواز النسخ بعد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، ويصرون على رأيهم بعناد، ويحتجون له بسير الذين خرقوا الحدود قائلين: «فالخمرة كانت متفشية منذ أول العهد الأموي»[1]. ويقولون فإن «الخليفة الأموي يزيد بن معاوية المتوفي سنة ٦٤هـ يشرب الخمر ويأتي المنكرات، كما اشتهر الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بالخمر والتلوط»[2] «وأيضاً في العصر العباسي شربها الناس عامة» وكذلك «أهل العراق كانوا لا يرون بالشراب بأساً، لذلك انتشرت دور الخمر في كل مكان»[3]. وبعد هذه المقدمات يكون الإستنتاج المنطقي قائلاً عندهم: «إن الناس اختلفوا حول الخمر بين محلل ومحرم» ومن ثم يكون الترجيح أو النسخ بقولهم: «إن الناس قد استحلوا الخمر»[4]، فالناس هم الذين يقررون ما هو حلال وما هو حرام إذن؟ والدكتور «**صلاح الدين المنجد**» يرى أن التشريع تابع لإرادة السلطان لا إلى أصول من الدين عندما قال: «ولما تولى الخليفة القاهر أمر بتحريم الغناء والخمر»[5]، فهل جَهِلَ مايعنيه تحديد الإسلام؟ لا، بل تجاهل.

الإلحاد يعاند العقل وكل وسائل النقد، التي قررت وجود التحريف الذي لحق بسير الأنبياء القدامى،وآثارهم ليقول: إن ما هو مُدْرَك بين أيدينا هو عين ما تركوه دون زيادة أو نقصان، ليس لشيء إلا لإيجاد التناقض الذي يستطيع إلغاء النبوة فـ«الأنبياء- كما يقول أبو بكر محمد بن زكريا الرازي – متناقضون فيما بينهم، وما دام مصدرهم واحد وهو الله فيما يقولون فإنهم لا ينطقون عن الحق، والنبوة بالتالي باطلة»[6]. ولكن ألا يجب عليه في البدء، أن يبرهن على انتماء كل ما هو منسوب للأنبياء إلى الله، إذا رام أن يكون عاقلاً؟!

---

(١) ص٦٩ العلويون بين الأسطورة والحقيقة.

(٢) ص٦٩ نفسه.

(٣) ص١١١ بين الخلفاء والخلعاء.

(٤) ص٧١ العلويون بين الأسطورة والحقيقة.

(٥) ص١١٦ بين الخلفاء والخلعاء.

(٦) ص١٧١ من تاريخ الإلحاد في الإسلام.

من المعلوم أن مؤرخي الإسلام نعتوا بيئة ما قبل الإسلام بالجاهلية، ولكن ما الذي تعنيه هذه اللفظة بالضبط؟ ولنستمع إلى «جعفر بن أبي طالب» فعنده الإجابة، فقد خاطب «النجاشي» قائلاً: **«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار.. ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان»**[1]، فالجاهلية إذن محددة بالسلوك والإيمان، أما الملاحدة فيأبون هذا الفهم، ورغماً عن المأثور يربطون بين الجاهلية والعلم أو المعرفة، ويتباكون في سبيل رفع الظلم، و«شوقي عبد الحكيم» يقول: كيف يكون الجهل لبيئة ما قبل الإسلام؟ «يطلق عليها اعتباطاً بالجاهلية.. هذه الجاهلية تزدهر بالعديد من النشاطات الإبداعية الحضارية المرصودة اركيولوجياً أو علمياً تصل إلى قرابة ٤ آلاف عام قبل الميلاد، وللجنوب العربي في اليمن ودول الخليج حضارته وتراثه الأسطوري والعقلي الموغل في القدم والعراقة»[2]. وهل يكون جاهلاً من امتد بنظره إلى ما يزيد على خمسة آلاف عام؟ لا، ولكن بأي شيء يدحضون إعجاز القرآن؟ ليس بشيء إلا إذا ربطوا العبقرية المفترضة بتلك البيئة، ومن أجل هذا الغرض كان عنادهم على تحريف معنى لفظة «الجاهلية»، وهيهات أن يستقيم لهم هذا الأمر، خاصة إذا لم ينسوا المميز الرئيسي للبدائي والبدائية.

- الإسلام مدرسة للسحر:

السحر موجود، قبل الإسلام وبعده، ولقد اعترف القرآن بوجود السحرة، والبحوث حول البارسيكولوجيا مستمرة في عصرنا الراهن، وكثيرون من أصحاب الرأي قد حددوا السحرة بالوسطاء، وما الكهنة والعرافون قديماً إلا هم، إلا أن الإسلام حارب السحر بكل أشكاله وأصنافه، ومن صدَّق عرافاً أو ساحراً فقد كذب بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، و«الخازن» يقول

---

(١) ص٣٣٦ القسم الأول سيرة ابن هشام.

(٢) ص١٨ الفلكلور والأساطير العربية.

في تفسير الآية «١١٥» من سورة البقرة: السحر «من الكبائر التي نهى عنها ويحرَّم تعلمه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول وما هن؟ قال: الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم والزنا والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات النافلات المؤمنات.. كما - أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: حد الساحر ضربة بالسيف».

أما الإلحاد فأمره غريب عجيب، فـ«إبراهيم بدران» و«سلوى خماش» يقولان بعناد: إن «الطابع الإسلامي يتضح بنسبة المرض إلى عفاريت من الجن»،(١) فقد «اكتسبت ممارسات السحر والشعوذة.. طابعاً إسلامياً»،(٢) كما يقولان: «إن المشعوذين والدجالين ومدعي السحر.. يجدون في القرآن والدين وسيلة ناجحة لترويج الخرافة وتأكيد فاعليتها»(٣)، و«شوقي عبد الحليم» يُقسم بأغلظ الأيمان أن الإسلام مصدر الخرافة، كما يُقسم بأن العرب هم علة التخلف العالمي، فقد أصبحوا يعيقون أوربا في مسيرتها العلمية، يقول: «ولنا أن نتصور أن هَمْ أوربا والعالم الجديد عامة الأول ومعاناتها تكمن في محاولة التخلص من براثين وموروثات هذا العالم القديم الذي نحن بؤرته الرئيسية، هنا على أرض مشرقنا العربي»(٤)، و«ابن الريوندي» يقول: إن الأنبياء ليسوا إلا سحرة: «إن الأنبياء وقعوا بطلمسات جذبوا بها دواعي الخلق كما يجذب المغناطيس الحديد»(٥)، ويا للمفارقات العجيبة، فقد تخلى عن العقل ليزعم أنه انتصر للعقل على الوحي!.

وبعد هذه الأقوال وأمثالها، والتي لا معنى لها إلا العناد ينادون بضرورة القضاء على الإسلام، قائلين: «إن كل ما هو قديم أو سالف، أصبح اليوم

---

(١) ص٧٠ دراسات في العقلية العربية «الخرافة».

(٢) ص٢٤٣ نفسه.

(٣) ص٢٧٤ نفسه.

(٤) ص٢٤٢ الفلكلور والأساطير العربية.

(٥) ص١٩٥ تاريخ ابن الريوندي الملحد.

مدعاة للسخرية»[١]، ولابد من الثورة، «وهذا هو بالضبط مفهوم الثورة الثقافية: نفض تراث العالم السالف أو القديم»[٢] بما في ذلك القرآن، ولكن ليس هذا بالشيء الجديد في تاريخ الإسلام، ولا بالجديد على المسلمين، فقد «كان النشيد الذي ردده الجيش الايطالي الذي غزا ليبية سنة ١٩١١م: يا أماه أتمي صلاتك، ولا تبكي، بل اضحكي وتأملي، ألا تعلمين أن ايطالية تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن»[٣].

وإذا ما كان الساحر هو الذي يزيِّف الحقائق، بجعله الباطل حقاً والحق باطلاً، فسوف نجد هذا أيضاً من سمات الملحد، الذي تميز بعناده على قلب الحقائق، فهل الإسلام حقاً ينسب المرض إلى الأرواح والشياطين؟ وهل شجع القرآن السحر والخرافة والشعوذة؟ ولو كان ذلك موجوداً على الحقيقة في بيئة الإسلام، فالأكيد عندها أن الإسلام مسلوب الإرادة ولا رأي له في أذهان الممارسين لتلك الدروب.

- الإلحاد بين الجهل والكذب:

من المعلوم أن النقد الصحيح والكذب لا يجتمعان عند العقل، لأن النقد عندها ليس إلا للصورة المقترحة التي لم تبرح صاحبها قط، و«العظم» يشرح قضية الخلق في القرآن الكريم من هذا المنطلق ليهدمها، يقول: خلق الله هذا الكون في فترة معينة من الزمن بقوله كن فكان.. أما الطبيعة فقد حافظت على سماتها الأساسية منذ أن خلقها الله، أي أنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها، أن النظرية العلمية لا تقرّ بأن الطبيعة كانت منذ البداية كما عليه الآن»[٤].

---

(١) ص٢٤٢ الفلكلور والأساطير العربية.

(٢) ص٢٤٦ نفسه.

(٣) ص١٧٢ الإسلام في قفص الاتهام.

(٤) ص١٨ نقد الفكر الديني.

فالقرآن حسب رأيه يقول بثبات الطبيعة منذ خلقها الله! ولكنه لو أراد نفي الجهل أو الكذب عن نفسه لذكر قوله عز وجل **﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾** **﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾**، بل إن الله تعالى يقول أن هنالك **﴿خلقاً من بعد خلق﴾** و**﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾** و**﴿وكل يوم هو في شأن﴾**.

الإسلام يضحي بالأطفال! ياللهول، ما أفضع شعائره، لقد اكتشف هذا «شوقي عبد الحليم» فقال: إن التضحية بالولد الوحيد «ظلت سارية ومتأصلة إلى ما بعد مجيء الإسلام، وطبعاً ماتزال بقاياها سارية حتى وقت قريب، حتى فيما يتصل بوضع الطفل أو نحره في أساس المنشآت الدينية والتي دخلتها الآلية كمكاينات الطحين»(١). وهل أفلس الملحد إلى هذا الحد حتى استباح لنفسه الأخذ بكذب سافر؟!

المسلم عدو البشرية، إنه الجزّار الرهيب، وليس له من غاية غير سفك الدماء، وتلك هي حقيقته، فقد فرض الله عليه عداء كل الشعوب. وهكذا رسم «بروكلمان» صورة المسلمين عندما قال: «يتحتم على المسلم أن يعلن على غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم»(٢)، فقد تغلّبت أحقاد المسكين على ما يجب أن يعلم، فتشبَّث بالجهل الذي وجد فيه ضالته «فالملحدون - كما يقول دروزة - كثيراً ما يأخذون آية بل جملة من آية أو فصلاً من سورة فيما يحكون ويتمحلون فيه، دون أن ينتبهوا أو يهتموا او يستوعبوا لما في بقية الاية او سياقها أو اللاحق او السور الأخرى من تتمات واستدراكات وتوضيحات، في حين أن الواجب والمنطق والحق والعلم معاً يقضي بأن يؤخذ القرآن ككل متكامل يفسر بعضه بعضاً»(٣).

الإسلام يدعو إلى العنصرية، وكل ما يمتُّ إليه بصلة فهو قبيح، وأقبح الأشياء اللغة العربية، يقول شوقي عبد الحليم: «لا يمكن إنكار مدى ثقل ما

---

(١) ص٢١٠ الفلكلور والأساطير العربية.

(٢) ص٧٩ تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٣) ص١٠٣ القرآن والملحدون.

يشكله هذا التراث الغيبي اللاعقلاني.. من إضطهادات عصبية سامية تتمثل عند اليهود في شعب الله المختار وعندنا في الإعتصام واعتبارنا خير امة أخرجت للناس كما هو مكتوب بخطوط قبيحة عند مدن الدلتا بالذات، واللافتات الخطية لتزيين البيوت والقاعات، ومنها قاعة إجتماعات الجامعة العربية!»(١).

فيا للجهل والإفلاس، فهلا قرأ كل الآية، على الأقل ليميز بين ما تعنيه وتتميز به، عن عنصرية الشعب المختار عند اليهود.

لقد رأينا كيف تميز الإسلام بجعل الشعائر ذات شمولية مطلقة، أما الإلحاد فيتجاهل كل ذلك عامداً ليهيء الجو لنفثاته التي لا صلة لها مع العقل أو النقد السليم، فيقول عن الحج: «أما الرأس فيتعين أن يظل حاسراً حتى من قيظ الصيف وهيبه»(٢)، وعن صيام رمضان يقول: «وإذا كان هذا الشهر يقع بحكم السنة القمرية في الشتاء حيناً وفي الصيف حيناً فقد صار القيام بهذا الفرض وبخاصة في بلدان المناطق الحارة عملاً جاهداً كثيراً ما يقتضي المؤمنين تضحيات قاسية»(٣)، وعن التيمم يقول: «وعند عدم وجود الماء يمكن الاستعاضة عنه بالرمل»(٤)، الحج والصيام إذن يؤديان إلى الهلاك، ولا تيمم إلا بالرمل، فالإسلام لا يلائم البلاد الحارة ولا البلاد التي لا وجود فيها للرمل، والإنسان أوسع من هذا التحديد، ولا شمولية للإسلام إذن. ولكن أما علم النقاد ان تأجيل ما لا يطاق من صلب الشمولية التي يتميز بها القرآن؟ وهل حقاً أنه لا تيمم إلا بالرمل؟!.

---

(١) ص٢٢٥ الفلكلور والأساطير االعربية.

(٢) ص٧٥ تاريخ الشعوب الإسسلامية.

(٣) ص٧٥ نفسه.

(٤) ص١٥٥ الإسلام.

- الملحد يكره العرب:

الملحد يكره العرب ويحقد عليهم، لأن العربي برأيه تافه وأحمق «فالعربي - كما يقول جرجس داوود - يغضب ولأتفه الأسباب، ولا تزال هذه الصفة تلازمه حتى يومنا هذا»[١]، أما «إبراهيم بدران» و«سلوى خماش» فلا يريانه جديراً بالعلم لأنه ذو ذهن غليظ، يقولان: «إن مدلول كلمة العلم لا يزال بعيداً عن الذهن العربي»[٢] و«عبد الرحمن بدوي» يحلل الشخصية العربية ليقول: إنها تتميز بالإرادة القوية أولاً وبالعاطفة ثانياً وأخيراً يأتي العقل، ولكنه عاد فسلب العربي ما تميز به من قوة حسب رأيه فقال: ولكن «هذه الإرادة هي إرادة غير موجهة»[٣]، اي نها كإرادة الدواب، وبذلك اتفق هؤلاء جميعاً على أن العربي ليس إلاحيواناً إن لم يكن أحط درجة منه، إنه يغضب لأتفه الأسباب، ولا نسب بينه وبين العلم ولا رابطة مهما تكن تافهة، وحتى إرادته هوجاء لا ضابط لها، وذوقه سقيم، لغته كريهة، وأبجديته قبيحة، وبالإجمال فلا عقل عنده على الإطلاق، إنه عبء على البشرية، ولا راحة للبشرية إلا بالخلاص من العرب، إنهم حملة الخرافة، لأنهم الذين حطموا «كسرى» و«قيصر» و«لويس»، ومغفل إذن من يتناسى الثأر أو ينسى الأحقاد.

- الإلحاد والأخلاق:

إيجاد العمل الصالح والفعل الخلقي هي الغاية العليا في ديانة الإسلام، ولابد للإلحاد أن يرفض ذلك، وقد رأينا هذا في وضوح عندما عقد «العظم» التحالف مع إبليس أو الشيطان وقيمه ضد القرآن، وليس هذا بالشيء النادر، فـ«البدوي» أيضاً يتهج طرباً مع المجّان وينعتهم بالنزعة الإنسانية، بل ويفلسف خلاعتهم وهو يقول: «هي النزعة الإنسانية التي ترمي إلى الارتفاع

---

(١) ص١٦٦ أديان العرب قبل الإسلام.

(٢) ص٢٨٣ دراسات في العقلية العربية - الخرافة -.

(٣) ص٢٢ من تاريخ الإلحاد في الإسلام.

بالقيم الإنسانية الخالصة في مقابل القيم الإلهية والنبوية، وإنا لنجدها واضحة تماماً لدى الشعراء خصوصاً تلك الجماعة المعروفة «بعصابة المجان» على حد تعبير ماجنها الأكبر أبو نواس، فما ينسب إليهم من عبث وشك، إنما كان يقصد به السمو بكل ما هو إنساني أرضي حسي يُشعر بمعنى الأرض، وإلى الحط من كل ما هو فوق أرضي بوصفه وهماً زائفاً ينتزع الدم والحياة من الإنسان الحقيقي الإنسان الحي المكون من لحم ودم»(١).

الإسلام استوصى بالوالدين خيراً، وعندما أراد الملحد النصر على هذه المقولة قال: لا، إن هذا - على حد تعبير «شوقي عبد الحليم» تجبُّر مرفوض، و«تجبر التراث عامة في طاعة الوالدين»(٢). لا، بل يجب إهانة الوالدين وإذلالهم و«بنت المرنيسي» تنادي بـ«خوض الصراع ضد قامة الأب والأم الفارهة» حتى النصر(٣).

إن الحديث عن الأخلاق لابد أن يجرنا للحديث بعض الشيء عن المرأة.

الإسلام قرَّر وجود الطلاق، أما الإلحاد فيأبى أن ينظر إليه كقانون مشروط، ولو كان له شيء من الإنصاف لناقش الموضوع كاملاً، وهذا لا وجود له عند ملحد قط، فليس لهم إلا الصراخ والعويل، تارة تحت رداء الظلم، وأخرى بدموع التحرر والحرية، فالطلاق مثلاً كما يقولون عشوائي غريزي همجي لا وجود فيه لسمة القانون، وبنت المرنيسي تقول: «المسلمون يطردون زوجاتهم ويمزقون أطفالهم لمجرد التفوه بلا أو نعم»(٤)، والرجل المسلم «يمكنه أن يضاعف عدد شريكاته حسب رغبته بالإضافة إلى أربع زوجات شرعيات، وله الحق في إقتناء عدد الجواري الذي تسمح به قوته الشرائية، ويسمح له الطلاق كذلك تبديل زوجاته الشرعيات دون تحفظ»(٥)،

---

(١) ص٧ من تاريخ الإلحاد في الإسلام.
(٢) ص٢٢٤ الفلكلور والأساطير العربية.
(٣) ص١٩٣ السلوك الجنسي في مجتمع رأسمالي تبعي إسلامي.
(٤) ص١٨١ السلوك الجنسي في مجتمع رأسمالي تبعي إسلامي.
(٥) ص٧٤ نفسه.

«ولايتردد الرجل في تطليق زوجة مريضة غدت عاجزة عن العمل أو زوجة منعتها وطأة السن من الإنتاج»[1].

فالطلاق إذن كما يقول الملاحدة طرد للزوجة، وتمزيق للأطفال، ويتم بلفظة سحرية تماماً كالنذر عن اليهود، وقوانينه برأيهم تقول: أيها المسلم طلق زوجك متى شئت ودون تحفظ، طلقها إن أصبحت مريضة، أو طاعنة في السن، أو عاجزة، أو إن أصبحت غير ذات نفع، بما أنه لا عدد محدود لشرعية إقتناء النساء، ولكن على أي مصدر اعتمد الملاحدة في صياغة هذه القوانين؟ فهل قرأوا القرآن، أو بعضاً من الفقه الذي يتحدث عن الزواج والطلاق؟ لا، أما إذا استنتجوا ذلك من سلوك بعض الجهلة، فإن القرآن لم يقرِّر العصمة لمن أصبح مسلماً أو لرعاياه حتى يكونوا حجة، لأن الله هو المشرِّع لا سواه.

وإحقاقاً للحق فإني أنصح الملاحدة أن يقرأوا الآيات التالية التي تخص الطلاق، على الأقل لعلَّهم يقتربوا من الحق والإنصاف وهي: «**البقرة ٢٢٩، ٢٣١، النساء ٣، ١٩، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ١٢٧، ١٣٨**».

الإسلام قرَّر العفة والحشمة للمرأة، فأمر بستر مفاتنها، وهذا ذو علاقة بالعقيدة والإيمان، إنه أمر. وللملاحدة منهج غريب في الإنتصار للخلاعة وفضح المفاتن، فقد حشدوا العلم في هذا الصراع، حتى أنهم حدوُّه بالسفور، ولن تستطيع برأيهم تحصيل العلم تلك التي تستر مفاتنها، وكيف لها ذلك إذا كان العلم مشروطاً بالسفور «لقد ارتبط السفور بالتعليم»[2]، ارتباط الشرط بالمشروط.

أما «شوقي عبد الحليم» وبعد أن تأبط بكل جهله، راح يحن إلى حرية المرأة الفرعونية، متأسفاً لدخول الإسلام إلى مصر، وشر البلية ما يضحك. وبنت المرنيسي تأسف هي الأخرى لوجود الجهل الذي سببه الحفاظ على براءة البكارة، أو الخشية عليها، وفي ذلك تقول: «إن كون المدارس تبعد عن المساكن أحياناً بكلمترات عدة لا يشجع الآباء البتة القلقين على بكارة بناتهن

---

(١) ص١٤٠ نفسه.

(٢) ص٦٦ الأنثربولوجيا ومشكلات التحضر.

على إرسال البنات في طرق المدرسة غير الآمنة»[1]، وعوضاً عن إيجاد الأمن الذي وجده «ابن تيمية» بقوله عن «السدي»: «**لو أن رجلاً او أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم**»[2]. عوضاً عن ذلك لتأمين دروب العلم ودفن الجهل تنادي بالتخلص من كلمة العار التي ترتبط بالبكارة، فقد نادت بالتغيير على حد تعبيرها فقالت: «التغيير.. سيحرر المرأة من القمع والقيود التي يكبلها بها المجتمع وفي مقدمتها القيود الجنسية»[3]، فمن الظلم إذن تلك القيود، ولا قيد عندها إلا وجود القدرة على القيام بالعمل الجنسي فـ«الجسم – الإنساني – كما تقول لدى الجنسين خُلق ليعيش حياة جنسية منذ سن البلوغ»[4]، وإذا ما كانت البكارة ضرورية بعدها ولابد، فعليكم بالبكارة الصناعية، فبها تخدعون الرجل، فلا تخشوا شيئاً ما دام العلم يخدمكم[5]، وها هي تتكلم عن التكاليف بإهتمام بالغ، وثمنها كما تقول لم يعد عبئاً، انه ما بين «٥٠٠ و١٠٠٠ درهم – بينما – كانت تكلف في سنة ١٩٦٨ ٢٠٠٠ درهم»[6].

وبعد ذلك كله أليس حقاً ما يقوله «شوقي أبو خليل» للملحد عندما خاطبه قائلاً: «إن حبك للإنفلات من قيود الأخلاق هو الدافع الأصلي الذي دفعك إلى الهروب من الدين»[7]، أم أنك لا تعلم أن «لندن» تعاني من مأساة حقيقية بسبب السلوك الإباحي، ففيها وحدها من المواليد الذين لا آباء لهم «٥٧٣٦٨ طفلاً»[8]. وهل مجتمعنا بحاجة إلى أمثال هذه المشاكل؟ ولكم نتمنى لو كان العقل أو مصلحة الوطن هي المعايير التي يخضع لها الإلحاد.

---

(١) ص١٣٧ السلوك الجنسي في مجتمع رأسمالي تبعي إسلامي.

(٢) ص٦٥ مجموعة الرسائيل الكبرى، الرسالة الأول «الفرقان» الجزء الأول.

(٣) ص٢٤ السلوك الجنسي في مجتمع رأسمالي تبعي إسلامي.

(٤) ص٧٥ نفسه.

(٥) ص٦٧ نفسه.

(٦) ص٦٨ نفسه.

(٧) ص١٥٦ الإسلام في قفص الاتهام.

(٨) ص٢٣٧ نفسه.

- الإلحاد يعتمد الظن:

لقد كان الإلحاد ينشد العقل في صراعه لإيمانيات ما قبل الإسلام، أما في صراعه للإسلام فقد أصبحنا نراه بعيداً كل البعد عما يعنيه يقين العقل وحقيقته، فعوضاً عن المحافظة على معيارية اليقين المحسوس أو البرهان الصحيح، أصبح لا ميزة له إلا الإعتماد على الظن الذي لا برهان فيه. فإذا ما تعرَّض أحدهم لنقاش علاقة الأمية، أمية محمد صلى الله عليه وسلم بالعبقرية يقول: «**وبرأيي** أن العلم هو المعرفة، والمعرفة ليست القراءة والكتابة»(١)، كما يوسعون من رحلات محمد(ص) حسبما يشاءون ولا مصدر لهم إلا سوء ظنهم فيقولون: «**وربما** إلى بصرى»(٢)، كما يوسعون من رحلاته الفكرية قائلين: «**وأغلب الظن** أن محمداً قد انصرف إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جداً»(٣)، وبالظن يربطونه بالأصنام قائلين: «لكنه **على ما يظهر** اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث»(٤). وعند حديثهم عن الهجرة يقولون: «وأغلب الظن أنه كان يرجو عقب وصوله إلى المدينة أن يدخل اليهود في دينه»(٥)، وعن الإسراء والمعراج يقولون «**ومن الجائز** أن تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ما أشير إليها بعد في الأساطير الشعرية التي خلفتها لنا الكتب الإسلامية جميعها أقدم من ذلك عهداً **ولعلّها** ترجع إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية»(٦)، وإذا ما تعرضوا لنقاش إسلام المدينة السريع يقولون «وكان في المدينة جالية كبيرة من اليهود بينها وبين الوثنيين ضغائن متطاولة فكانت **في أغلب الظن** تتوعد الوثنيين بقرب ظهور المسيح الذي

---

(١) ص١٦١ أديان العرب قبل الإسلام.

(٢) ص٣٣ تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٣) ص٣٤ نفسه.

(٤) ص٣٤ نفسه.

(٥) ص٤٦ نفسه.

(٦) ص٤٤ نفسه.

سينتقم لها من مضطهديها»[1]، وإذا أرادوا إيجاد مصادر لما أتى به الرسول يقولون «**ولعل** اليهود قد استنسخوا كتبهم الدينية بلغة العرب»[2]، وإذا ما تحدثوا عن إتفاق الأوس والخزرج تحت راية القرآن يقولون: «**ولقد كان من الجائز** أن تقع هذه المهمة على عاتق كاهن وثني ما»[3]، وإذا ما تكلموا عن الحجر الأسود يقولون: «**ولعل هذا الحجر** أقدم الأوثان التي عرفتها مكة قبل الإسلام»[4]، «**ولعله** أقدم وثن عبد في تلك الديار»[5]، «**وليس ببعيد** أن يكون الركن والمصلى «المقام» قطعتين من تلك الأحجار البركانية التي يخال إلى الناس أنها أجسام سماوية **ولربما** كان كذلك أي من بقايا نيازك متساقطة»[6]، وإذا ما بحثوا عن مصادر الشعائر في الإسلام يقولون عن فريضة الصيام مثلاً: «**ولسنا نعرف حتى الآن** ما إذا كان محمد قد اقتبس هذه الفريضة عن إحدى الفرق الغنوستية أم عن المانيين»[7]، وإذا ما تكلموا عن علاقة الشعر بالدين يقولون: «**فأغلب الظن** أن الشعر عند العرب قد ارتبط منذ نشأته الأولى بالدين»[8]، وإذا ما أرادوا ربط العقائد التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم بالتطور يقولون: «**في أغلب الظن** لم يتكلم إلا فيما بعد عن يوم حساب شامل»[9]، وإذا ما أرادوا الحديث عن موت الرسول ومرضه يقولون «**مرض النبي بداء الملاريا على الأرجح**»[10]، وإذا أرادوا مديح «مسيلمة الكذاب» والإطراء على المرتدين يقولون «**والذي يبدو** أن مسيلمة

---

(١) ص٤٢ نفسه.
(٢) ص٢٣٥ أديان العرب قبل الإسلام.
(٣) ص٤٣ تاريخ الشعوب الإسلامية.
(٤) ص٧٦ نفسه.
(٥) ص٧٦ نفسه.
(٦) ص١٣٠ الميثولوجيا عند العرب.
(٧) ص٤٨ تاريخ الشعوب الإسلامية.
(٨) ص٢٩ نفسه.
(٩) ص٣٧ نفسه.
(١٠) ص٦٧ نفسه.

قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً»[١]، وإذا ما تكلموا عن جمع القرآن يقولون: «**يمكن الإفتراض** أنه كان لعثمان هدف سياسي بعمله هذا يعادل الهدف الديني، فقد وصل إلى الخلافة بجهد وكان أن عزّز مركزه بإقراره نصاً لا يتغير للكتاب المقدس»[٢].

والآن ماذا لو قذفنا بكل هذه الظنون، فهل لهم عندها إلا الأهواء والأحقاد واللغو ﴿**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون**﴾[٣] ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[٤].

***

(١) ص٨٥ نفسه.

(٢) ص١٠٧ الإسلام.

(٣) الأنعام ١٤٨.

(٤) فصلت ٢٦.

- الخاتمة:

لو نظرنا الآن بعين شاملة لما مضى لرأينا أن هنالك ثلاثة سبل للقول بقضايا الإيمان:

الأول: هو الناتج عن انزلاق في تجربة العقل، والملحد المرافق له يسعى للحصول على العلم والإدراك الصحيح.

الثاني: ناتج عما يلزم لتحقيق الأغراض والأهواء، والملحد الناتج عنه، يسعى لإيجاد القيمة للإنسان، والقوة للمجتمع.

أما الثالث: فهو خبر من لدن العليم الخبير، وإذا ما تحقق فيه العقل والأخلاق، فسوف نجد الملحد يرجع تارة أخرى نحو البدائية بكل ما تعنيه كلمة المنهج من معنى، فليس له عندها من مبادىء إلا الكذب والعناد والجهل والظن وتكبيل العقل بالأهواء والأحقاد، إنها البدائية في استخدام العقل ولا شيء سواها، إنه الإلزام، فمن اتخذ العقل ألزم عدوه باللاعقل «ولن تجد لسنة ا لله تبديلا».

وبالمنطق: إن كان الفعل الخلقي نواة الدين، فالملحد بهذا الدين لابد أن يرفض الأخلاق.

- مراجع الكتاب -

١- القرآن الكريم

٢- الكتاب المقدس

٣- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام: تأليف الدكتور علي عبدالواحد وافي ١٩٧١

٤- الإسرائيليات: تأليف الدكتور رمزي نعناعة، الطبعة الأولى ١٩٧٠

٥- التوراة بين الوثنية والتوحيد: تأليف سهيل ديب، الطبعة الأولى ١٩٨١

٦- مقارنة الأديان «اليهودية»: تأليف الدكتور أحمد شلبي الطبعة الخامسة ١٩٧٨

٧- مقارنة الأديان «الإسلام»: تأليف الدكتور أحمد شلبي الطبعة السادسة ١٩٧٩

٨- مقارنة الأديان «المسيحية»: تأليف الدكتور أحمد شلبي الطبعة السادسة ١٩٧٨

٩- المفسدون في الأرض: تأليف س.ج. الطبعة الثانية ١٩٧٣

١٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل: تأليف ابن حزم، دار المعرفة ١٩٨٣

١١- التوارة تاريخها وغاياتها: ترجمة سهيل ديب، الطبعة الرابعة ١٩٨٢

١٢- الميثولوجيا عند العرب: تأليف محمود سليم الحوت، الطبعة الثانية

١٣- الفلسفات الهندية: تاليف الدكتور علي زيعور، الطبعة الأولى ١٩٨٠

١٤- الفكر الفلسفي الهندي: تأليف الدكتور سرفبالي راداكرشنا والدكتور شارلزمور، ترجمة ندرة اليازجي ١٩٦٧

١٥- الغصن الذهبي: تأليف سير جيمس فريزر، ترجمة أحمد أبو زيد ١٩٧١

١٦- الحكاية الخرافية: تأليف فريدريش فون ديرلاين ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم ١٩٦٥

١٧- الإنسان روح لا جسد: تأليف الدكتور عبد الرؤوف عبيد طبعة ثالثة ١٩٧١

١٨- النظرية العلمية في الطبيعة والمجتمع والمعرفة: تأليف أ.ب. شبتولين ترجمة هيئة تحرير الدار.

١٩- التحف الجوهرية.

٢٠- **أديان العرب قبل الإسلام**: تأليف الأب جرجس داود داوود الطبعة الأولى ١٩٨١
٢١- **النجاح في علوم النفس والتنويم والأرواح**: تأليف عبد الفتاح السيد الطوخي.
٢٢- **الانثروبولوجيا الثقافية**: تأليف الدكتور عاطف وصفي، الطبعة الأولى ١٩٧٥
٢٣- **الانثروبولوجيا ومشكلات التحضر.**
٢٤- **الفلكلور والأساطير العربية**: تأليف شوقي عبد الحكيم، الطبعة الأولى ١٩٧٨
٢٥- **الإسلام**: تأليف هنري ماسييه، ترجمة بهيج شعبان طبعة ثانية ١٩٧٧
٢٦- **القرآن والملحدون**: تأليف محمد عزة دروزة. طبعة ثانية ١٩٨٠
٢٧- **الإشارات العلمية في القرآن الكريم**: تأليف محمد وفا الأميري، طبعة ثانية ١٤٠١هـ
٢٨- **الإسلام والعقل**: تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد، طبعة أولى ١٩٧٤
٢٩- **اليهود في القرآن**: تأليف عفيف عبد الفتاح طبارة، طبعة تاسعة ١٩٨٢
٣٠- **المختار من صحاح اللغة.**
٣١- **العلويون بين الأسطورة والحقيقة**: تأليف هاشم عثمان، طبعة أولى ١٩٨١
٣٢- **السلوك الجنسي في مجتمع إسلامي تبعي**: تأليف الدكتورة فاطمة المرنيسي، ترجمة أزرويل فاطمة الزهراء، طبعة أولى ١٩٨٢
٣٣- **الإسلام في قفص الإتهام**: تأليف شوقي أبو خليل، طبعة خامسة ١٩٨٢
٣٤- **الله**: تأليف عباس محمود العقاد، طبعة خامسة.
٣٥- **بين الخلفاء والخلعاء**: تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد، طبعة ثالثة ١٩٨٠
٣٦- **دراسة الكتب المقدسة**: تأليف موريس بوكاي، دار المعارف، طبعة رابعة ١٩٧٧
٣٧- **دراسات في العقلية العربية - الخرافة -**: تأليف الدكتور إبراهيم بدران والدكتورة سلوى خماش، طبعة ثانية ١٩٧٩
٣٨- **وثيقة الصهيونية في العهد القديم**: تأليف الدكتور جورجي كنعان طبعة ثانية ١٩٨٢
٣٩- **حياة بوذا**: فاردينان هارولد، تعريب فيليب عطاالله، دار الروائع الجديدة ١٩٧٥
٤٠- **كتاب إثبات النبوءات**: تأليف أبو يعقوب اسحق السجستاني، تحقيق عارف تامر، طبعة ثانية.
٤١- **كبرى اليقينيات الكونية**: تأليف الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، طبعة ثامنة ١٤٠٢هـ

٤٢- **لعنة الفراعنة**: تأليف فيليب فاندنبرغ، ترجمة الأستاذ خالد أسعد عيسى والمحامي أحمد غسان سبانو، طبعة أولى ١٩٨٢

٤٣- **مختصر سيرة الرسول**: تأليف محمد بن عبد الوهاب، طبعة ثانية.

٤٤- **مقارنات الأديان - الديانات القديمة -**: تأليف الإمام محمد أبو زهرة.

٤٥- **مبادىء فلسفة المستقبل**: تأليف لودفيغ فويرباخ، ترجمة الياس مرقص طبعة أولى ١٩٧٥

٤٦- **ماوراء التاريخ**: تأليف وليام هاولز، ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد ١٩٦٥

٤٧- **ما قبل الفلسفة**: تأليف هـ. فرانكفورت هـ.ا، فرانكفورت. جون. أ. ولسن. توركليد جاكوبس، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ١٩٦٠

٤٨- **مصر الفراعنة**: تأليف سير ألن جاردنر، ترجمة الدكتور يحيى ميخائيل إبراهيم ١٩٧٣

٤٩- **مجموعة الرسائل الكبرى**: تأليف ابن تيمية. طبعة أولى ١٣٢٣هـ.

٥٠- **مع الطب في القرآن الكريم**: تأليف الدكتور عبدالحميد دياب، والدكتور أحمد قرقوز. طبعة ثانية ١٩٨٢

٥١- **من روائع القرآن**: تأليف محمد سعيد رمضان البوطي، طبعة خامسة ١٩٧٧

٥٢- **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**: تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي، طبعة ثانية.

٥٣- **مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة**: تأليف الدكتور الشيخ محمد علي الجوزو، طبعة أولى ١٩٨٠

٥٤- **نقد الفكر الديني**: تأليف الدكتور صادق جلال العظم، طبعة رابعة ١٩٧٧

٥٥- **سلاسل المناظرة**: تأليف عبدا لله العلمي، طبعة أولى ١٩٧٠

٥٦- **سيرة ابن هشام**: حققها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مؤسسة علوم القرآن.

٥٧- **علم الأديان**: تأليف المستشرق جيب والدكتور عادل العوا، طبعة أولى ١٩٧٧

٥٨- **علم الفلكلور**: تأليف الكزاندر هجرتي كراب، ترجمة رشدي صالح ١٩٦٧

٥٩- **فلاسفة إنسانيون**: تأليف كارل ياسيرز، ترجمة الدكتور عادل العوا، طبعة أولى ١٩٧٥

٦٠- **قصة الحضارة**: تأليف ول ديورانت، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، طبعة رابعة

٦١- **قصة الديانات**: تأليف سليمان مظهر، دار الوطن العربي للطباعة والنشر.

٦٢- **قصص الأنبياء:** **تأليف** عبد الوهاب النجار، دار الفكر ببيروت طبعة ثانية

٦٣- **روح الفلسفة المسيحية:** تأليف أتين جلسون، عرض وتعليق الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، طبعة رابعة ١٩٧٤

٦٤- **رسالة في السياسة واللاهوت:** تأليف سبينوزا، ترجمة الدكتور حسن حنفي والدكتور فؤاد زكريا ١٩٧١

٦٥- **تاريخ الكعبة:** تأليف الدكتور علي حسين الخربوطلي ١٩٧٦

٦٦- **تاريخ الشعوب الإسلامية:** تأليف كارل بروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، طبعة تاسعة ١٩٨١

٦٧- **تاريخ ابن الريوندي الملحد:** تأليف الدكتور عبد الأمير الأعسم، طبعة أولى ١٩٧٥

٦٨- **تفسير ابن كثير**

٦٩- **تفسير الخازن**

٧٠- **تفسير النسفي**

٧١- **تعريف عام بدين الإسلام:** تأليف علي الطنطاوي، الطبعة الحادية عشرة ١٩٨١

*****

***

*

فهرس

موضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
الجزء الأول «البدائية وطبيعة الإيمان»	٧
من هو البدائي؟	٩
البدائية موضوع إلحاد انثربولوجي	٩
تجربة الروح	١١
الساحر والروح	١٤
العدل وتجربة الروح	١٦
الطوطم والروح	١٨
العلم والروح	١٩
الأمراض وتجربة الروح	٢٠
الساحر والإلحاد	٢١
الإلحاد المغلوط	٢٢
العقل بين الإلحاد والبدائية	٢٤
الجزء الثاني «المصريون وتجربة الإيمان»	٢٧
المصريون وتجربة الروح	٢٩
السياسة وتطور الآلهة	٤١
الجزء الثالث «الهندوسية بين الإيمان والإلحاد»	٤٩
الهند وتجربة الإيمان	٥١
الإيمان لإذلال الإنسان واحتلال الأرض	٥٣
البقر بين الحاجة والإيمان	٦٠

موضوع	رقم الصفحة

العقل والإيمـان ٦٢
الكهنة والإلحاد ٦٥
بوذا والإلحاد ٧١
خاتمة ٧٤
الجزء الرابع «اليهود بين الإيمان والتحريف» ٧٧
اليهود والعهد القديم ٧٩
العهد القديم ودروب الإلحـاد ٨٠
الأنبياء يتهمون الكتبة بـالتحريف ٨٢
الكهنة والتحريف ٩٩
الكهنة ومنهج الإبـتزاز ١١٤
الصراع بين الكهنة والملوك ١١٦
الأرض ومنهج الإيمان ١٢٨
القرآن وقضية الأرض والنسل عنـد اليهـود ١٣٥
الله بين الإلحاد والإيمان ١٣٩
الإلحاد والصراع بين الكهنة والأنبياء ١٤٨
البعث والعنصرية ١٥٦
القرآن والعهد القديم ١٥٩
خاتمـة ١٦٢
الجزء الخامس «المسيحية بين الإلحاد والإيمان» ١٦٣
المسيح والتاريخ ١٦٥
التحريف بين العقل والتناقض ١٦٧
الدعاة والتحريف ١٧٢
الدين والملائم ١٧٩
بولس وإنجيل يسوع ١٨٤
ابن الله بين التأويل والحقيقـة ١٩٠

رقم الصفحة

موضوع

المسيحية بين الأخلاق والقانون ١٩٥
المسيح والصليب ١٩٩
المسيحية والعقل ٢٠٨
خاتمة ٢١٧
الجزء السادس «الإسلام بين العقل والإلحاد» ٢١٩
الرسول والبيئة الثقافية ٢٢١
تجربة الأمين ٢٢٤
القرآن والعبقرية ٢٣١
المتشابه والبرهان ٢٥٠
الإلحاد والعناد ٢٦٤
الإلحاد بين الجهل والكذب ٢٦٩
الملحد يكره العرب ٢٧٢
الإلحاد والأخلاق ٢٧٢
الإلحاد يعتمد الظن ٢٧٦
خاتمة ٢٧٩
المراجع ٢٨١
الفهرس ٢٨٥

* * * * *

* * *

صدر للمؤلف

١- المنقذ من الضلال.
٢- العقل والالحاد.

كتب أخرى للمؤلف تحت الطبع..

١- العقل بين الفلسفة والقرآن.
٢- القرآن ومنهج التأويل «دراسات في فكر الدكتور محمد شحرور».
٣- الكرامة في الفكر الصوفي.

* * * * *

* * *